كتابي

١٠ قروش

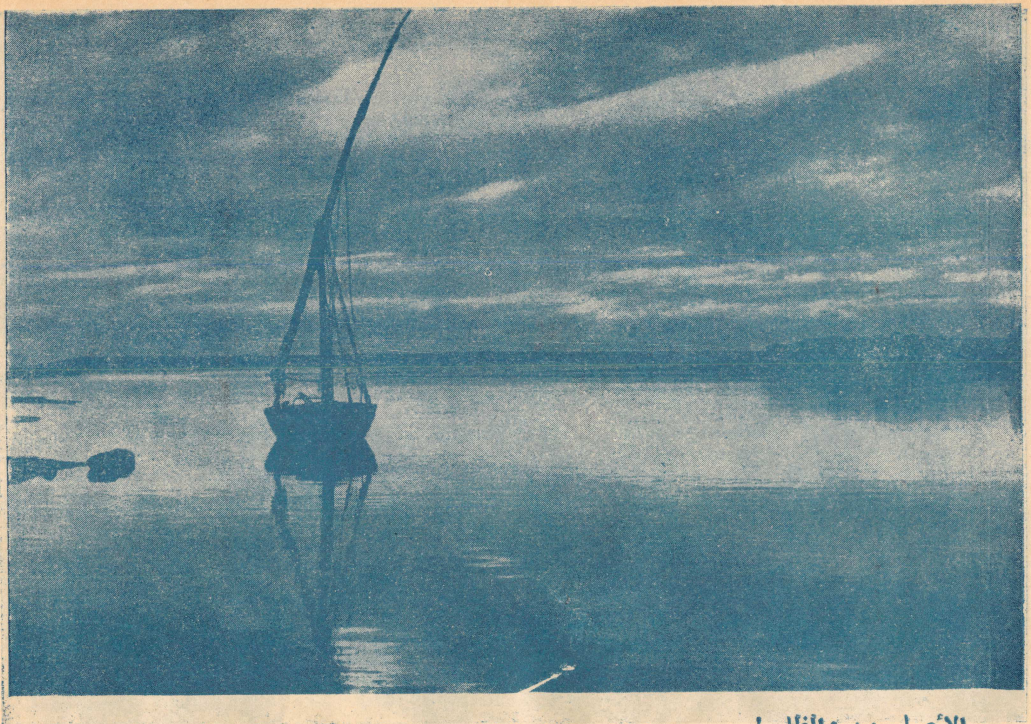


الأسرة السعيدة
للرسام "ج. س. كوبلي" (١٧٣٨ - ١٨١٥)

حلمي مراد



الانسان في مراحل عمره الثلاث ! لوحة تمثل الرسام لورنزولوتو (١٤٨٠ - ١٥٥٦) ، ومن رسمه



الأصل .. والظل ! من لوحات النيل الخالد، تصوير الاستاذ يوسف عبد الشهيد المحامى

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار « كتــابى »

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب التاسع والخمسون (السنة الخامسة) : فبراير ١٩٥٧
الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقــاهرة
تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات الكتـــاب

كتابى يثب وثبة جديدة!

عزيزى القارىء ..

◆ **بهذا** العدد يختتم « كتابى » عامه الخامس ، ويتحفز للدخول فى عامه السادس ابتداء من العدد القادم باذن الله ..

خمسة أعوام من الكفاح الشاق فى سبيل ارساء دعائم كتاب يستهدف نشر الثقافة الرفيعة وفتح آفاق جديدة من المعرفة أمام قارىء لغتنا العربية .. بل وتوطيد صلات التفاهم العقلى بين قراء هذه اللغة فى كافة أرجاء الوطن العربى الواحد ، من بغداد والبحرين .. الى الجزائر ومراكش !

واذا كان هناك من مغزى لنجاح « كتابى » فى تثبيت قدميه فى ميدان الطباعة والنشر ، فهذا المغزى الكبير هو أن «كتابى» قد حطم الأوهام والمقاييس القديمة التى كانت تزعم أن القارىء فى بلادنا العربية لا يقبل على الصحافة الجادة التى تخاطب العقل والوجدان والعواطف السامية .. وان هذا القارىء لا يختص بحبه وايثاره سوى الكتب التى تخاطب فيه الغرائز وتتعمد اطلاق نوازع الاثارة فى كيانه من عقالها ! .. أما الثقافة الرصينة والمعرفة المجردة عن الهوى والمصلحة التجارية ، فقد كان الظن أن سوقهما فى بلادنا العربية مصيرها الى الكساد والبوار !

كان ذلك هو الظن ، وهو العرف الجارى ، حتى أراد الله لكتابى أن يخرج الى النور ، مستهدفا نشر رسالته التى أخذ على عاتقه تحقيقها ، مهما كانت العوائق ، وأيا كانت المثبطات !

.. خرج كتابى الى النور ، حاملا مشعل النور ، فاستقبله الأصدقاء مشفقين ، متشائمين ، يخشون عليه وعلى صاحبه من صدمة الفشل والاخفاق ! .. واستقبله البعض مرجفين ، وراحوا يتبارون – ويتراهنون ! – حول تقدير عمره المقدور :

بين شهرين أو ثلاثة ، أو ستة أشهر على أقصى تقدير !

لكن الوليد الذى توقعوا له الموت ، أراد له الله الحياة ٠٠ فعاش ، وكبر ، واشتد ساعده، حتى أنجب ربيبته «المطبوعات»، بفضل الأذرع الحانية التى تلقته حين ولد ، وتعهدته بالعناية والرعاية ٠٠ وما تزال

وهذه الأذرع الحانية ، والأكف المؤمنة برسالة « كتابى » ومطبوعاته ، هى التى أرجو أن تتلقى « كتابى » فى عامه الجديد ـ ابتداء من العدد القادم ـ بنفس الترحيب ، والود ، والتفاهم المتبادل ٠٠ التى تلقته بها فى أعوامه السابقة

أما هو : « كتابى » ، وصاحبه ، وأسرة تحريره ، فحسبهم فى هذه المناسبة الحافلة بالذكريات والعبر ، أن يحشدوا جهودهم ، ويضاعفوا البحث والسهر والاطلاع ، كيما يقدموا لك فى أعداد العام الجديد زادا دسما من المادة الثقافية المصفاة ٠٠ وأبوابا جديدة ، مدروسة ، من الموضوعات التى لم يطرقها « كتابى » فى أعوامه السابقة ٠٠ وهى أبواب أترك الحديث عنها لها ، ولك ، حين تطالعها وتتعرف اليها ، فى العدد القادم والأعداد التى تليه ٠٠

ارسل الى بمقترحاتك ٠٠

◆ **على** أنى اذا كنت قد بذلت ما فى وسعى كى أقدم لك فى الأعداد القادمة كل جديد ، ونافع ، من الأبواب والكتب والموضوعات ، **فاننى لا أعفيك ـ البتة ـ من اطلاعى على آرائك ومقترحاتك وما يجول بخاطرك فى هذا الصدد ٠٠ وموافاتى يوما بعد يوم بأمنياتك التى تبغى أن تراها محققة على صفحات « كتابى »، كيما نتعاون على اخراجها الى حيز التنفيذ ، فى أقرب فرصة وأجمل اطار ٠٠**

فالى اللقاء على صفحات « كتابى » القادم باذن الله
ولك أطيب تحياتى

حلمى مراد

كتـــابى

أعداد نفدت

الكتب الستة الأولى ، والادارة مستعدة لشرائها

كتابى السابع « **عشيقة نابليون** » ، والثامن « **مذكرات كيوبيد** » ، والتاسع « **صنم تحطم** » ، والعاشر « **حديقة الله** » ، والحادى عشر « **عندما تحقد المرأة** » والثانى عشر « **لعبة الحب والموت** » ، والثالث عشر « **توبة خاطئة** » ، والرابع عشر « **أيهـا الربيع ترفق** » ، والخامس عشر « **الشـيطان على الأرض** » ، والسادس عشر « **ليدى هاملتون** » ، والسابع عشر « **الأرملة المرحة** » ، والثامن عشر « **حياة جورج صـاند** » ، والتاسع عشر « **حياة سارة برنار** » ، والعشرون « **رباعيات عمر الخيـام** » ، والحادى والعشرون « **حياة بيتهوفن** » ، والثـانى والعشرون « **حيـاة موسولينى** » ، والثـالث والعشرون « **كوخ العم توم** » ، والرابع والعشرون « **الزوج والعشيق** » ، والخامس والعشرون « **البوهيمية** » ، والسادس والعشرون « **فتاة لها ماض** » ، والسابع والعشرون « **ترويض النمرة** » والثـامن والعشرون « **فن الحب** » ، والتاسع والعشرون « **الجريمة والعقـاب** » ، والثلاثون « **المنافق** » (**طرطوف**) ، والحادى والثلاثون « **أميرة مصر** » ، والثانى والثلاثون « **الأمطـار** » ، والثالث والثلاثون « **أفروديت** » ، والرابع والثلاثون « **أقنعة الحب السبعة** » ، والخامس والثلاثون « **سـالومى** » ، والأعداد من ٣٦ الى ٥٨

• **وتطلب** من ادارة « **كتـــابى** » : ١٤ شـارع ٢٦ يوليو بالقاهرة (عمارة الجنـدول) وثمن كل عـدد من العـدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالصا أجرة البريد (المسـجل) ماعدا العـددين ١٣ ، ١٦ وثمن كل منهما ١٢ قرشـا ، والعدد العاشر والعدد ٥٧ وثمن كل منهما عشرون قرشا ... وابتداء من العدد ٢٥ ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا

• **ملاحظة : ترســل القيمة فى مصر والسـودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو بالطريقة المبينة فى ظهر هذه الصفحة • وتحرر الأذون باسم صاحب المجلة شخصيا**

مطبوعات « كتابى »

صـدر منهـا حتى الآن :

قصـة مدينتين ـ ذات الثوب الأبيض ـ الخالدون ـ الخاطئة ـ حيـاة امرأة (جزءان) ـ الخطيـئة الأولى وفتـــاة من الأقاليم ـ أوديب ـ مدام بوفارى (جزءان) ـ عاشقات فى الخريف ـ قلوب ضالة ـ ديكاميرون (ألف ليلة وليلة الايطالية) ـ الظمأ للحب ـ جين اير (ثلاثة أجزاء) ـ فاتنات الرجال ـ رجال ونساء ـ الثأر للوطن ـ فرنسا الجريحة على ضفاف النيل

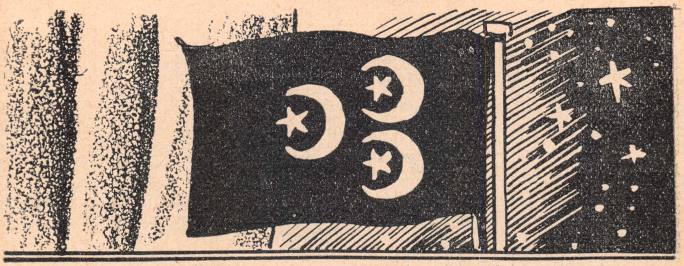
وثمن كل من الأول والرابع والسابع والتاسع عشر ، عشرون قرشا (نظرا لوشك نفادها) والثانى والثامن والتاسع والعاشر والحادى عشر والثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر والسابع عشر والثامن عشر والعشرون والحادى والعشرون ١٢ قرشا ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش ، والثانى عشر ١٤ قرشا خالصة أجر البريد المسجل •

« كتابى » يشترى الاعداد الستة الاولى من القراء !

نظرا لالحاح الكثيرين من القراء فى طلب الأعداد الستة الأولى من « كتابى » ، ولتعذر اعادة طبعها فى الوقت الحاضر ، ولما كان لايبعد أن يكون لدى البعض أكثر من نسخة من الأعداد المذكورة .. **فقد رأت ادارة « كتابى » أن تعلن عن استعدادها لشراء أى عدد من نسخ الأعداد الستة الأولى تمهيدا لتمكين من تنقصه الأعداد المذكورة من اقتنائها بعد ذلك من الادارة . فالرجا الاتصال بالمجلة فى هذا الشأن ، على أن يكون تسليم النسخ اليها حضوريا أو بالبريد المسجل .**

الاشتراك فى « كتابى »

• ترسل جميع الأعداد الى المشتركين : بالبريد المسجل وقيمة الاشتراك فى مصر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) ١٢٠ قرشا ، وعن نصف سنة (٦ أعداد) : ٦٥ قرشا - فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والأردن والحجاز الخ ..) ترسل القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة أو بتحويلات عليه ، واذا تعذر ذلك ، ترسل كوبونات دولية فئة ٤٠ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر ، علما بأن الكوبونات الدولية فئة الأربعين مليما تصرف بسبعة وثلاثين مليما فى مصر . وتحتسب القيمة بما يوازى ١٤٠ قرشا (عن سنة) و ٧٥ قرشا (عن نصف سنة) . وفى الكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وآمريكا وفرنسا وآلمانيا واستراليا الخ . قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا (عن سنة) و ٨٥ قرشا (عن نصف سنة) خالصة أجرة البريد المسجل بخلاف أجر البريد الجوى



عرابي

مسرحية مصرية بقلم : محمد كمال هاشم المحامى



تلخيص : محمد بدر الدين خليل

أشخاص المسرحية

الشخصيات التاريخية

أحمد عرابى باشا
على فهمى باشا
البكباشى محمد عبيد
الأميرالاى على يوسف (خنفس الخائن)
الشيخ محمد عبده
عبد العال حلمى باشا
طلبة عصمت باشا
القائمقام أحمد عبد الغفار
الشيخ عبد الله نديم
مصطفى درويش (مبعوث سلطان تركيا)
الخديو توفيق ـ خسرو باشا ـ عثمان رفقى باشا
جنرال ستون (رئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى ، وهو أمريكى)
مسيو لارمى (ناظر المدارس الحربية)
مستر كوكسن (القنصل البريطانى)
مسيو جون نينيه (عميد الجالية السويسرية وصديق المصريين)
مسيو فردينان ديلسبس

الشخصيات غير التاريخية

الصاغ عبد العزيز مجاهد (من ضباط عرابى) ـ علاء الدين باشا (من أعيان مصر) ـ أسماء (ابنة علاء الدين وزوجة عبد العزيز) ـ عامر (خادم علاء الدين) ـ أحمد كاظم (من الضباط الشراكسة) ـ امرأتان فى وفد نساء الاسكندرية ـ كاتب الجلسة فى محاكمة قصر النيل ـ غلام مصطفى درويش باشا ـ الديدبان ـ جندى انجليزى

الفصل الأول

◆ **ترفع** ستار الفصل الأول عن قاعة الضيافة فى منزل علاء الدين باشا ، وقد انهمكت « أسماء » - ابنة رب البيت - وعامر الخادم ، فى اعداد القاعة لاستقبال ضيوف قادمين ٠٠ ويقبل الباشا ليتفقد النظام ، ثم لا يلبث أن يقبل الأميرالاى على فهمى الديب بك - اميرالاى حرس الخديو - والأميرالاى عبد العال حلمى بك - حكمدار الآلاى السودانى - فتبادر « أسماء » الى الانسحاب ، ويدخل القادمان ٠

علاء الدين : أهلا وسهلا بضباط جيشنا ٠٠ أهلا ومرحبا

عبد العال حلمى : أهلا بالباشا الحاج ٠٠ عودا حميدا

على فهمى : ٠٠ وحجا مبرورا ! ٠٠ واين العقال الذى وعدتنيه ؟

ويؤكد له رب البيت انه قد أحضر العقال ٠٠ ويدور الحديث بينهم ، فندرك ان علاء الدين باشا من أصحاب الأراضى الموفورة الخصب ، ومن أنشط أعيان البلد ، وله فى أوساط الأدباء ومجالس العظماء ذكر طيب ٠ ولا يلبث أن يفد الشيخ عبد الله النديم - مدير مدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية - والشيخ محمد عبده ، رئيس تحرير الوقائع المصرية ٠ ويبادر الأخير الى تقديم الأول الى رب الدار

عبد الله النديم : أتقدمنى للباشا ، وقد اصطدمت به مرارا من قبل ؟

علاء الدين : هذا افتراء ، فان من يصطدم بى لابد ان ٠٠ يحطمه بطنى !

النديم : لقد اصطدمت بك منذ سنوات ، هنا فى القاهرة، فأطاح بى بطنك الكريم الى الاسكندرية ٠٠ اطمئن ، فأنا الآن مشغول بالعقول !

عبد العال حلمى : أية عقول هى ؟ ٠٠ لعلها ليست عقول

الملائكة !

النـــديم : بل تكفينى الآن عقول البشر

محمد عبده : ذاك لعمرى أشق عليك ، فقد أعيت عقــول البشر البشرية نفسها منذ الأجل !

علاء الدين : يا عامر ٠٠ اطلق البخور حتى تنصرف العقول !

محمد عبده : حدثنا اذن يا عبد الله ٠٠ ما هى بوادر الفطنة التى تعالج بها العقول ؟

النديم : التنكيت والتبكيت !

واذ يعلق كل من الحضور على جوابه ، يبادر فيذكر ان هــذا اسم المجلة الجديدة التى يعد العدة لاصدارها فى الاسكندرية بعد شهور ، فيصيح الاميرالاى على فهمى : « أما كفاك ان تكون مشخصا وكاتبا مسرحيا ؟ »

ويقبل فى تلك الأثناء السيد «أحمد عرابى الحسينى المصرى» ـ اميرالاى البيادة الرابع ـ والصاغ عبد العزيز مجــاهد ٠٠ ويسأل على فهمى زميله عرابى عن سر تأخره فى الحضور ، فيذكر انه كان يحاول مقابلة عثمان رفقى من أجــل مطالب الجيش ، ولكن هذا رفض مقابلته

محمد عبده : قلت لكم سابقا : عليكم برياض باشا ، رئيس مجلس النظار ٠٠ انه مصرى مثلنا

عبد العزيز : انه مستبد لا يؤمن بحقنا ٠٠ لا يؤمن بالشعب

عبد العال حلمى : لقد حاولنا التفاهم معه عندما أصدر عثمان رفقى ـ ذلك الشركسى الجاهل الذى جعلوه ناظرا للجهادية ! ـ قانونه المسموم

* * *

◆ **ويتعرض** الحضور لنقدالسياسة العامة ٠٠فقانون القرعة يحــرم ترقية الضــباط المصريين ليظـل الجيش فى أيدى الأتراك والشراكسة ٠٠ والحزب الوطنى مضطهد وصحفــه

معطلة .. واصحاب الرأى مشردون ، منفيون .. والضرائب تقصم الظهور .. حتى المتسولون فرضوا عليهم ما أسموه ضرائب الغجر ! .. والخديو يتهالك على أقدام الدول الأوربية، ويتنكر لوعده باقامة نظام دستورى وحكومة شورية ، ويقصى شريف باشا عن الحكم ، فيقيم بدلا منه رياض باشا ، ليحكم الشعب بالحديد والنار

محمد عبده : هذه ثورة ، ونحن لم نستعد للثورات بعد !

علاء الدين : والدول الاجنبية تتربص بمصر

فيقول عبد الله النديم : « لقد تربصت بما فيه الكفاية .. ألا ترى ماليتنا فى ايديهم .. ان القنصلين الانجليزى والفرنسى ـ سير ادوارد ماليت ، ومسيو مونج ـ هما خازنا ماليتنا ! » .. **والخديو ـ كما يقول على فهمى ـ لا يهمه سوى ان يستلب لنفسه مائة الف جنيه فى العام ، ولأسرته قرابة نصف مليون .. فضلا عن الديون وفوائدها !**

عبد العزيز : الجوع والعرى والسخرة والكرباج .. لا عدل ولا قوانين .. وفى النهاية ، النفى والموت لمن يجرؤ على الشكوى !

محمد عبده : ذكروا القوم حولكم بما ينصب عليهم من ظلم .. اصرخوا فى آذانهم يقوموا قومة رجل واحد

ويقبل اذ ذاك البكباشى محمد عبيد مسرعا ، فيذكر ان عثمان رفقى أصدر أمرا بنقل الأميرالاى عبد العال حلمى من الآلاى السودانى الى منصب كتابى بديوان الجهادية ، وعين مكانه شركسيا .. وفصل أحمد عبد الغفار بك ـ قائمقام الفرسان ـ وعين مكانه شركسيا آخر . فتثور خواطر الحضور .. ويقول محمد عبيد ان الضباط جميعا قد اتجهوا الى دار عرابى ينتظرون ان يقودهم .. ويجمع الحضور على ان عرابى خير من يقود حركة الضباط والشعب ، فيذكرهم النديم بأن الحكومة لن تتورع عن قتل عرابى

محمد عبيد : أفئن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟!

وينهض عرابى ، فينهض معه الضباط الحضور ، ويعاهده علاء الدين على أن تكون أمواله رهن طلبه ۰ واذ ينصرفون ، يقول عبد الله النديم : « ان علينا نحن أيضا واجبا مقدسا ۰۰ أن نحشد حولهم القلوب » ۰۰ ويهم بالانصراف ، فيقول الشيخ محمد عبده : « خذنى معك ۰۰ انها ليلة تكشف الأقدار فيها عن نفسها ۰۰ ليلة يصنع فيها التاريخ ! » ۰۰ فيصحبهما علاء الدين قائلا : « لعل اسمى يفلت الى سطور ذلك التاريخ »

محمد عبده : تعال ، فما التاريخ الا هؤلاء الذين خرجوا لتوهم ، وبهم لهفة الى الآخرة ، يشوقهم وجه الله ، فيهبون حياتهم للكنانة

وينصرفون جميعا ، فتدخل « أسماء » وعامر قاعة الضيافة ۰ ولا يلبث عبد العزيز مجاهد ان يعود ، فما ان يرى أسماء حتى يرتبك ۰۰ فيقول عامر : « ما بالك يا سيدى ۰۰ أليست خطيبتك ؟ » ۰۰ ويخلى الخادم لهما المكان ، فتقول أسماء لخطيبها انها تعلم انه فى شغل بسواها ، وانها لا تلومه على حبه لتلك الغريمة ۰۰ « **لا تنكر ۰۰ لسوف تخرج اليها حالا ، وتعيش معها دواما ، وأعيش انا الأخرى معك ومعها من أجلها » ۰۰ فما تلك الغريمة الحبيبة سوى : مصر ! ۰۰ وتردف أسماء قائلة : « اذهب اليها ، فانها فى حاجة اليك ۰۰ اضرب بسيفك ثم عد الى ! »**

* * *

◆ **وتدور** احداث المشهد الثانى من الفصل الأول ، فى قاعة فسيحة بديوان الجهادية بقصر النيل ، وقد جلس ـ على منصة عالية ـ عثمان باشا رفقى ، وجنرال ستون ، ولارمى باشا ، وخسرو باشا ، وكاتب الجلسة ۰۰ بينما جلس أمامهم أحمد

عرابى وعبد العال حلمى وعلى فهمى ٠٠ وأحاط بالقاعة جنود أتراك ٠٠ ويبدأ كاتب الجلسة قائلا : « يوم أول فبراير سنة ١٨٨١ ، الثانى من ربيع أول عام ١٢٩٨ هجرية ، بموجب أوامر عالية من الدستور الأكرم والجناب الأعظم الخديو » ٠٠ وكلما ذكر اسم « الخديو » هب عثمان رفقى وخسرو قائلين : « تعظيم، اجلال افندم » ٠٠ ويتلو الكاتب الأمر بتأليف مجلس جهادى – أى عسكرى – مخصوص ، لمحاكمة الضباط المصريين الثلاثة لأنهم أعلنوا العصيان ، وكتبوا شكوى قدموها الى رئيس النظار فى ١٧ يناير سنة ١٨٨١

خسرو (فى أسلوب عربى مهشم) : رياض باشا عطوفتلو نظر فى العرضحال فوجده مطالب جريئة وروح شريرة ٠٠ وقال لهم هذا ليس تمام ، قال عرابى لا ، هذا تمام ٠٠ اليس كذلك ؟

عرابى : اننا لم نطلب الا حقا وعدلا

ويعلن عثمان رفقى ومسيو لارمى بأن فى عمل المتهمين خروجا على شرف الجندية وعلى قسمهم بالولاء للخديو ، فيجيب عبد العال حلمى : « **لقد أقسمنا لمصر قبل ان نقسم للخديو !** » ٠٠ ويقول على فهمى : « لقد سئم جيش مصر ان يرى على قيادته أغرابا ! » ٠٠ ويردف عرابى : « **هل اذا طلبنا ان ينهض جيشنا من كبوته ، وان تحطم الأغلال التى تقيدونه بها ، وان يزداد عدد رجاله ليصبح لائقا ببلادنا ، تقولون انها ثورة على الخديو والسلطان ؟** »

لارمى : ولماذا يزاد عدده والدولة تعيش فى أمن وسلام ؟

عرابى : ألم تكفكم مهزلة حملة الحبشة التى رميتم الجيش المصرى فى أتونها لتقضوا عليه ، وبعتموه خيانة وغدرا لأعدائه هناك ؟

ستون : ولكن كيف يزاد عدد الجيش ؟ ان السلطان لن يرضى !

عبد العال حلمى : ان فرمان ولاية الخديو توفيق يعطينا هذا الحق

ويضيف « خسرو » اتهاما جديدا : فان الضباط الثلاثة طالبوا بتشكيل مجلس شورى وبانتخاب نواب من نبهاء الأمة ٠٠ وهنا يقول « ستون » - الأمريكى - ان المتهمين سيحاكمون بموجب القوانين العسكرية ، ويقره « لارمى » الفرنسى ، ورفقى وخسرو الشركسيان ، فيصيح عرابى . « **لستم أنتم قضاتنا، ولا ذاك القانون بالحكم الذى نقبله ٠٠ لقد طالبنا بالغائه !** » ٠٠ ويقول للفرنسى : « أليس بلدك مهد الحرية كما تقولون ؟ ٠٠ أليس شعار ثورتكم - التى تدعون أنها خلصت العالم من الظلم ! - هو : الحرية والاخاء والمساواة ٠٠ أم أن هذا فى فرنسا وحدها ؟ » ٠٠ واذ يقول ستون ان الخديو يكفل مصالح الشعب ، لأن هذا الشعب لم يصل الى درجة تؤهله لحكم نفسه ، يصيح عرابى : « **أفأنتم الذين تأخذون بأيدينا؟ ٠٠ أتحسبوننا لا نعرف مطامع أوربا فى بلادنا ؟ ٠٠ ولكننا لكم بالمرصاد ٠٠ ان مصر للمصريين وحدهم !** »

ويصف عرابى تركيا بالرجل المريض ، فيستنكر منه خسرو ورفقى تهجمه على الامبراطورية العثمانية ، مقر الخلافة ٠٠ ويصيح خسرو فى اشمئزاز ، واصفا المتهمين بأنهم فلاحون! واذ ذاك يصيح عرابى : « فلاحون ؟! ٠٠ وماذا فى ذلك ؟ ٠٠ اننا نشتغل فى أرضنا ونخرج قوتنا بعرقنا ٠٠ أما أنتم ايها الغربان ٠٠ أيها التنابلة! » ٠٠ وهنا ينفعل الشركسيان فيستدعيان ضابطا من الشراكسة يتأكدان منه أن آلاى عرابى سلم لضابط آخر ، كما تم تسليم الآلاى السودانى وآلاى الحرس الخديوى لضابطين غير زميلى عرابى فى الاتهام ٠٠ فيصيح عثمان رفقى : « لقد استتب الأمر لنا ٠٠ أسامع أنت وهو ؟ ستبقون ثلاثتكم فى السجن »

عبد العال حلمى : أتحسبون أننا نرهب السجن ؟ ٠٠ لقد بعنا الدنيا بالآخرة !

على فهمى : ولن نبقى فى السجن دواما ، بل ربما أدرككم مصيركم الأسود من حيث لا تعلمون !

عرابى : ان سجننا خلوة ، وقتلنا شهادة ٠٠ عجلوا وكفاكم هذه المهزلة !

ويستنكر ستون ولارمى هذه « القحة » ، ولكن عرابى ينطلق فيعير الأتراك بالخديعة التى توسلوا بها للقبض عليه وعلى زميليه ٠٠ اذ دعاهم عثمان رفقى لتدبير مراسم واحتفالات زواج أخت الخديو ، ثم اعتقلهم ٠٠ فيصيح عثمان رفقى : « نحن لا نتوسل بالغش ٠٠ نحن شجعان ! » ٠٠ ويردف خسرو : « أشجع من على الأرض نحن ! » ٠٠ وهنا تسمع جلبة فى الخارج ، وأصوات مقذوفات نارية ، وهتافات: « المجد للشعب ٠٠ النصر للجيش » ٠٠ ويظهر الجنود المصريون من النوافذ والأبواب ، فيفر الحراس الشراكسة ، ويتسلل عثمان رفقى هاربا ، ويخفف لارمى وستون من غلوائهما ، فيعلنان أنه لا دخل لهما فى الأمر ، وأن المسألة من المسائل الداخلية بين الشعب والحكومة ٠٠ ويظهر الصاغ عبد العزيز مجاهد ، فيسد منافذ الفرار أمام خسرو ٠٠ ويسمع صوت محمد عبيد فى الخارج وهو يأمر الجنود بمحاصرة الديوان ٠٠ ثم يقبل محمد عبيد ، فيحاول منع ستون ولارمى وخسرو من الخروج

عرابى : دعهم فماهم غير خدم مأجورين ٠٠ سيذهبون الى سيدهم ، وسنلحق بهم هناك

على فهمى (لخسرو) : الا أنت ٠٠ لتكفر عن سبابك لنا ! ٠٠ قبل قدمى هذا الجندى !

عبد العال حلمى : أجل ٠٠ قبل قدمى أحد الفلاحين والا ٠٠

فينحنى خسرو ويقبل سروال أحد الجنود قائلا : « أقبل قدمك يا فلاح أفندم »

ويذكر محمد عبيد كيف أنه جمع الجنود والضباط عندما علم وزملاؤه نبأ القبض على القادة الثلاثة ، وكيف أراد الخديو

أن يتحدث اليهم فرفضوا ، وحاصروا قصر عابدين بالأورطة الأولى ، وأقاموا حراسة على البنوك والمتاجر ودور الأجانب والوطنيين ، خشية ما قد يثيره الشراكسة من فتنة ، ثم أقبلوا فحاصروا الديوان ..

عرابى : والآن .. اضرب نوبة تجمع ، ولنأخذ تشكيلة طابور ميدان ، ثم .. الى المعركة ! .. **الى حيث يجلس رجل تطاول على حق الشعب .. الى الخديو !**

أصوات : النصر للجيش .. المجد للشعب . العزة لله !

الفصل الثانى

◆ **وترفع** ستار الفصل الثانى عن ميدان عابدين ، وقد بدت واجهة القصر ،وفيها الشرفة التى تظلل مدخل التشريفات، ثم باب الحرملك .. وفى الجانب ثكنات الحرس .. والوقت بعد ظهر ٩ سبتمبر سنة ١٨٨١ ، وصوت البروجى والنداءات العسكرية ينبعث من الثكنات .. ثم يخرج عثمان رفقى من الثكنات ويجرى نحو القصر صائحا : « ياجناب الخديو .. يارجال الحاشية ! » .. ويخرج خسرو باشا ، فيعلم منه أن رجال آلاى حرس الخديو يستعدون للهجوم على القصر بأسلحتهم ، فيجرى هو الآخر نحو القصر ، ويدخل من باب الحرملك صائحا .. ولا يلبث أن يخرج الخديو توفيق محوطا بمستر كوكسن القنصل البريطانى ، ولارمى ، وستون .. ويدعو كوكسن الاميرالاى على فهمى بك ليسأله عما يحدث داخل الثكنات ، فيقول الضابط انها مجرد استعدادات ، وانه المسئول وحده عن أعمال الآلاى

توفيق : بل أنا سيدكم ومولاكم ، فلا تطيعوا سواى .. مر رجالك بأن ينصرفوا !

واذ يعتذر الضابط عن عدم استطاعته اصدار هذا الأمر ، ينفعل توفيق ويمسك بذراعيه ، فيصيح محمد عبيد آمرا الجنود بأن يعدوا أسلحتهم ، فيتراجع الخديو خلف الحاشية مذعورا ، ويطلب الى على فهمى أن يأمر الرجال بالانصراف ، بينما يحاول كوكسن وستون ولارمى أن يسترضوا على فهمى ٠٠ ويعود توفيق فيقول له : « انما كنت أختبرك وأختبر رجالك (لمحمد عبيد والجند) انكم أولادى وحرسى الخاص ٠٠ يا على فهمى بك ، اننى أطلب منك أن تتخذ الاستعدادات الكفيلة بحماية القصر من أى اعتداء »

ستون : وأنت أيها الصاغ محمد عبيد ٠٠ وزع الجنود على منافذ السراى ، وأقيموا المتاريس

محمد عبيد : اننى أتلقى أوامرى من قائدى وحده

توفيق : يجب أن تحافظوا على حياتى ٠٠ يجب أن تحمونى !

محمد عبيد : سنحافظ على شرف مصر ، ونحمى ذمارها

ويقبل اذ ذاك خسرو ورفقى وهما يصرخان ، فيعلنان أن الآلاى الثالث سيهبط من القلعة ، كما أن بقية الآلايات فى طريقها ٠٠ وينصح ستون ولارمى سيدهما بالهرب من القاهرة واللجوء الى تركيا ، ولكن كوكسن يهتف به : « أتفر وتدع عرشك ؟ ٠٠ يجب أن تواجه الأزمة » ٠٠ ويعمد كوكسن الى اغراء الخديو على الخروج بنفسه الى الجنود ليكون لشخصه تأثير عليهم ، ثم يأخذه من ذراعه ويتجه به الى باب التشريفات ، فيتبعهما ستون ولارمى ، بينما يتولى الضابطان المصريان دراسة خطة لمحاصرة القصر وسد منافذ الميدان ٠٠ وتسمع هتافات من الخارج : « **الجيش صوت الشعب ٠٠ الجيش جيش الشعب ٠٠ عرابى حامى الديار** »

ويعود الخديو والأجانب المرافقون له ، وقد تجلى الهلع على توفيق ، بينما كان كوكسن سادرا فى اغراء الخديو على أن يهدىء جأشه ، وأن يظهر أمام الجند ٠٠ ولكن توفيق يبدى

خوفه من أن يقتلوه ، فيقول كوكسن : « لو خضعت لهم فى هذه المرة ، فسيطمعون فى المزيد » • ويدفع اليه بمسدس ، ولكن توفيق يجزع ، ثم لا يلبث أن يمسك بالمسدس ، بعد أن ينضم ستون ولارمى الى كوكسن

لارمى : أيها البكباشى محمد عبيد ، ان الخديو يطلب سيدك

محمد عبيد (من الخارج) : أيها الفرنسى ، ليس بيننا سادة وعبيد ، انما كل من هنا جند وقادة •• واذا كان جناب الخديو يريد أحد قادتنا ، فليناد عليه هو ••

توفيق : أرأيتم ؟ •• هذا ضابط صغير ويرد علينا بتلك القحة

كوكسن : يا سمو الخديو ، ناد أنت بنفسك على عرابى

وينادى توفيق ، ولكن عرابى يشترط أن يدخل مع رفاقه •• فيطلب اليهم كوكسن أن يترجلوا عن خيلهم وأن يغمدوا سيوفهم ، ثم يوصى الخديو بأن يخفى المسدس جيدا ، وأن يصوبه من خلف ذراعه •• واذ يدخل عرابى يبادره كوكسن متسائلا عن أسباب العصيان ، فيرد القائد : « ان حديثنا سيوجه الى مقام الخديو وحده ! » •• وعندما يسأله الخديو ، يقول: « ألم تصلكم عريضة الجيش والشعب ؟ »

ستون : أتسمونها عريضة ؟ •• انها انذار !

لارمى : انها مطالب متطرفة

* * *

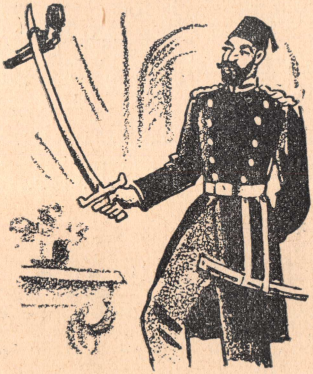
◆ **ويحاول** توفيق أن يصرف على فهمى وعبد العال حلمى ومحمد عبيد ، وأن يستبقى عرابى ، ولكنهم يأبون ، ويكاشفون الخديو وأعوانه الأجانب بأنهم يخشون غدر الحاشية التى تنفق المال ، وتقدم جوارى القصر ، لتحريض الجيش على عصيان الضباط المصريين •• ويقول عرابى للخديو ان حكومته رفضت التصديق على القوانين والتعديلات العسكرية ، فيجيب

كوكسن : « لأنكم رفضتم أن يقوم الجند بحفر الرياح التوفيقى » . فيقول عبد العال حلمى ان هذا ليس من عمل الجند .. ويقول عرابى : « لن يسلم الجند سلاحهم ، ونحن هنا لنعرض عليكم مطالب الأمة .. ومن الحكمة أن تستجيب لها يا جناب الخديو ، فكلها مطالب عادلة ! »

وكان أول المطالب اسقاط وزارة رياض المستبدة ، وتشكيل مجلس النواب ، وزيادة عدد الجيش ، والتصديق على القوانين العسكرية

ويطالب ستون بمنح الخديو فرصة للتفكير ، ويهمس كوكسن لتوفيق : « لقد تغالوا .. صوب المسدس الى قلب عرابى واضرب » .. ويستجيب الخديو ، وهو يقول متشجعا : « لا حق لكم فى كل هذه المطالب .. اننى ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى ، وما أنتم الا عبيد احساناتنا ! »

عرابى : لقد خلقنا الله أحرارا ، ولم يخلقنا تراثا وعقارا ، **فو الله الذى لا اله الا هو ، اننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم !**



ويسقط المسدس من يد توفيق ، فيضع عرابى قدمه عليه . ويبادر كوكسن زاعما ان المسدس سقط منه عفوا ، ولكن عرابى يلتقط المسدس بطرف سيفه ويقدمه للخديو قائلا : « حاذر منه ، فهو لعبة خطرة »! .. ولكن توفيق يأبى أن يتناول المسدس ، فيأخذه كوكسن ، ويدخل توفيق الى القصر ولا يرمى خلفه ، بينما يقول كوكسن : « ان طلب اسقاط الوزارة

وتشكيل مجلس للنواب من حقوق الأمة لا الجيش »

عرابى : ان الشعب قد أنابنا ، فهؤلاء الجند اخوته وآباؤه وأولاده ٠٠ انهم القوة التى تنفذ مطالب الأمة

وتتصاعد اذ ذاك هتافات من الخارج : « الجيش جيش الشعب ٠٠ الجيش صوت الشعب ٠٠ عرابى ، عرابى حامى الديار »

ويصر القادة على أن لا يبرحوا مكانهم حتى تجاب المطالب ، فيطلب كوكسن من ستون أن يبلغ هذا الاصرار للخديو ، ثم يقول لعرابى : « ولكن استعمال القوة قد يؤدى الى ضياع بلادكم »

عرابى : عند الاقتضاء يستطيع هذا البلد الأبى أن يحشد ملايين من الجند يدافعون عن حريته !

ويعود لارمى ليعلن موافقة الخديو على اقالة وزارة رياض باشا ، وتعيين حيدر باشا يكن – صهره – رئيسا للوزارة الجديدة ٠٠ ولكن هذا الحل لا يرضى الضباط الثلاثة ، لأن الشعب والجيش يطلبان تعيين محمد شريف رئيسا للنظار ، فيذهب لارمى لابلاغ الخديو ، بينما يسأل كوكسن الضباط عن بقية مقترحاتهم ، ويوفد ستون لابلاغ الخديو أنهم يطالبون بتعيين البارودى باشا ناظرا للجهادية والبحرية ، ومصطفى فهمى باشا للخارجية ٠٠ ولا يلبث لارمى وستون أن يعودا ليعلنا قبول الخديو لجميع هذه المطالب ٠٠ ويسرع محمد عبيد وعرابى بالبشرى للشعب والجنود

* * *

◆ **وفى** المشهد الثانى – من الفصل الثانى – نرى غرفة بديوان البحرية بالاسكندرية ، حيث كان عرابى يقيم أثناء تهديد الأسطول الانجليزى للمدينة ٠٠ وخلال نافذة كبيرة مفتوحة ، تبدو القلاع والأسطول والسماء ، ، قبيل بزوغ

شمس يوم ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ٠٠ ويرى اللواء طلبة باشا عصمت مغفيا على مكتبه ، ولكنه يستقيظ مذعورا اذ يلج الغرفة عبد العزيز مجاهد ، ويذكر أنه شاهد فى نومه حلما فظيعا

عبد العزيز : ان أعصابك منهوكة يا سيدى ، وما أحوجك الى الراحة

ويروى طلبة أنه رأى فى منامه سفن الأسطول الانجليزى تصب على القلاع المصرية نيران حقدها ٠٠ ويبدى توجسا ، لأن أحلامه كثيرا ما كانت تصدق ! ٠٠ ويدوى فى تلك الاثناء صوت بروجى ، ويدخل عرابى باشا ، فيسأل عبد العزيز : « هل سلمتم رد حكومتنا الى الأميرال سيمور » ٠٠ واذ يعرف أن قائد الأسطول البريطانى مصر على موقفه ، يقول : « **فليصر ! ٠٠ وواجبنا أن نحشد قوانا ، فان حريتنا واستقلالنا أعز علينا من الحياة !** »

ويدرس عرابى مع طلبة عصمت توزيع القوات المصرية ، ومواقعها ، وخطوط دفاعها ، ويستعرضان سفن العدو ، ثم يقول عرابى : « هذا أكثر من طاقة حصوننا ، فغالبيتها لم تجدد منذ عهد محمد على ، ومعظم مدافعها قريبة المرمى ، لا يمكن لقنابلها أن تخترق دروع السفن الانجليزية ٠٠ هذه الحصون لن تستطيع المقاومة أكثر من أربع وعشرين ساعة ! »

طلبة عصمت : اذن ، فما العمل ؟

عرابى : العمل ؟! ٠٠ **سنقاول يا رجل أو نفنى ! كم عدد رجال حامية الحصون ؟**

ويعرف أن عدد آلاى طوبجية السواحل ١٧٠٠ جندى ، ولكن الموجود منهم ٧٠٠ فقط ، لأن الحكومة السابقة سرحت معظم الجنود «بحجة الوفر»! ٠٠ ومن ثم يأمر عرابى بالاستعانة بحامية المدينة ٠٠ ثم يلتفت الى عبد العزيز وينصحه بأن يذهب للاطمئنان على زوجته ، فان وفاة أبيها « علاء الدين باشا »

كانت صدمة لها . ولـكن عبـد العزيز يأبى أن يفوته شرف الاشتراك فى القتال ، ويتوســـل الى عرابى حتى يسمح له بالانضمام الى جنود قلعة الفنار .. ولا يلبث أن يفـد عبد الله النديم ، قادما من القاهرة ، فيـذكر لعرابى أن رجـال الحركة الوطنيةهناك استطاعوا أن يكشفوا مؤمرة انجليزية دنسة .فقد أوفدت انجلترا مستشرقا يدعى «بالمر» لكى يرشو قبائل البدو التى تتنقل بين قناة السويس وغزة ، ولكن البارودى باشـــا أرسل للأعراب من أوضح لهم مقاصد الانجليزى ، فقتلوه .. ويستطرد النديم قائلا : «أخشى أن يعاودوا الفتنــة .. وكفانا مذبحة الاسكندرية . ان دماء شهداء الأحد ١١ يوليو تطالب بالثأر »

عرابى : لقد انتهت لجنةالتحقيق من عملها ، وثبت أن رجال القنصلية البريطانية حاولوا تأليف قوة دفاع أوربية

طلبة : ان مسئولية مستر كوكسن واضحة تماما

عرابى : ومن ورائه السير ادوارد ماليت ، والخديو نفسه.. كانت مؤامرة تستهدف أن يفلت زمام الأمور من أيدينا

* * *

◆ **ويؤكد** عرابى ان الاجراءات قد اتخذت للقبض على كل من تسول له نفسه الاعتداء على أبناء الوطن . وفى تلك الأثناء ، يعلن « الديدبان » ان بالباب وفدا من النساء ، فيدهش عرابى ، لاسيما وان الساعة لم تتعد الخامسة صباحا ، ولكنه يسمح لهن بالدخول .. ويفاجأ بأسماء ـ زوجة عبد العزيز مجاهد ـ ومعها امرأتان .. وتعلن النسوة الثلاث انهن ما جئن الا ليشتركن فى الجهاد ، فيعملن فى القلاع والحصون ، يحملن للأبطـال الطعام والشراب والذخائر

عرابى : ولكن الصبية الصغار فى حاجة اليكن ؟

احدى المرأتين : لم يعد فى البيوت صبية !

المرأة الأخرى : ان أطفالنا الآن فى الشوارع يهتفون لآبائهم

أسماء : وستراهم يقيمون المتاريس ويسهرون على حراسة الطرق

النديم : اللهم فاشهد ٠٠ لقد أبى ذلك الشعب الا أن يطاول الشمس عزة وفخارا !

عرابى : كما ترون ، فلن أبخل على مصر بمجد يريد ان يكون من نصيبها !

واذ يخرجن ، يطلب عرابى الى النديم ان يدعو أعضاء مجلس النواب من عطلتهم على عجل ، ليكلف كل نائب بجمع الامدادات من دائرته ٠٠ ولا يلبث ان تفد رسالة عاجلة من الخديو ، الذى ترك رأس التين ، ولاذ بسراى مصطفى باشا بالرمل ٠ ويقرأ عرابى الرسالة ، ثم يهتف مغيظا : « يا للغادر !٠٠ هناك حركات غير عادية فى الرمل ٠٠ ويبدو ان الخديو يدبر خطة للهرب الى اليخت السلطانى مع المعتمد العثمانى ! »

ويأمر عرابى بالكتابة الى مشايخ عربان البحيرة ، ليوفدوا فرسانا منهم لحصار سراى الرمل ، وبأمر ضابط الحرس الخديو بأن لا يدع « هذا الخائن » ـ أى الخديو ـ يخرج من القصر ٠ ولا يلبث أن يصل المعتمد العثمانى السامى « مصطفى درويش » ، ومعه غلام يطلق وراءه البخور ، ويحمل له علبة النشوق ٠٠ ويتظاهر المعتمد العثمانى بالافراط فى التقوى ، ويبدى الود لعرابى ، ثم يقول : « انما جئت أجلو الصدور ، وأزيل النفور ، وأجبر الود الذى كان بينكم وبين الخديو ٠٠ ان جنابه العالى آخذ عليك قولتك عنه فى مايو السالف ٠٠ تلك القولة التى أفلتها لسانك عن غير وعى »

عرابى : عن غير وعى ؟!٠٠ لا والله ، لقد قلتها فى ليلة ابى سلطان ، وأقولها اليوم : **لن يبقى على عرش هذا البلد رجل أجنبى !**

ويصل الشيخ محمد عبده ، فيحتفى به المعتمد العثمانى ، بينما يسأله عرابى عن نتيجة مقابلته للقنصل الفرنسى ، فيجيب بأن مسيو ديفورج أكد له ان حكومته لن تتدخل ، واستشهد بانسحاب الأسطول الفرنسى

عرابى : أخشى ان تكون خطة للحصار

ويرى الشيخ محمد عبده ان فرنسا خرجت من الحرب السبعينية منهوكة القوى ، فيردف المعتمد العثمانى : « وانجلترا لن تقبل على ضرب الاسكندرية خشية نقمة الرحمن وغضبة السلطان ! »

النديم : انت تضحكنى يا صاحب السماحة ٠٠ أتخشى انجلترا غضبة السلطان ؟

فيعلل « مصطفى درويش » رأيه بأن الانجليز يتظاهرون بمناصرة الخديو ، ومن ثم فعلى رجال الحركة الوطنية ان يصطلحوا مع الخديو وينفذوا أوامره ، ليفوتوا على الانجليز حجتهم !

عرابى : أننفذ أوامر ذلك الذى أساء الينا ، فاعتدى على دستورنا ، واستعدى الدول الاجنبية علينا ؟!

محمد عبده : وقبل مذكرة انجلترا وفرنسا ؟!

ويحرج مصطفى درويش ، ولكنه لا يلبث ان يقول : « ان الخديو غاضب لرفضكم ذهاب الجيش الى السودان » ٠ فيصيح عرابى : « أكنتم تريدون ان نرسل مصريين ليحاربوا اخوانهم فى الجنوب ؟ » ٠٠ ويجيب العثمانى بأن المهدى يهدد حدود مصر ، فيقول محمد عبده : « **لا والله ، فما هو بمحتل ، وانماهو ثائر من أبناء النيل ، يسعى ليخلصه من الاستعمار والخيانة** »٠٠

ويعاود مصطفى درويش دبلوماسيته ، فينصح عرابى بمغادرة مصر فترة يقضيها فى الآستانة ، فى ضيافة السلطان ٠٠ولكن الحضور يكشفون له عما يعلمونه من ان الخديو منحه خمسين ألفا من الجنيهات كرشوة ، فلا يرى بدا من الانصراف فاشلا !

وبعد قليل ، يسمع صوت انفجار قنبلة ، تعقبها اخـــرى ، فيختطف عرابى سيفه وينطلق وقد أيقن ان الانجـــليز بدأوا غدرهم ٠

الفصل الثالث

◆ **وترفع** ستار الفصل الثالث عن خيمة عرابى في معسكر جنوده بكفر الدوار ، وأصوات المعركة تتعالى فى ١٩ أغسطس سنة ١٨٨٢ ٠ وتسمع أصوات عرابى واحمد عبد الغفار وطلبة عصمت وعبد العزيز مجاهد تنبعث فى الخارج ، فنفهـــم ان الانجليز انهزموا ولاذوا بالهرب كما فعلوا فى رشيد وأبى مندور والحماد ٠٠ وينادى عرابى فى جنوده ان يطاردوهم ويثأروا منهم ٠ ثم يدخل مع رفاقه ، ويقول : « **لن تمس جنوبنا المضاجع ، أو تهدأ سيوفنا فى أغمادها ، حتى نطهر أرضنا منهم !** » ٠٠ ويثنى وزملاؤه على طلبة عصمت قائد القطاع ، وواضع الخطة التى كللت بالنصر ٠ وفيما هم فى فرحتهم ، يقبل مســـيو « جان نينيه » عميد الجالية السويسرية ، وصديق المصريين ، فيهنىء بالنصر فى ابتهاج ، ويذكر انه كان يرقب المعركة عن كثب « **لأسجل تاريخكم قبل ان تعبث به أيدى المؤرخين فيشوهوا حقائقه ارضاء لأغراض حكامهم واهوائهم !** » ٠٠ وفى تلك الأثناء يقبل مسيو فردينان دى لسيبس ، فيقول نينيه : « عرابى يا صديقى ٠٠ كن على حذر من ذلك الرجل »

ويحيى الفرنسى القائد المصرى فى تملق ورياء ، ولا يلبث ان يكشف عن انه جاء يطمئن على مصير قناة السويس ، اذ بلغه ان بعض القادة نصحوا بردمها ، فيقول طلبـــة عصمت : « **بل كل القادة مصرون على ذلك !** »

فردينان : أوه ، ولكننى لا أرى داعيا لأن يفقد العالم كله عملا هندسيا انسانيا رائعا ٠٠ انها ستجعل من مصر قطعة من أوربا ٠٠ ستجعل من مصر ومن تاريخكم أسطورة خالدة !!

طلبة عصمت : ستجعل منا أسطورة للبله والغباء ، ومن مصر مطية لكل طامع أثيم !

ويقول عرابى وزملاؤه ان المؤتمر العسكرى قرر ردم القناة ، قبل ان يحتلها الانجليز ، فيؤكد فردينان استحالة دخول هؤلاء الى القناة ، ويقول : « لن ينزل جنـــدى انجليزى الا اذا كان بصحبته جندى فرنسى !! » ، فيصيح عبد العزيز : « هو احتلال مزدوج اذن ؟ »

فردينان : لن يجرؤ الانجليز على التعرض لعمل فرنسى ٠٠ ان أوربا ثائرة من أجلكم !!

عرابى : ثائرة من أجلنا ؟! فمن اذن يدبر لنا المكائد فى مؤتمر الآستانة الآن ؟!

ويؤكد فردينان ان فرنسا لن تتخلى عن مصر ، فيذكره نينيه بأن السفير الفرنسى فى لندن بادر الى وزير خارجية بريطانـيا مهنئا بموقفه الحازم ازاء مصر ٠٠ ويقول فردينان أن هذه مجرد مجاملات دبلوماسية ، ثم يستطرد : « لقد صرح سير ولفـــريد لاوسن فى مجلس العموم بأن ما قامت به انجلترا فظاعة دولية ، وعمل يجمع بين الجبن والقسوة والاجرام ٠٠ وهو اعظم النواب الأحرار قدرا » !! فيقول نينيه : « **أوليس جلادستون رئيس حكومة انجلترا ، والمســئول عن هذه المجــازر ، هو شيخ الأحرار ؟!** »

ويصر القادة على أن القناة هى خط دفاعهـــم الوحيـد فى الناحية الشرقية ، فلابد من ان يحولوا دون احتلالها بردمها ٠٠ ويقول عرابى لفردينان : « أيها الفرنسى ، اذهب الى أهلك وقل لهم اننا كنا نحترم القناة ما دامت أوربا تحترم اســـتقلال بلادنا ٠ أما الآن ٠٠ »

فردينان : ستثيرون عليكم دول العالم أجمع ، فالقنـاة ملك للانسانية كلها !!

أحمد عبد الغفار : بل ملك لمصر وحدها

* * *

◆ **وبعد** ان يخرج الفرنسي ، يبدى عرابى حيرة ازاء القناة ، ثم يقول : « **أهى رخيصة علينا حتى نردمها ؟ ٠٠ لقد حفرتها أيد مصرية ، فى أرض مصرية ، ودفعنا ثمنها دما ، ودموعا ، وأموالا طائلة ٠٠ فلننتظر أياما أخرى ، عسى الله أن يهيىء لنا من أمرنا رشدا** »

ويخلو عرابى الى قادته يتذاكرون شئونهم ، فيطمئن الى ان كل المواطنين - غنيهم وفقيرهم - يمدون الجيش بحاجاته ٠٠وقد نزل الكثيرون له عن قوتهم وقوت عيالهم ٠ ويعلن عرابى أنه يتوقع ان يحول الانجليز دفة الحرب الى الجبهة الشرقية ، عند القناة ٠ وفى تلك الأثناء يصل الشيخ عبد الله النديم ، قادمامن القاهرة ، فينبىء عرابى بأن المجلس العرفى اجتمع - ممثلا لكافة طبقات الأمة - وعلى رأسه كل الرؤساء الدينيين ٠٠ «**وان المشايخ : محمد عليش ومحمد العدوى وأبو العلاء الخلفاوى أصدروا فتوى بمروق الخديو عن الدين لانحيازه للأجانب ٠٠ وقد ثبتت للشعب خيانة توفيق بعد أن أعلن عصيان القادة المصريين ، وسوغ للانجليز احتلال البلاد ، ودعا الى مناصرتهم ٠** وذكر النديم ان النظار - أى الوزراء - رفضوا العودة الى القاهرة ، وآثروا البقاء فى الاسكندرية مع الخديو ، فتولى يعقوب سامى باشا ، وكيل الحربية ، رئاسة المجلس العرفى لادارة شئون الحكم والاستمرار فى التعبئة العامة ٠٠

وفى تلك الأثناء تسمع ضجة فى الخارج ، ويأتى الجنود يسوقون جنديا انجليزيا وقد جردوه من سيفه وأوثقوه ٠٠ ويعرف عرابى انه وجد هائما على وجهه فى الحقول ، وقد عقل الخوف لسانه ٠٠ واجمع الحضور على وجوب قتله ، ولكن عرابى يقترح تفتيشه أولا ، واذا بهم يعثرون معه على صورة فوتوغرافية له ولأسرته ٠٠ ويتأملها عرابى ، ثم يقول : « يا لطفليه البريئين !٠٠ انهما ينتظران أوبته ! »

النديم : لم تأخذهم بأطفالنا رحمة !

عبد العزيز : انه وعصابته لم يرعـوا الله فى أولادنا ٠٠ ان الجنود يطلبون رأسه !

ويطيل عرابى تأمل الصورة ، ثم يأمر بفك وثاق الانجليزى ورد سيفه اليه ٠٠ ويعترض الجميع ، ولكنه يصر على رأيه ٠ ثم يقول للانجليزى : « والآن ٠٠ اذهب فأنت حر ! » ، ويقـول النديم : « ولكن ، ما الحكمة ؟ » ٠٠ ويخرج الانجليزى سيفه من غمده ، فيصيح الجميع محذرين ، ولكن عرابى يقول : « لاتخافوا ، فانه لم يعد عدوا لنا ٠٠ لقد رددناه الى انســـانيته ! » ٠٠ ويشهدون الانجليزى يحطم سيفه على ركبتـــه ، ثم يركع ، ويحتضن فخذى عرابى فى عرفان وشكر !

* * *

◆ **وفى** المشهد الثانى من الفصل الثالث ، نرى معســكر العرابيين فى التل الكبير ـ فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٢ ـ وقد انتصف الليل ، ووقف عرابى فى الظلام مستندا الى ســارية العلم ، متطلعا الى السماء ٠٠ وتتناهى اليه أصوات الجنود وهم يذكرون الله ويسبحون بحمده ، فيناجى الله سائلا اياه ان يثبت قلوبهم ٠ ويفاجئه محمد عبيد فى خلوته هذه ، فيهتف : «أتبكى؟ ٠٠ وفى هذه الليلة بالذات ؟ » ٠٠ فيقول عرابى : « أفلا يحق لى أن أبكى عبد العزيز الذى احتسبته ؟ » ٠٠ ثم يردف قائلا : **« هذه الأرض القفر على جانب القناة ، وقد استودعناها أغلى بنينا ، يجب ان تثمر على الدهر رجالا يمحـون العار ! »** ٠٠ ويتذكر فى أسى من استشهدوا أو أسروا أو جرحوا ، فيقـول محمد عبيد : « ان شهادة أبطالنا نفيريدوى على مدى الدهر ، داعيا للثأر ٠٠ وجرحانا يأبون عليك البكاء ٠٠ فجراحهم أوسمة ! »

عرابى : هكذا جازت علينا الخديعة ، وتركنا القناة فاحتلهـا

الانجليز

محمد عبيد : فلنجعل منها مقبرة لهم !

عرابى : كنا خليقين بأن نفعل ذلك قبل ان تنبت الخيانة أشياعا لها فى صفوفنا ، ومن رجالنا !!

ويفد عليهما عبد الله النديم ، فينصح بأن يؤمر الجنود بالكف عن الذكر ، وبالرقاد ، فيقول عرابى : « ان قلوبهم فى حاجة الى ما يثبتها ! »

محمد عبيد : كان من الواجب ان نبعد مشايخ الطرق عنهم

عبد الله النديم : ان احدا لم يدعهم ، ولكنهم انحدروا مع المتطوعين

ويقبل أحمد عبد الغفار قائلا : « أيها السادة ، هناك أخبار مخزية ٠٠ عن رجال كانوا الى الأمس فى معسكرنا ، ثم باعوا أنفسهم ! » ٠٠ ثم يذكر ان سلطان باشا ، مبعوث الخديو ، يحاول استمالة مشايخ العربان بالرشوة والوعود ، وقداستطاع ان يشترى مسعود الطحاوى – فى الصالحية – ومحمد البقلى ، فى وادى الطميلات ، وعربان الهنادى ٠ **وفى تلك الأثناء يقبل الاميرالاى على بك يوسف – (خنفس) – حاملا رسالة من قائد جيش الوادى ، مؤكدا « ألا خوف الليلة من هجوم الانجليز ، فهم على بعد كاف !! »**

النديم : هذا عكس ما نقله الينا الأعراب الفارون أمام الانجليز

ولكن « خنفس » يؤكد ان طلائع الكشافة تأكدت من ذلك ٠ ويردف قائلا : « ويبدو ان السير جرانت ولسلى قد اتجه بجيشه الى الجنوب ! » ٠٠ واذ يبدى الجميع دهشتهم ، يقول على يوسف : « هل تكذبوننى؟ » ، فيقول عرابى : « لعل كشافتك لم تقم بواجبها على الوجه الأكمل » ، ولكن الخائن يؤكد انه كان معهم وفتش كل شبر فى الصحراء من (القصاصين) حتى خط الدفاع الأول ٠٠ « وقد اتخذت وعبدالقادر بك عبدالصمد ورجالنا خطا دفاعيا مستقيما يمتد من الترعة الحلوة الى الجهة

الشرقية » . واذ يبدى عرابى أن هذا مخالف لتعليماته ، يقول الخائن : « اطمئن ياسيدى ، فاننا ندبر لهم مكيدة يتحدث عن شناعتها التاريخ ! » .. وبينما يأمر عرابى باخطار الروبى فورا كى يتخذ الآلاى الثالث من المشاة الوضع الذى حدده ، يروح على يوسف يقسم بأن العدو بعيد ، فيتساءل النديم : « لم هذا الاصرار ؟ »

ويخرج أحمد عبد الغفار لاصلاح الموقف ، فيصحبه على يوسف بينما يعرب محمد عبيد عن شكه فى ذلك الضابط ، فيقول عبد الله النديم : « ان فى طبعه خسة اشتهر بها ، حتى لقد لقبه بعض زملائه بخنفس »

محمد عبيد : وهذا الاصرار منه .. واسراعه الى القسم دون مبرر

النديم : وتأكيده ابتعاد الجيش الانجليزى عن التل الكبير

محمد عبيد : لم تكن هزيمتنا فى القصاصين وليدة قوة عدونا وضعفنا ، فقد كنا نحن المهاجمين .. **لابد أن خطة المعركة أفشيت للانجليز .. اننى أومن بذلك .. لقد باعنا الرجل !**

عرابى : ولم لم تخبرنى من قبل ؟.. وماذا تنتظر اذن ؟.. أسرع الى الروبى واطلب اليه اعتقال على يوسف فورا ، وارساله الى فى حراسة مشددة .. واقامة طلائع استكشاف أخرى

واذ يخرج محمد عبيد يقول عرابى : « **ياللخيانة ! .. الخيانة .. يا لك من اسم بشع لكائن أشد بشاعة ! .. اننى لا أخشى أن يبيعنى خائن ، فليست لشخصى قيمة .. ولكنهم يبيعون مصر .. انهم يمزقون جسدها !** » .. ويعلن « الديدبان » اذ ذاك أن الجنود اعتقلوا أعرابيين كانا يحاولان التسلل الى الخطوط الأمامية . ويقاد اليه الاعرابيان ، فاذا هما « أسماء » وخادمها عامر ، وقد جاءا متطوعين فى الجيش . وتقول أسماء اذ وضحت شخصيتها ، واذ رأت عرابى والنديم يبكيان وقد

تذكرا زوجها : « ان عبد العزيز فى قبره لا يطيق دموعكما » .. ويقول عامر انها منذ سمعت عن مصرع زوجها لم تدمع عيناها ، فيعزيها عرابى ، ولكنها تقول : « **ليس العزاء ما جئت من أجله .. انما هو الثأر !** »

عرابى : ولك عهد علينا أن نثأر لزوجك بألف منهم

أسماء : بل تثأرون لمصر ، لا لعبد العزيز .. وليس بألف فقط ، بل بهم جميعا .. بكل انجليزى تطأ قدمه هذه الأرض !

واذ ينصحها عرابى بأن ترحل عن الميدان ، تهتف: « لا والله ما جئت الا لأكون الى جواركم هنا » .. وتقسم أنها ستحارب فى مكان زوجها وبدلا منه ، فلما يذكرها عرابى بأنها لا تستطيع استخدام السلاح ، تقول : « **حبى لوطنى سيبعث فى جسدى قوة تعينني ! .. وغضبى عليهم سوف يمكنني منهم ويسدد يمينى !** » .. ويقول عرابى : « أتريدين أن يقولوا اننا استعنا بنسائنا ؟ »

أسماء : بل سيقولون : جاءتهم نساؤهم طوعا ، يهبن المهج ويقدمن دماءهن قربانا للوطن .. ليست نساء مصر أقل شجاعة من رجالها !

وينبعث اذ ذاك صوت النفير مدويا ، ويدخل الديدبان صائحا : « نفير المعركة ! » ، فيهتف عرابى : « يا لخنفس الخائن! انهم الانجليز » . وتسمع أصوات طلقات وصراخ ، ثم يدخل الديدبان معلنا أن الانجليز يشنون هجوما ، فيصيح عرابى : « انه القتال .. انه الموت الكريم ، أو الحياة الحرة ! » .. ويمتشق النديم سيفه هاتفا : « **فلنمت كراما** » .. **ويصيح** عامر : « وأنا معكم ! » ، **وتهتف أسماء :** « **اليهم .. اليهم !** »

عرابى : اننا لها والله ، اننا لها .. **لن تخمد أصواتنا أبدا ، بل ستظل تدوى فى أسماع الوجود ! .. لن تجف دماؤنا ، بل ستنبعث فى وادينا جحافل لا تنتهى! .. يا للغد الذى أراه! . يا أبناء مصر فى كل زمان وفى كل مكان : اننا نسبقكم الى التل الكبير ، فالحقوا بنا عبر التاريخ . الينا ، الينا فى أتون المعركة !**

وتسدل الستار



« فى مقصورة الأوبرا » لوحة مشهورة للفنان الاشهر « رنوار »



الحسناء « نيللى أوبريان »   من روائع الفنان « رينولدز »



مشروع للسلام الدائم .. للفيلسوف الألماني "كانت"

هكذا.. يسود السلام!

ترجمه وعلق عليه: الدكتور عثمان أمين

الكتاب الذى ألهم الرئيس « ويلسن » مشروعه للسلام !

ان السلام أمنية الانسانية فى كل عصر .. وفكرة السعى لتحقيق السلام الدائم فكرة قديمة ، تناولها الفلاسفة - من شرقيين وغربيين - منذ أقدم الأزمان . غير أن الفيلسوف الالمانى « كانت » كان أكثرهم عناية بالسعى الى وضع مشروع للسلام العالمى الدائم ، واتجه فى ذلك الى أن انشاء « حلف بين الشعوب » - كعصبة الأمم ، وهيئة الأمم المتحدة ، اللتين ظهرتا فى القرن العشرين - هو السبيل الوحيد للقضاء على شرور الحرب وويلاتها . ويكفى لبيان رجاحة دراسته فى هذا الصدد ، ما أكده بعض الكتاب من أن الرئيس «ويلسن» - الداعى الى انشاء عصبة الأمم ، والى السلام الدولى - كان يحتفظ بنسخة من كتاب « مشروع السلام الدائم » للفيلسوف « كانت » وهو الكتاب الذى يلخصه لك « كتابى » هنا ، عن ترجمة « الدكتور عثمان أمين » ، بعد تمهيد قصير عن حياة صاحب المشروع « الفيلسوف كانت » :

« كانت » والظروف التى أوحت اليه بالسلام

ولد « ايمانويل كانت» فى (كونجسبيرج) بألمانيا فى ٢٢ أبريل سنة ١٧٢٤ . وقد اتجه منذ صغره الى دراسة اللاهوت والآداب الكلاسيكية ، ولكنه حين بدأ دراسته الجامعية - وهو فى السادسة عشرة - عزف عن تعلم اللاهوت ومال الى العلوم الرياضية والطبيعيات . وصادفته عقبات عرقلت تقدمه العلمى ، ولكنه استطاع فى سنة ١٧٧٠ أن يصبح أستاذا للمنطق وما بعد الطبيعة بجامعة كونجسبيرج . واذ ذاك أخذت مؤلفاته الفلسفية تظهر تباعا .. وفى سنة ١٧٨٣ أتم وضع فلسفته النقدية التى انتشرت فى كل ألمانيا ، وتقرر تدريسها فى جامعاتها ، وبنى عليها كثير من أساتذة الفلسفة أعمالهم .



ولقد عنى « كانت » ببعض الدراسات العملية التى تتناول بعض ما يهم الناس ومصالحهم . ومنها مشروعه للسلام الدائم ، الذى نقدمه فى الصفحات التالية . على أنه يحسن بنا أن نمهد له بوصف موجز للجو الذى عاش فيه « كانت » واستوحاه هذا المشروع .

فلسفة المسئولية الجماعية

◆ وقد نشأ « ايمانويل كانت » فى عصر تكتنفه الاضطرابات ، والثورات ، والحروب الاستعمارية .. فكانت الدول تحاول بسط نفوذها فى كل مكان تستطيع الوصول اليه فى آسيا ، وأفريقيا ، وأمريكا . وكانت تدخل البلاد بزعم تعميرها ونقل المدنية اليها ، ثم لا تلبث أن تعتصر مواردها ، وتستنزف خيراتها ، وتسرق أبناءها .. ومن ناحية أخرى ، كانت هناك انتفاضات واعية ، وثورات تحريرية تهز العالم ، وكانت أشدها : الثورة الفرنسية .

واذ رأى « كانت » هذه الحروب وأهوالها ، والثورات وعنفها ، أراد أن يفعل شيئا يخدم به البشرية ، ويتيح لها به السلام الدائم الذى يكفل لها الامن والازدهار ، فانتهى به تفكيره الى المبادىء التى تضمنها مشروعه . وقد تجلت روحه فى هذا المشروع ، كما اتضحت فى فلسفته وفى حياته الخاصة . فقد بنى فلسفته الأخلاقية على نوع من المسئولية الجماعية ، يتمثل فى قوله « افعل بحيث تستطيع أن تجعل من فعلك قانونا عاما » . أى أن يسأل المرء نفسه قبل أن يقدم على أى فعل ، عما تكون النتيجة اذا عمم هذا الفعل بين الجميع .. فاذا كانت النتيجة خيرا ، كان الفعل خيرا ، ولا حرج من أتيانه !

وبذلك كان « كانت » يطالب كل انسان بأن يقدر عمله على ضوء مصلحة الجماعة . وقد تبدت هذه المسئولية الجماعية فى مشروعه للسلام الدائم ، الذى نلخصه لك فى الصفحات التالية :

النية الخالصة ٠٠أهم من المعاهدات !

◆ **« ان معاهدة من معاهدات السلام لا تعد كذلك ، اذا انطوت نية عاقديها على أمر من شأنه اثارة الحرب من جديد »**

فمثل هذه المعاهدة لا تعدو أن تكون هدنة مؤقتة لا يفتر فيها احتمال نشوب الحرب من جديد ، بينما المقصودمن معاهدة السلام أن تقضى على جميع أسباب الحرب ٠ اما أن تكون المعاهدة مجرد حيلة تكسب بها الدول وقتا تستعد فيه للدخول فى الحرب من جديد ، فان هذا التصرف يكون من التصرفات النابية ، وأحرى بكرامة الحكام أن تنأى عنه !

الدول لا تورث ٠٠ ولا توهب !

◆ **« ان أية دولة مستقلة ــ صغيرة كانت أو كبيرة ــ لا يجوز أن تملكها دولة أخرى ، سواء أكان ذلك بطريق الميراث ، أو التبادل ، أو الشراء ، أو الهبة »**

ذلك أن الدولة انما هى مجموعة متجانسة من الناس ، لا يمكن لدولة أخرى أن تفرض سلطانها عليها ، أو تتصرف فى شئونها كما يحلو لها ، لأن فى ذلك الغاء لوجود الدولة ، باعتبارها كائنا معنويا واحدا !

وجوب الغاء الجيوش الغاء تاما !

◆ **« يجب أن تلغى الجيوش الغاء تاما على مر الزمان »**

ذلك لأن الجيوش المتزايدة تعد عاملا مهما فى اثارة الحرب ٠ هذا الى أن « استئجار » الآدميين ليقاتلوا ويقتلوا ، دون أن تكون لهم رسالة أخرى فى الحياة ، انما يهبط بهم الى مستوى الآلات أو الأدوات فى أيدى غيرهم ، الأمر الذى يتنافى مع حقوق الانسان ! ٠٠ ولعل انصراف بعض الدول الى اكتناز المال أن يكون أقوى دافع الى الحرب ، اذ قد يدفع الدول الاخرى

الى المبادرة بشن حرب وقائية ضد الدول الأولى ، لما ترى من تهديد بالحرب يتمثل فى هذه القوة المالية !

وجوب منع القروض التى تساعد على الاعتداء !

◆ « يجب أن لا تعقد أية قروض وطنية من أجل المنازعات الخارجية للدولة »

فليس ثمة بأس فى أن تطلب الدولة اعانات ماليةمن الداخل أو من الخارج ، اذا كان فى ذلك مايحقق مصلحةاقتصادهاالوطنى . ولكن القروض التى تعمد الى عقدها بعض الدول لشن حرب خارجية من شأنها استعماردولة أخرى أو بسط نفوذها عليها ، هذه القروض يجب أن تقف فى سبيلها الدول ، لانها عقبة هائلة فى سبيل تحقيق السلام الدائم .

التدخل الأجنبى غير جائز !

◆ « لا يجوز لاية دولة أن تتدخل بالقوة فى نظام دولة أخرى أو فى طريقة الحكم فيها »

فما الذى يمكن أن يبرر هذا التدخل ؟ .. ان شيئا ما لا يمكن أن يبرره ، طالما كانت الدولة مجموعة من الناس ، مستقلين فى تقاليدهم وشخصياتهم .

« الحروب التأديبية » .. تهدد بفناء العالم !

◆ « لا يحق لأية دولة تكون في حالة حرب مع أخرى أن تستبيح لنفسها القيام بأعمال عدائية معينة ضد تلك الدولة ـ كالاغتيال ، والتسميم ، وخرق شروط التسليم ، والتحريض على الخيانة ـ من شأنها أن تضيع الثقة بين الدولتين عند عودة السلم » .

فلا بد ـ حتى أثناء الحرب ـ من الابقاء على شيء من الثقة في شعور العدو ، والا استحال الاتفاق على أى سلام ، وانقلب القتال فأضحى حرب ابادة وفناء !

على أن شن « حرب تأديبية » أمر لا يمكن قبوله ، فليست العلاقة بين الدول علاقة تابع بمتبوع . ومثل هذه الحرب لا تدع للسلام الدائم مكانا الا فى قبر واسع يضم البشرية كلها

دستور عالمى .. لاقرار السلام !

◆ **على** أن الكف عن الحرب ليس وحده ضمانا للسلام ، فان مجرد مجاورة الدول بعضها للبعض الآخر ، يتضمن تهديدا كافيا للسلام . وعلى هذا ينبغى « اقرار » حالة السلام ، وذلك بحمل الدول على الانتماء الى هيئة قانونية ما ، أو دستور مدنى ما . وهذا الدستور — من حيث الأفراد الذين يخضعون له — لا يمكن أن يخرج عن واحد من أشكال ثلاثة :

١ — القانون المدنى ، وهو الذى يوضع لحكم شعب ما

٢ — قانون الشعوب ، وهو الذى ينظم علاقات الدول بعضها ببعض

٣ — القانون العالمى ، وهو يعتبر الناس والحكومات — فى علاقاتهم الخارجية — وكأنهم مواطنون فى مدينة انسانية شاملة

وذلك التقسيم ضرورى لاقرار فكرة السلام الدائم . وعلى هذا الاساس ، تبنى المواد التالية :

المادة الأولى : الدستور الجمهورى .. أصلح الدساتير !

◆ « **يجب أن يكون الدستور فى كل دولة دستورا جمهوريا** »

ذلك ان الدستور الجمهورى انما يقوم على أساس العقل الذى يجب أن يستمد منه كل تشريع . فهو يحافظ على مبدأ حرية أفراد الجماعة ، وعلى مبدأ خضوع الجميع لتشريع واحد مشترك ، ثم هو يقوم على المساواة بين الجميع

والدستور الجمهورى هو النظام الوحيد الذى يؤدى الى السلام ، وذلك لأن السلطة التشريعية فيه — وهى التى تقرر الحرب —

تكون ممثلة للشعب الذى يتعرض لشرور الحرب وويلاتها

غير أن طريقة الحكم بالنسبة للشعب أهم بكثير من النظام الصورى للدولة . وينبغى - لكى يكون نظام الحكم مطابقا لفكرة الحق - أن يكون تمثيليا ، لانه النظام الوحيد الذى يمكن أن يمنع استبداد الحكومات وتعسفها !

درس لايدن ومولیه .. !

◆ **والشعب** هو الذى يقرر اعلان الحرب، فلايجب أن يترك اعلانها للحاكم السياسى الذى قد يثير الحرب بمثل السهولة التى يقرر بها رحلة للهو ، ثم يترك مهمة تبريرها للدبلوماسيين من رجاله ..

على أن من واجبنا هنا أن نقرر - توضيحا لفكرتنا فى النظام الجمهورى - أنه كلما قل عدد الحكام فى الدولة ، وعظم تمثيلهم للأمة ، اقترب النظام السياسى من النظام الجمهورى ، وانفتح المجال للقيام بالاصلاحات المتتابعة .

المادة الثانية : النظام الاتحادى بين الدول الحرة

◆ **« ينبغى أن يقوم قانون الشعوب على أساس نظام اتحادى بين دول حرة »**

ذلك لأن مجرد تجاور الدول يتضمن تهديدا للسلام فيها ، ومن ثم وجب أن تشترك الدول المتجاورة فى نظام يجمعها ويكون لها كالقانون الدولى بالنسبة للأفراد ، أى أن عليها أن تشترك فى « حلف للشعوب » تتعهد فيه باقرار السلام ، على أن يكون هذا النظام بعيدا عن الاندماج السياسى ، فتحتفظ كل دولة منها بالصفات الخاصة التى تجعلها وحدة معنوية مستقلة . وبهذا يكون الاندماج بعيدا عن أن يمكن أية دولة منها من أن تفرض سيادتها على الدول الأخرى .

ومن الغريب حقا أن كلمة « الحق » لم تستبعد من سياسة

الحرب استعدادا كاملا ، بل غدت مجرد لفظ يستغله السياسيون لتبرير موقفهم من اعلان الحرب . فهم يفكرون أولا فى اعلانها ، ثم يطلبون الى الفقهاء تبريرها قانونيا لتلبس ثياب « الحق » .. على ان التماس مظهر « الحق دون لبه » لا يخلو من دليل على أن فى الانسان استعدادا خلقيا لابد أن يتغلب يوما على غريزة الشر فى النفوس !

على أن العقل ـ وهو المصدر الأعلى لكل تشريع أخلاقى ـ يستنكر أن تكون الحرب وسيلة لاقرار « الحق » ، وانما هو يجعل من « حالة السلام » واجبا يتعين على الدول أن تنشده . وفى سبيل ذلك ، لا بد من عقد حلف ذى طابع خاص ، يمكن أن نسميه « حلف السلام »

وليس لدولة أن تتخذ هذا الحلف لكسب أى نفوذ أو قوة ، اذ لا ينبغى للدول أن تجعل منه أكثر من ضمان لحريتها وحرية سواها من الدول المشتركة فى الحلف ، دون ما حاجة الى اكراه متبادل .. ويكفى لتحقيق هذه الفكرة أن تتيسر الظروف لشعب قوى مستنير كى ينتظم فى حكومة جمهورية ـ لأن هذا اللون من نظم الحكم هو الذى ينزع بطبيعته الى السلام الدائم ـ فلا تلبث هذه الجمهورية أن تغدو مركزا للحلف الاتحادى تنضم اليه الدول الاخرى ضمانا لحريتها ، وفقا لفكرة القانون الدولى

المادة الثالثة : أساس التزاور بين الشعوب

◆ « حق النزيل الأجنبى ـ من حيث التشريع العالمى ـ مقصور على اكرام وفادته »

والاكرام هنا يعنى عدم معاملة الأجنبى معاملة العدو ، طالما كان مسالما ، لأن الأرض بطبيعتها ملك للجنس البشرى كله ، فمن حق كل انسان أن يجوس خلالها فى طلب مصالحه ـ كالتجارة مثلا ـ على أن لا تحاول أية دولة استغلال هذا الحق فى الاضرار بدولة أخرى .. وعلى هذا النحو ، يمكن أن ترتبط

القارات المتباعدة بصلات ودية تزيد من تقريب الجنس البشرى من التشريع العالمى الشامل

ولو أننا نظرنا الى المسلك المشين الذى تتخذه دول أوربا « المهذبة ! » ، لهالتنا المظالم التى ترتكبها هذه الدول في « زياراتها ! » للبلاد الأجنبية ، اذ أن « الزيارة » عندها مرادفة للغزو والفتح ، فهى تسيطر على تلك البلاد ، وتحكمهاو تسترق أهلها ليكونوا أدوات حرب لها ، ولتستغلهم فى اثارة الحرب مع الدول الأخرى ، بينما تتظاهر هى بأنها دول اصطفاها الله !

الطبيعة تستغل الشر الفطرى لاقرار السلام

◆ **وقبل** أن نبين الضمان الذى كفلت به الطبيعة غايتها من أن تمكن الناس من العيش فى وفاق ووئام ، يحسن بنا أن نلقى نظرة على الظروف التى هيأتها الطبيعة للناس ، والتى تجعل هذا الضمان ضروريا •• فلقد يسرت الطبيعة للناس الظروف التى تتيح لهم أن يعيشوا فى جميع مناطق الأرض • ولكنها فى الوقت ذاته رسمت لهم السبل التى لابد لهم من اتباعها كى تنتهى بهم الى السلام •• **ومن ثم رأينا أن تجاور الشعوب على الأرض جعل بعضها يخشى بعضا ، مما حدا بكل شعب الى أن ينظم نفسه فى دولة مستقرة ، حتى تكون له القدرة على مقاومة أى عدوان من شعب مجاور • فالطبيعة بذلك تستخدم مبدأ الشر فى النفوس ، لارساء الاستقرار والثبات فى الدولة**

والدستور الجمهورى ــ وهو وحده المطابق لحقوق الانسان ـ من أشق الدساتير قياما ، وأقلها استتبابا ، لأنه يتوقف على ارادة الشعب وما يعتوره من تيارات ، وما فطر عليه البشر من أثرة وأنانية • **ولكن الطبيعة تستخدم هذه الميول ـ الاثرة والانانية ـ لتكوين نظام ثابت ، على نحو يجعل بعض هذه الميول يحد من بعضها الآخر** • فالواقع أنه يكفى لتنظيم الدولة تنظيما قويا ، أن تتآلف فيها القوى البشرية تآلفا يجعل

بعضها يحد من الآثار السيئة للبعض الآخر أو يقضي عليها قضاء تاما ، بحيث يصبح كل فرد مواطنا صالحا ، ولو لم يكن حميد الأخلاق ٠ اذ أن مصالحه الشخصية تضطره الى أن يقدم الخير للمجموع ، لينال هو الآخر الخير من المجموع ٠

وهكذا تستخدم آلية الطبيعة لتوجيه الاستعدادات المتعارضة لدى البشر ، توجيها يجعل جميع أفراد الشعب يلتزمون فيما بينهم الخضوع لقوانين قاهرة ، ومن ثم ينشئون حالة سلمية تقوم على احترام القوانين

وتقضي فكرة قانون الشعوب بالانفصال بين الدول المتجاورة ، نظرا لأن قوة القوانين فى أية دولة تضعف كلما اتسعت رقعة هذه الدولة ٠ وقد راعت الطبيعة ذلك ، فابتكرت سبيلين للحيلولة دون اندماج الشعوب على نطاق واسع ٠ وذانك هما : اختلاف اللغات ، واختلاف العقائد

على أن الطبيعة لم تشأ أن يكون الانفصال تاما ، فاستخدمت « تبادل المصالح » بين الشعوب المختلفة لتجمع شملها ٠ وبذلك تستعين بالروح التجارية على تفادى الحروب ٠٠ أى أنها تضمن السلام الدائم ، باستغلال الميول الانسانية ذاتها ٠٠ وهذه هى آلية الطبيعة !

مادة سرية للسلام الدائم !

◆ **« يجب أن توضع أحكام الفلسفة ، فيما يتعلق بشروط السلام الدائم ، موضع الاعتبار لدى الدول المجهزة للحرب »**

قد يبدو اهدارا للسلطة التشريعية فى الدولة ـ وهى التى ينسب اليها أكبر قسط من الحكمة ـ أن تلتمس لدى رعاياها ، ومنهم الفلاسفة ، ارشادها الى مبادىء سلوكها نحو الدول الاخرى ٠ على أن التماسها هذا هو الحكمة ، لأنهم لن يلبثوا ـ اذا لم « تدعهم » لذلك ـ أن يصرحوا بآرائهم من تلقاء أنفسهم مالم يمنعهم مانع قوى ٠ والذى نعنيه بهذا القول ، هو أن على

الدولة أن « تستمع » الى آراء الفلاسفة ٠٠ ذلك لأنه لا رجاء فى أن يصبح الملوك والحكام فلاسفة ، ولا فى أن يصبح الفلاسفة ملوكا وحكاما ٠٠ وما ينبغى أن يكون هذا مأمولا ، لأن ولاية السلطة من شأنها أن تفسد حكم العقل وأن تقضى على حريته قضاء مبرما ٠ ولكن الملوك أو الشعوب المالكة — أى التى تحكم نفسها طبقا لقوانين المساواة — يجب أن لا ترضى لطبقة الفلاسفة أن تنقرض أو تصمت ، وانما يجب أن تدع لها حرية الجهر بآرائها ، لأن فى ذلك هداية وارشادا للحكام ٠

بين السياسة والأخلاق

◆ **ومن** الامور التى لا بد منها ، التوفيق بين السياسة والأخلاق لتحقيق الغاية التى نسعى اليها ٠٠ **وفى وسعى أن أتصور وجود « سياسى أخلاقى » — أى رجل لا يقبل من مبادىء السياسة الا ما تقره الاخلاق — ولكنى لا أتصور « أخلاقيا سياسيا » ، يرسم مذهبا اخلاقيا يلائم مصالح رجل السياسة !**

والسياسى الأخلاقى يعتنق المبدأ الآتى : اذا وجدت فى نظام دولة من الدول ، أو فى علاقات تلك الدول بسواها ، عيوب لم يكن فى الوسع تلافيها ، فمن الواجب على الرؤساء أن يلتمسوا سبل اصلاحها بقدر ما فى وسعهم ، ولو ضحوا بمصالحهم السياسية ، ليقتربوا دائما من الغرض التالى : بلوغ أفضل دستور يقوم على مقتضى قوانين الحق ٠

ومن المحتمل أن يتكرر الخطأ فى مجال السياسة ، من الأخلاقيين الاستبداديين ، بسبب الاجراءات السريعة التى يعمدون الى اتخاذها ، ولكن التجربة لا بد أن تردهم الى الصواب شيئا فشيئا ، اذ تريهم أنهم ليسوا على اتفاق مع الطبيعة ٠ **فى حين أن السياسيين الذين يرتبون الأخلاق وفقا لمقاصدهم ، انما يجعلون كل اصلاح أمرا مستحيلا ، كما**

يجعلون انتهاك حرمة الحق أمرا مستديما .. هؤلاء السياسيون يطرحون ذلك العلم العملى الذى يفاخرون به ، ويشغلون أنفسهم بتملق السلطات القائمة ، خدمة لمصالحهم ، وينزلون الى مناورات لايتورعون بها عن أن يبيعوا الشعب ، بل العالم بأسره ! وهذا ما يقع لفقهاء القانون حين يلقون بأنفسهم فى غمار السياسة !

كيف يبرر السياسيون تصرفاتهم الانتهازية

◆ **ويمكن** حصر أقوال هذا الصنف من السياسيين فى تبرير أعمالهم ، فى المغالطات التالية :

١ - **افعل ثم برر** : انتهز الفرصة الملائمة للاقدام على التصرف الذى تريده ، على أن تبرره فيما بعد . فان هذا أسرع وأسهل من التماس الأدلة على مشروعية العمل قبل الاقدام عليه ، كما أن الجرأة فى التصرف توحى بأنك مقتنع بمشروعيته . والنجاح ، والأمر الواقع ، هما أبلغ المحامين عن هذه السياسة

٢ - **اذا فعلت فانكر** : فاذا دفعت شعبك الى اليأس ، والعصيان ، فانكر أن يكون الذنب ذنبك ، وانسبه الى عناد رعاياك ! واذا أنت استوليت على شعب مجاور ، فالق الذنب على الطبيعة البشرية ، وقل انك لا تأمن أن يبدأ هذا الجار بالعدوان اذا أنت لم تسبقه اليه .

٣ - **فرق تسد** : اذا طمعت فى دول أجنبية ، فاعمل على بث الفتنة بينها ، لأن هذا هو السبيل المأمون لاخضاعها كلها ، واحدة بعد أخرى . واذا شئت أن تنفرد بالسلطان فى شعبك ، ففرق شمل الزعماء ، وبث الوقيعة بينهم وبين الشعب ، وابذل لهذا الوعود بأنك ستمنحه مزيدا من الحرية .

ابتداع الحجج لتبرير الخطأ .. اعتراف بالحق !

◆ **واذا** دلت هذه الأساليب الملتوية على شىء ، فانما

تدل على أنهم لا يستطيعون التخلص من فكرة الحق ، ولا أن يجاهروا بأن سياستهم تقوم على مجرد الحيلة . **انهم لا يتجاسرون على رفض الخضوع لفكرة القانون العام ، ومن ثم فهم يتظاهرون بالخضوع وان راحوا يبتدعون مئات الحجج والذرائع لنبذها ، ولاقامة الحق على أساس من البطش والاستبداد .**

ولا سبيل الى القضاء على هذه المغالطات ، الا اذا أعدنا الأمور الى نصابها الطبيعى ، أى أن نبنى الأفعال على مبادىء الأخلاق ، على العكس مما يفعله السياسيون اذ يجعلون المبادىء تابعة للافعال .. ومهما تكن حجة السياسيين ، فان السياسة الصحيحة لا يمكن أن تخطو خطوة واحدة الا بعد أن تعترف بقيمة الأخلاق أولا ! .. ان حقوق الانسان واجبة التقديس ، ولا يصح فى هذا الصدد أن نلتمس أمرا وسطا ، بل الواجب على السياسة أن تنحنى للحق ، وبهذا وحده يقوى أملها فى الوصول ــ ولو ببطء ــ الى مرتبة يتألق فيها سلطانها تألقا متواصلا ، يهدينا الى السلام الدائم .

العلانية هى الضمان الأوحد

◆ **ولكن** ، ما الذى يضمن لنا أن نفرق بين الحق وغير الحق فى التصرفات ؟

ان العلانية هى الشرط الوحيد .. ذلك لأن التصرف الجائر يتسم بأننا لا نستطيع الجهر به ، حتى لا نثير علينا اعتراضات الجميع ..

والمنافاة بين قواعد القانون العام والعلانية ، تهيىء لنا معيارا حسنا نميز به الحالات التى لا تتفق فيها السياسة مع الاخلاق . على أنه لا بد لنا من أن نعرف شروط اتفاق هذه القاعدة مع قانون الشعوب ، اذ أنه لا يجوز أن نستخلص من قابلية القواعد للعلانية أنها عادلة ، لأن الذى يطمئن الى قوته

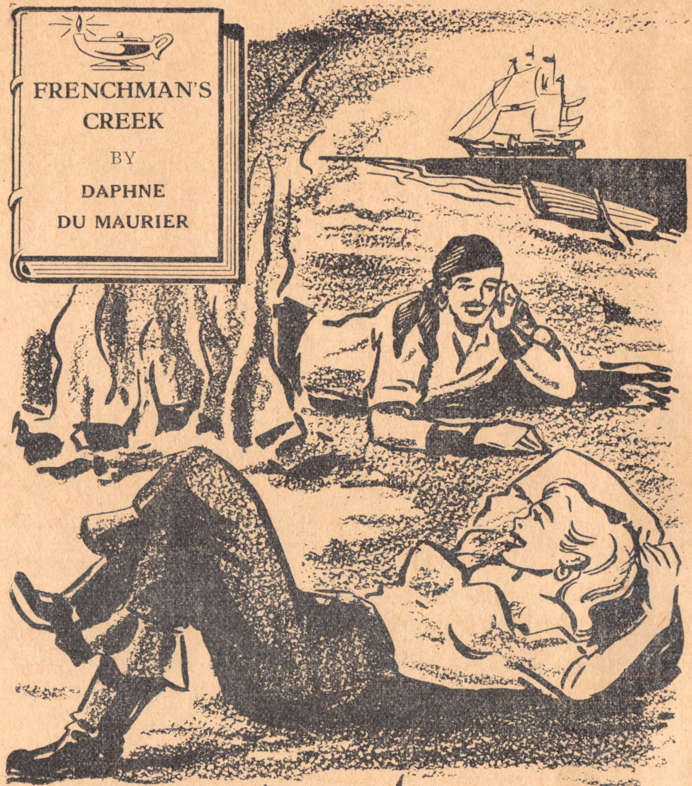
اطمئنانا لا يساوره فيه شك ، قد لا يحتاج الى احاطة مبادئه بالكتمان ٠

والشرط فى موافقة قاعدة ما لقانون الشعوب على العموم ، هو أن تقوم أولا « حالة شرعيــة » لا وجود بدونها لأى قانون عام ٠ وقد رأينا فيما تقدم أن النظام الاتحادى بين الدول ــ النظام « الفيــدرالى » ــ الذى لا يرمى الا الى تجنيــب الناس ويلات الحرب ، هو وحده « الحالة الشرعيــة » التى تتفق مــع « حرية » تلك الدول . واذن فلا سبيل الى الاتفاق بين السياسة والأخلاق الا فى ظل اتحاد « فيدرالى » ٠٠ والسياسة كلهــا أساسها الشرعى هو اقامة اتحاد من هذا القبيــل على أوســع نطاق ، وبغير ذلك لا تكون كل مهارتها الا طيشا وظلما مستورا

ونخلص من هذا الى مبدأ : « جميع الأحكام التى « تحتاج » الى العلانية ــ لكى لا يفوتهــا غرضهــا ــ توافق الأخــلاق والسياسة معا » ٠ ذلك لأنه اذا كانت هذه الأحكام لا تستطيع بلوغ غرضها الا بالعلانية ، فلا بد من أن تكون مطابقة للغاية العامة لدى الجمهور (أى السعادة) ٠ والمشــكلة التى تهم السياسة بالذات ، هى تحقيق الانسجام بينها وبين هذه الغاية

* * *

◆ ان « الســـلام الدائم » ــ الذى ينبغى أن يخلف ما أسموه خطأ « معاهدات السلام » والأولى أن تسمى مهادنات ــ ليس بالفكرة الجوفاء ، وانما هو مشــكلة تزداد اقترابا من أغراضها ، اذا عولج حلها شيئا فشيئا



القرصان الفرنسي

للروائية العالميه دافني دى موريه

تلخيص الآنسة : كليمانس م. زكي

- ١ -

◆ **كانت** السهول المترامية على جانبى نهر (هيلفورد) خاوية مقفرة ـ فى الماضى ـ الا من بعض البيوت التى تناثرت هنا وهناك . أما اليوم ، فقد تغيرت الحال ، اذ حلت الضوضاء والحركة محل السكون ، وأصبحت السفن تغدو وتروح فوق صفحة النهر ، وغدا البحارة يتزاورون ويتسامرون ، والمزارعون يستقلون السيارات أحيانا الى خارج قرية (هيلفورد) ، حيث يحتسون الشاى فى « نافرون هاوس » الذى مازال محتفظا بشىء من رونقه القديم وفخامته . **لكن أحدا منهم لايعرف شيئا عن تلك المرأة التى وقفت منذ أمد بعيد فى البقعة ذاتها ، ترقب لمعان مياه النهر خلال ثنايافروع الشجر ، وتتطلع الى السماء ، وقد انعكست على وجهها أشعة الشمس .. لا ولا يسمع أحد من رواد « نافرون هاوس » اليوم صفير ذلك الشبح ، الذى قبع تحت أسوار ذلك المبنى يوما ، بينما كانت « دونا » ترسل بصرها خلال ستر الظلام ترقبه ، وهى تدق حافة النافذة بأناملها فى ايقاع رتيب ، وقد تهدلت خصلات من شعرها الفاحم على وجهها !**

ذاك عهد مضى ، وانقضى برجاله ونسائه ، ولكن النهر ظل ينساب كعهده . وما كان لأحد من أهل زمننا هذا أن يتمثل تلك السفينة التى اعتادت أن ترسو فى الماضى عند تلك البقعة ، وسارياتها البديعة الألوان تشرئب نحو السماء ، وقد نقش عليها اسم « لامويت » .. لقد أصبح كل هذا اسطورة طواها الماضى ، وكأنها لم تكن مغامرة حظى بمشاهدتها ريف (كورنوول) فى صيف بعيد !

كانت البداية تتمثل في عربة انطلقت في سرعة جنونية

رغم وعورة الطرق الريفية فى مقاطعة (كورنوول) ٠ وبين حين وآخر ، كانت تنبعث من جوف العربة صيحات سيدة حادة المزاج ، لا تكف عن لوم الحوذى وحثه ٠٠ ثم لا تلبث « دونا » ـ كما كانت السيدة تدعى ـ أن تلتفت الى طفليها « جيمس » و « هنرييت » مع مربيتهما « برو » ، فما أن تطمئن الى استغراقهم فى النوم ، حتى يعاودها التفكير فى وعورة الحياة فى الريف الذى كانت تسعى اليه مدفوعة بثورة جنونية انتابتها ٠٠ **ثورة تبرم بحياة لندن المتكلفة ، الماجنة ٠٠ حياة الحفلات والولائم والخمر والميسر والغزل ٠٠ الحياة التى جعلتها تسأم كل شىء وكل شخص ، حتى زوجها «هارى» الذى كان يمثل ـ بكسله وخموله وسكره واستهتاره ـ دور الزوج الكامل الذى لاتحرك الأهوال فيه ساكنا !** ٠٠ لكم سببت لها هذه المضايقات توترا فى أعصابها ، الى أن فاض معينها فى مساء أحد أيام الجمعة ، فاستقلت العربة هاربة الى بقعة لم ترها فى حياتها من قبل سوى مرة واحدة ، وقد اصطحبت فى ثورتها طفليها الصغيرين ـ اللذين استولت عليهما الدهشة ـ ومربيتهما المتبرمة !

كانت فى قرارها هذا تخضع لدافع ظلت تأتمر بأمره طيلة حياتها ، وهو يغرر بها دائما ٠٠ بتأثير هذا الدافع تزوجت « دونا » من « هارى » ، اذ توهمت فيه زوجا متساهلا مرحا ، وأخذت بضحكته وتعبيرات نظراته المنبعثة من عينيه الزرقاوين ! ٠٠ ولكن ، فيم الندم والحسرة ، وقد انجبت منه طفلين ، كما أنها لن تلبث أن تبلغ الثلاثين بعد شهر واحد ؟!

وما كان « هارى » ليلام على ذلك ٠٠ ماكان لها أن تلقى عليه تبعة سأمها وتبرمها من حياة المجون التى كانت تحياها ، ومن المغامرات الطائشة التى كانت تخوضها ، ومن الأصدقاء العابثين وجو لندن الخانق ، وأحاديث اللهو والغزل التى كان يهمس بها دوق روكنجهام ـ فتى البلاط الملكى المدلل ـ فى

أذنها ! ٠٠ كلا ٠٠ **كان اللوم يقع على عاتقها هى وحدها ، دون سواها ٠ فقد ظلت مدة طويلة تمثل دورا لا تصلح له ! لقد قبلت « دونا » أن تكون كما يريدها العــالم : مخلوقة جميلة ساحرة ٠٠ تسير وتتحدث وتضحك فى استهتار ، وتستقبل المدح والاطراء بهزة من كتفها ، ولا تهتم بشىء ولا تبالى بأحد !! لكن « دونا » أخرى ، أو بالأخــرى طيف « دونا » الحقيقية ، ظل طيلة هذه المدة يرمقها من داخل مرآة قاتمة وهو يشعر بالعار والخجل ، ثم ثارت عليها نفسها ثورة عنيفة مساء يوم الجمعة هذا ، وهى تستعرض ـ أثناء رحلتها فى العربة ـ تلك الحياة الماجنة التى كانت تحياها فى لندن ٠٠ حياة العربدة والاستهتار ، التى لم تلق من « هارى » اكتراثا !** ٠٠ لكم تمنت لو أنه ثار واحتد وعنفها ، ولكنــه كان على النقيض ٠٠ يهز كتفيه ضاحكا ، غير مبال ، وهو يدللها فى سخف ، حتى اعتقدت انه لا يهتم قط بمجونها ٠٠ بل لعله كان فى قرارة نفسه يسر لذلك ، متوهما انه ينال من ورائه شهرة !

* * *

◆ **فتحت** دونا النوافذ فى « نافرون هاوس » لتجديدالهواء، ثم سألت الخادم الذى بدا لها أنه كان يبتسم خلفها من طرف خفى قائلة :

ـ اذن فقد حللت محل رئيس الخدم المتوفى ٠٠ ما اسمك ؟

ـ وليم يا سيدتى

وبدا لها أنها لمحت على وجهه ابتسامة ماكرة أخرى ٠٠ كان صغير الجسم نحيفه ، ذا وجه أشقر غريب ، وفم مزموم يشبه البرعم ٠ وعادت تقول : « لعل مجيئنا المفاجىء قد سبب لك ارتباكا ٠٠ ويبدو أن المنزل ترك مغلقا مدة طويلة دون عناية ، فانى أرى الغبار يعلو كل شىء ! »

ـ لقد لاحظت ذلك ياسيدتى ٠٠ لكنكم لاتحضرون قط الى

(نافرون) ، لذلك لم أر داعيا للقيام بعمل لايرى ولا يقدر !

وأرادت أن تردعه ، فقالت : « أرجو أن تبذل عناية بكنس كل غرف المنزل وتنظيفها ، وتلميع الفضيات ، وتنسيق الزهور فى أوانيها و ٠٠ و ٠٠ »

ــ سيكون هذا من دواعى سرورى يا سيدتى

وراق لدونا الهدوء بعد حياة لندن الصاخبة التى أخذت تستعيد بعض صورها ٠٠ **تذكرت تلك الحفلة التنكرية التى ارتدت فيها ثياب « روكنجهام » المعدة لركوب الخيل ، وسارت معه ، حيث قامت بمغامرة شريرة مع احدى الكونتات فى (هامبتون) ، اذ تصدت لعربتها فى الطريق وقالت منذرة : « مائة جنيه أو شرفك ! »** ٠٠ وكيف ارتبكت الكونتة المسكينة التى تجاوزت الستين ، والتى كانت قد وارت زوجها التراب منذ عشرين عاما ٠٠ فترددت ، ثم مدت يدها المرتعشة الى حافظة نقودها وقدمت اليها المبلغ قائلة : « بربك أبق على ، فاننى امرأة طاعنة فى السن ، منهوكة القوى » ٠٠ **واذ ذاك خجلت دونا من نفسها ، فردت الحافظة وهى تشعر باستحياء وخزى ٠ أما روكنجهام فلم يكن يتمالك نفسه من القهقهة !**

وجلست دونا تتناول العشاء ، ووليم واقف فى خدمتها ٠ وقالت : « علمت من المربية انك أقصيت جميع الخدم أثناء تغيبنا ٠٠ فلم فعلت ذلك ؟ »

ــ لم أر داعيا لوجود سواى فى منزل ليس به أحد ياسيدتى!

ــ لكنك تعلم أن هذه جرأة منك جزاؤها الطرد ، وسأقوم فعلا بطردك غدا

ولم تزد على أن قال : « حسنا يا سيدتى » ٠٠ وكانت تعلم أنها لن تطرده ، فقالت : « هب اننى عدلت عن رأيى ولم أطردك ، فماذا أنت فاعل ؟ » ٠ فأجاب : « أتفانى فى خدمتك ياسيدتى ! لقد درجت بطبيعتى على خدمة من أحبهم باخلاص يا سيدتى ! »

ولم تجد ما تعقب به على هذا القول ، لكنها أيقنت أنه مخلص فى حديثه ، وانه لا يسخر منها كما توهمت ، فلاذت بالصمت٠
أما وليم فقد أخذ يقارن بين وجهها الطبيعى وذاك الوجه الذى تمثل فى لوحة لها معلقة فى غرفة نومها ٠ وتذكر أنه كان ـ منذ أيام ـ يتطلع الى الصورة مع شخص آخر قال له : « ترى هل سنراها يوما ما ، أم ستظل فى عالم المجهول ياوليم؟!»٠وفكر فيما سيقصه على ذلك الشخص من أخبار ، عندما يعودبسفينته بعد يوم أو اثنين !

وعندما خلت دونا الى نفسها فى مخدعهـــا ، رأت تحت صورتها فرعا محملا بزهور السوسن ـ لعل وليم قد وضعه ـ وقد ضوع أريجه فضاء الغرفة ، فارتاحت نفسها ، وحمدت الله على أنها ستقضى ليلة هادئة ، تنعم فيها بالفراش وحدها دون أن يضايقها شريك ! ٠٠ وفيما كانت تجول بعينيها فى الغرفة وقع نظرها على ديوان أشعار فرنسية ، وعلى صحيفة بيضاء من صفحاته توقيع بخط غير جميـــل : « ج ٠ ب ٠ ١٠ فينستير» ٠٠ وتحت هذا التوقيع رسم يبين طائر النورس البحرى! ٠٠ كما عثرت على وعاء لحفظ التبغ الى جانب ديوان الشعر ٠

* * *

◆ **وفى** الصباح التالى ، أرادت دونا أن تتأكد من أن وليم لم يكن صاحب التبغ والكتاب ، فتظاهرت بأنها تبحث عن كتاب بين المجلدات الضخمة التى امتلأت بها أرفف المكتب ، ثم سألت وليم : « أأنت من هواة القراءة ؟ »

ـ لقد اكتشفت بنفسك يا ســـيدتى ، من التراب المتراكم على هذه الكتب ، اننى لا أهواها ! ٠٠ لكننى سأقوم بتنظيفها غدا على أكمل وجه

فغادرته وسارت الى الحديقة حيث انضمت الى طفليها اللذين كانا يلعبان ويمرحان ٠٠ وكم لذ لها أن تستمتع بهذه الحرية :

تستيقظ متى أرادت ، وتتناول الطعام اينما شاءت ! ·· وفيما كانت جالسة بثياب المنزل ـ وقد تشعث شعرها ـ اذا بجرس الباب يدق ، ثمأقبل وليم يقود مخلوقا ضخم الجسم ، مشوش الهيئة ، ذا وجه متورد ، وعينين جاحظتين ، وبروز عجيب حول الأنف ، وقد أمسك بعصا ذات مقبض ذهبي ·· وأعلن وليم أنه اللورد « جودلفن » ، وقد قدم لتحيتها ، فامتعضت دونالهذه الزيارة المفاجئة ـ وهي في حالتها تلك ـ على أنها قادته الى داخل المنزل وهو يقول : « لقد علمت أنكم شرفتم البلدة ، فرأيت من واجبي أن آتي مرحبا بكم ! انني وزوجك صديقان حميمان منذ الصغر ، لكننا ـ منذ زواجه ـ لانكاد نراه هنا ! »

فقالت دونا ـ وقد شعرت انه يلقى اللوم على عاتقها : « يؤسفني أن هاري لم يصحبني في سفري ·· فقد حضرت برفقة الطفلين فقط ! »

ـ ان هذا لمن دواعي أسفي ·· وكم كانتزوجتي تود مرافقتي للترحيب بك ، لولا أنها متوعكة · انها بصراحة ···

ثم توقف عن الكلام وارتبك ، ولم يدر ماذا يقول · فأسعفته دونا بقولها : « انني أدرك ماتعني جيدا ، فان لي أنا أيضا طفلين ! » ، فقال مكملا حديثه : « اننا ننتظر وريثا خلال الفترة الوجيزة المقبلة »

وعجبت دونا كيفتستطيع زوجته احتمال شناعة منظره:فقد كان وجهه أشبه بثمرة اللفت الضخمة ، وقد برزت فيه عينان خاليتان من كل تعبير · أما فمه ، فكان أقرب الى شق في طبق من الشحم ! وقال اللورد : « **لكم كنت أرجو حضور هاري في مثل هذا الوقت العصيب ! فقد تعرضت بلدتنا أخيرا لمهاجمة قرصان فرنسي ، دأب على غزو الشاطىء ليلا ـ بسفينة ـ ونهب النفائس ، ولا يكاد ينبلج الصباح حتى يكون قد لاذ بالفرار · لقد نهب ضيعة جار لي في الأسبوع الماضي ، فلما شكونا الى السلطات في لندن ، أرسلت الينا حفنة من الجنود الذين**

لا يصلحون لشىء ! »

فقالت دونا وهى تحاول اخفاء ضحكها من مظهره : « يبدو أنه أمهر من أن تستطيعوا مناوأته ٠٠ لـكن زوجى كسول لا يستطيع عمل شىء ! »

ـ ان ما نحتاج اليه هو الرؤوس المفكرة ٠ ويبــدو أنك لا تتصورين حرج الموقف ، فمع أنه لم تحدث بعد خسائر فى الأرواح ، ولم تختطف نساؤنا حتى الآن ، ولكن ٠٠ بما أنه فرنسى ، فلن يطول الوقت حتى يقوم بعمل مشين !!

وبعد انصرافه ، تنفست دونا الصعداء ، اذ ليس من الممتع لقاء أمثال « جودلفن » هذا ، وهو يتيه فى خيلائه وغروره ! ٠٠ ما أشد غباء هؤلاء الأعيان وما أضعف عقولهم ، اذ يعجزون ـ رغم مالديهم من قوات عسكرية ـ عن أن يلحقوا بقرصان أجنبى يجتاح شواطئهم ليلا ٠٠ لو أنهم شددوا الحراسة ، وراقبـوا الشواطىء ، لقضوا على أعمال القرصنة !

- ٢ -

◆ نامت دونا فى تلك الليلة نوما عميقا ، لكنها استيقظت بعد منتصف الليل على وقع قدمين فى الحديقــة ٠ فلما أطلت من النافذة ، استطاعت أن ترى ـ رغم الظلام ـ شبحا يتحرك بين الأشجار ، لم يلبث أن أرسل صفيرا خافتا ، فوافاه شبح آخر من المنزل ، تبينت أنه وليم ! وأخذ الاثنان يتحدثان مشيرين الى المنزل ، ثم سارا معا ولم يعودا ٠ ووجف قلب دونا ، وشعرت بخطورة الموقف ٠ فلما أقبل الصباح ، سارت الى حيث كان الشبحان يقفان فى الحديقة ـ فى الليلة الماضية ـ ثم تتبعت آثار أقدامهما ، فوجدتها تفضى الى النهر ٠ ولكى تســتكمل اكتشافها ، أقصت وليم بعد ظهر ذلك اليوم عن البيت ـ رغم محاولته البقاء ـ اذ كلفته بأن يحمل باقة من الورد الى ليـدى « جودلفن » ٠ وما كاد يرحل ، حتى تابعت سيرها متعقبة

آثار الأقدام حتى النهر • وهناك •• فى منحنى متوار بين الأشجار ، رأت فرعا صغيرا للنهر لم تكن قد وقعت عليه عين من قبل ، وقد رست فيه احدى السفن • ثم شاهدت رجلين يعملان بمطرقة فى السفينة التى جلس على سطحها رجل صغير الحجم ، كان يبتسم وهو يعزف بأنامله على آلة موسيقية لحنا فرنسيا • وهالها الأمر حين أيقنت أنه ولا بد ذلك القرصان الذى دوخ البلدة • وبعد أن صممت – فى نفسها – على افشاء سره ، عادت فرأت أن هذا يعنى حضور هارى ، وارتياد البوليس أرضها ، مما قد يحرمها من الراحة والهدوء ، فعزمت على أن تؤجل هذا الأمر مهما تكن التبعات ! وفيما كانت تتأهب للعودة ، اذا بشخص يلقى عليها من بين الأشجار معطفا • ثم انقض عليها وأوثق يديها الى جانبيها حتى لاتستطيع التملص ، فسقطت عند قدميه وهى تكاد تختنق ، وأيقنت أنها هالكة لا محالة !

واجتاحها فى بادىء الأمر غضب جامح ، بينما قادها الرجل الى قارب ، ثم سعى بها الى السفينة التى رأت على جانبها اسم « لامويت » بحروف ذهبية • لكنها دهشت حين رأت أن البحارة ظرفاء ، مؤدبون ، عليهم سيماء النبل •• وان السفينة آية فى النظافة

وسار بها الرجل الى غرفة أنيقة ، جلس فيها سيد السفينة مكبا على الكتابة ، وكأنه طالب جامعى • ولم يصرفه دخولها عن مهمته ، بل انه لم يرفع بصره اليها • وأخذت دونا تتأمله ، فوجدت أنه لم يكن يكتب ، وانما كان يرسم صورة للطائر البحرى المعروف باسم « النورس » •• وكان رسمه متقنا أنيقا • وأخيرا نظر اليها قائلا : « يبدو أنك كنت تتجسسين على سفينتى » •• فأجابت : « بل ان الأمر على النقيض ، اذ يبدو أنكم انتم الذين تتجسسون داخل أرضى وتدوسون حرمتها ! »

فنهض فى الحال واقفا ، وتطلع اليها وكأنه يعرفها ، ثم قدم لها اعتذاره قائلا : « لم أكن أتوقع أن تأتى سيدة هذه الأراضى بنفسها لزيارتى ! » . وقدم اليها مقعـدا ، فجلست ، وقالت غاضبة : « اذن فأنت الذى أمرت بأن أوثق ويؤتى بى الى هنا ؟ »

ـ ان رجالى يعلمون أنه يجب تقييد كل من يرتاد هـذا المكان ، ولو أنه لم يحدث أن أزعجنا أحد من قبل ، فأنت أشجع سكان هذه المدينة ، وكان ماقاسيته نتيجة لشجاعتك هذه ! أرجو أن لايكون قد نالك أذى !

ـ كلا ، ولكن لم يحدث أن عاملنى أحد بهذه الطريقة .. ما الذى تبغى أن تفعله بى ؟

ـ لنر مايجب عمله . ها هو دستور عقوباتنا (وأخذ يقرأ) .. لكنه ينص على أسر الرجال وعقابهم فقط ، فلا ذكر فيـه للسيدات !

وتذكرت اذ ذاك جودلفن ، وقبح هيئته ، وخوفه على نساء قريته من هؤلاء القراصنة .. فلم تتمالك نفسها من الابتسام، فقال الرجل : « ان الابتسام أكثر ملاءمة لك من العبوس .. كما أعلم عنك ! »

ـ وماذا تعلم عنى ؟

ـ أعلم أنك ليدى سانت كولومب .. عزيزة البلاط الملكى المدللة .. السيدة دونا التى يلذ لها أن ترتاد الحانات ، حيث تحتسى الخمر مع أصدقاء زوجها .. انك لعظيمة الشهرة !

فاحمر وجهها خجلا ، وهى تتذكر سيرتها المهينة .. وقالت: « لقد انقضى ذلك العهد ! » ، فقال : « الى حين .. ولن تلبثى أن تحنى الى حياة لندن ، فتغادرين نافرون ! »

ـ كلا .. لقد تركت هذه الأمور الى غير رجعة

ثم سألته قائلة : « لماذا تحترف القرصنة ؟ »

ـ ولم تهوين أنت ركوب الخيل الجامحة ؟

ـ للمتعة ٠٠ والسرعة ٠٠ والمخاطرة !

ـ وهذه عين حوافزى ، فأنا لست عدوا للمجتمع ، ولست أقصد ايذاء أحد ٠٠ كل مافى الأمر اننى أجد فى هذا العمل شيئا من المخاطرة والمتعة ! لعلك كنت تتوقعين أن تجدينى سكيرا ٠٠ عربيدا !

ودعاها الى مائدته ، فأكلت وهى تشعر بأنها فى حلم ٠٠ فقد أدهشها ارتياح نفسها اليه ، وكأنهما على تعارف منذ أمد بعيد ٠ ثم مد يده وأتى بوعاء ملىء بالتبغ ليدخن ، وعندئذ صاحت قائلة: « اذن فأنت الشخص الذى ترك وعاء التبغ وديوان الشعر فى غرفة نومى ! ومن أجلك بقى وليم فى منزلى طيلة العام ، بل من أجلك فصل جميع الخدم ٠ أفكنت طيلة هذا الوقت تنام فى فراشى ؟ »

ـ بل بعض الوقت : عندما كان البرد يشـــتد والرطوبة تقسو ، لكننى استأذنت صورتك أولا ، فأذنت لى !

ـ لو أننى علمت بذلك لحضرت على الفور من لندن ، وطردت وليم ، وأوصدت أبواب المنزل ، ووضعت حرســا حول الضيعة !

ـ لست أصدقك ٠٠ فليس هذا بالمسلك الذى عهدته منك عندما كنت أستلقى على سريرك وأتطلع الى صورتك !

ـ اذن فأى مسلك كنت تتوقع ؟

ـ ان تنضمى الى أهل سفينتى وتوقعى باسمك مع رجـــالى المخلصين !

ثم نهض وأتى بسجل وقلم قدمهما اليها ، فقرأت بعض التوقيعات ٠ وبعد تردد ، وقعت باسمها : « دونا ســانت كولومب » ٠ واذ ذاك همس القرصان فى اذنها قائلا : « والآن ، هل سيطرد وليم ، وتوصد الأبواب وتحاط بالحراس ؟! »

ـ كلا !

ـ اذن ، سأقوم برد زيارتك بعد ظهر غد ، فهل تقدمين لى

قدحا من الشاى ؟

ـ ان الشاى يقدم لجودلفن وأمثاله ، أما القرصان ٠٠ فانه يأتى متخفيا فى المساء ، ويطرق النافذة ٠٠ وخوفا على سمعتها ، تقدم له سيدة المنزل طعام العشاء على ضوء الشموع !

ـ كما تشائين ٠٠ وموعدنا غدا العاشرة مساء

- ٣ -

◆ **اكتشفت** دونا عند وصولهـــا الى البيت أن وليم كان يراقبها من النافذة وهو يتظاهر بترتيب الحجرة ، لكنها لم تشأ أن تدلى اليه بكل ما جرى لفورها ـ اغاظـة له ـ ومن ثم قالت : « لقد قمت بنزهة لطيفة عند النهر ٠٠ ولم آكن أدرى أن ثمة مخبأ متواريا فى منحنى النهر ، يصلح لمن هم عـــلى شاكلتى ٠٠ هاربين !» ٠٠ ثم تظاهرت بتنسـيق الزهـــور وقالت : « قبل أن أنسى يا وليم ٠٠ سأدعو مساء غد سـيدا واحدا لتناول العشاء ، فهل تجيد الطهو ؟ »

ـ لست أجهله تماما يا سيدتى

ـ اذن فاصرف الخدم للنوم فى ساعة مبكرة من الليل ، وقم باعداد طعام لشخصين فقط ٠ ولا داعى لذكر شىء عن هـذه الدعوة لأحد ٠٠ الحق أننى أعتزم القيام بأمر فاضح يا وليم !

ـ هذا مايبدو يا سيدتى !

ـ وقد تجد فى هذا عملا نابيا يهز نفسك ؟!

ـ كلا يا سيدتى ، فليس فيما تفعلين ، أو يفعل سـيدى ، ما يهز نفسى !

ـ آه ٠٠ يالك من رجل صامت غامض مكير ! اذن فقـد حدست ماجرى ! وكيف عرفت ذلك ؟

ـ لقد كشفت لى مشيتك وأنت عائدة عن ذلك ، كما أن عينيك ، ان لم يسؤك قولى ، كانتا تفيضان بحيوية دافقة ٠ وعندما رأيتك آتية من جهة النهر ، علمت أنكما تقابلتما أخيرا !

ـ ماذا تعنى بقولك « أخيرا » ؟

ـ اننى ممن يؤمنون بالقضاء والقدر ياسيدتى . وقد كنت على يقين من أن هذه المقابلة ستتم .. ان عاجلا أو آجلا !

ـ حتى وأنا سيدة هذه الأراضى ، وزوجة محترمة ، وأم لطفلين .. ورغم أن سيدك رجل طريد القانون ، وقرصان ؟!

ـ نعم ، رغم كل هذا يا سيدتى !

ـ اننى أقوم بمغامرة يا وليم ، اذ أن تصرفى هذا ضد مصلحة الوطن ، وقد أسجن بسببه !

ـ نعم يا سيدتى

وانفرج فمه ـ المزموم كالبرعم ـ عن ابتسامة عريضة لم يعد يحاول اخفاءها كعهدها به .. وأيقنت دونا أنه قد تخلى عن التحفظ والغموض ، بل أصبح صديقا لها وحليفا ، تستطيع أن تركن اليه وأن تثق به كل الثقة ، فقالت : « هل تقر احتراف سيدك لأعمال القرصنة ؟ »

ـ لا وجود لكلمتى « يقر » و « لايقر » فى قاموسى ياسيدتى! ان القرصنة توافق مزاج سيدى ، وهذا كل مافى الأمر . فسفينته هى مملكته ، يغدو بها ويروح كما يشاء ، دون أن يأتمر بأمر أحد . فهو سلطان نفسه !

ـ ألا يمكن أن يكون حرا يفعل ما يشاء دون أن يكون قرصانا ؟

ـ ليس هذا من رأى سيدى ، لأنه يعتقد أن أولئك الذين يعيشون فى دنيانا هذه ، خاضعين للنظم والمقاييس الأدبية ، يصبحون مستعبدين للعادات والتقاليد التى تقتل فيهم كل نبوغ وابتكار .. بل أنهم يصبحون أشبه بتروس فى عجلة هذا النظام القياسى . أما القرصان ، فان خروجه على القانون ونبذ المجتمع له ، يجعلانه متحررا من نظم هذا العالم ، غير مقيد بقيود البشر !

ـ ألا يشغل باله أن القرصنة فى حد ذاتها عمل خاطىء ؟

ـ انه يسلب من لا يتأثرون بالسلب ، ويجـــود بمعظم ما يأخذ . ولهذا فان فقراء مقاطعة (بريتانى) بفرنســـــا ، يفيدون منه كثيرا

ـ ماأظنه متزوجا ؟

ـ كلا يا سيدتى .. ان الزواج والقرصنة لا يتفقان !

ـ وان وجد زوجة تهوى ركوب البحر ؟

ـ ان النساء ينجبن أطفالا ، مما يضطرهن الى الاستقرار . ولهذا فعلى الرجل أن يختار بين أمرين : أما أن يقبع فى عقـر الدار ويرضى بالسآمة والملل ، واما أن يرحل حرا طليقـا ويصبر على الشقاء والحرمان .. وهو فى الحـــالين خاسر يا سيدتى ! هذه هى فلسفة سيدى !

ـ ليتنى كنت رجلا ، لتكون لى سفينة ، ولأسن لنفسى قانونا خاصا !

وفجأة سمعت دونا صراخ طفليها وصوت المربية تنهرهما ، فنهضت قائلة : « ان سيدك لعلى حق يا وليم ، فجميعنا أشبه بتروس فى عجلة نظام الطبيعة .. لا سيما الأمهات منا ! »

* * *

◆ **وكانت** دونا فى اليوم التالى قلقة ، حائرة ، فأخذت تشغل نفسها باقتطاف الزهور وتنسيقها . كما طلبت الى وليم أن يعد الخمر المعتقة وطاقم المائدة الفاخر ، وان يشعل جميع الشموع فى قاعة المائدة . وأدهشها أن ترى نفسها تبدى عناية فائقة بزينتها فى ذلك المساء ! .. وما أن وافت الساعة العاشرة ، حتى رأت ضيفها مقبلا ـ وكان وسيم الطلعة متأنقا فى ملبسه ـ فصافحها مقبلا يدها . واذ قادته الى غرفة المائدة ، أخذ يتأمل جمال الغـرفة وتنسيق الآنية والأدوات الفاخرة ، وألوان الطعام الشهية ، ثم قال : « هل من الحكمة

أن تعرضى كل هذه النفائس المغرية أمام قرصان ؟ »
ـ ان اللوم فى هذا يقع على عاتق وليم وحده
ـ لسوف أدعوك يوما لتتذوقى دجاجة من اعدادى ٠٠ لا داخل السفينة ، بل هناك على شاطىء النهر ، حيث أشعل نارا فى الهواء الطلق ٠٠ وعليك أن تأكلى اذ ذاك بأصابعك ، على وهج النيران ، وليس على ضوء الشموع !
ثم صمت لحظة وقال : « ماالذى أتى بك الى نافرون ؟ »
ـ لعلنى مللت حياة لندن فأردت أن أصبح شخصية أخرى !
ـ أو بمعنى آخر : لعلك تقت الى الفرار !
ـ نعم ، فهذه كلمات وليم ٠٠ وهى من فلسفتك

ـ ان وليم يتحدث عن خبرة ٠ فقد رآنى أمثل نفس دورك هذا : كان فى مقاطعة (بريتانى) رجل يدعى « جان بنوا أوبيرى » ، أوتى ضياعا شاسعة ومالا وفيرا وأصدقاء كثيرين ٠ كان يرزح بحكم مركزه تحت أعباء مسئوليات جسيمة ٠٠ وكان وليم خادما له ! ٠٠ ثم سئم سيد وليم حياة « جان بنوا أوبيرى » هذه ، فأنشأ لنفسه السفينة « لامويت » وأصبح قرصانا !

ـ وهل أنت سعيد بذلك ؟
ـ اننى راض بحياتى وقانع ٠٠ ان الرضى هو الحالة التى يكون فيها العقل والجسم على وفاق ، يعملان جنبا الى جنب ، فينعمان بالسلام والهدوء ٠ أما السعادة فانها حالة مراوغة خداعة ، قد تصادف الانسان مرة واحدة فى حياته ، فتصل به الى أوج السرور ٠ لكنها متقلبة ولا تدوم ٠٠ وهى على درجات متفاوتة ٠ اننى أشعر بها كلما عدت موفقا من احدى الغزوات ، كما أشعر بها كلما أتممت رسما ورأيت أنه وفق ما ابتغيت ٠٠ وهذا لون آخر من السعادة !
ـ يبدو أن السعادة أسهل منالا للرجل منها للمرأة ، لأنه بطبيعته مبتكر ، ومن ثم يجدها فيما ينجز من أعمال ، يدوية

كانت أم عقلية أم فنية !

ـ بل ان للنساء مجالا يفوق ما للرجال فى هذا المضمار ٠٠ فانجاب الأطفال عمل يفوق مايؤديه الرجل من رسم الخطط وتنفيذ البرامج ٠٠ ألم تشعرى بذلك عندما أنجبت طفليك ؟

ـ ربما !

* * *

◈ **وأمسك** بصورة لزوجها هارى ـ كانت على رف المدفأة ـ فتأملها ثم ردها الى مكانها دون أن يبدى ملاحظة ما ٠ فارتبكت دونا وامتعضت ، لأنها شعرت من نظرته بأنه لا يقيم لزوجها وزنا ٠٠ وتمنت لو ان الصورة لم تكن هناك ، أو لو ان هارى كان على غير حاله ٠ ووجدت نفسها تدافع عنه قائلة : « لقد التقطت له هذه الصورة منذ زمن بعيد ٠٠ قبيل زواجنـــــا »

ـ كم مضى على زواجكما ؟ وما الذى حبب اليك الزواج منه ؟

فارتبكت أمام هذا السؤال المفاجىء وقالت : « تزوجنا منذ ست سنوات ٠٠ وتزوجته لأنه بدا لى مسليا ، مرحا ، كما أعجبت بجمال عينيه »

لكنها شعرت بسخافة نظريتها ، وبدا لها أن صوتهـــا كان ينبعث من شخص آخر ٠ **وأخذت تحدق أمامها شـــاردة الذهن ، وهى تستعرض حفلة زواجها الرائعة من هارى ، وكيف كان اذ ذاك شابا حديث السن ، أراد أن يبدو شجاعا ، فأسرف فى احتساء الخمر ، مما جعله يبدو فى أعين المدعوين غبيا أحمق ! ٠٠ ثم تذكرت ماتلا ذلك من تصرفاته الصبيانية الطائشة التى كانت تضايقهـــا وتثير أعصابها** ! ٠٠ وكان ضيفها أثناء ذلك منهمكا فى رسم صورة لها على ورقة فى يده ، دون أن يحفل باستئذانها

وعندما قدم لها الصورة التى رسمها قالت غاضـــبة : « ان حول الفم حركة تنم عن التبرم وحدة الطبع ٠٠ وبين الحاجبين

عبوس ، كما اننى أبدو فى الرسم أكبر مما أنا ! انها لاتعجبنى! يبدو أن المرأة لا تحب أن تبدو على حقيقتها ! » • ثم أردفت — حين تأهب للانصراف : « اغفر لى ثورتى ، اذ يبدو اننى مشاكسة • والواقع اننى خجلت اذ رأيت شخصا سواى يرانى كما أرى نفسى أحيانا •• لكأنك استطعت برسمك أن تجردنى من ثيابى وترسمنى عارية •• بعيوبى ! »

— ولكن •• اذا كان الرسام يحمل نفس العيب ، بل اذا كان عيبه أشد تشويها ، فهل يخجل صاحب الرسم من رسامه ؟!

— أتعنى أن التشابه بيننا يزيل الكلفة ، ويقوى رابطتنا ؟

فقال وهو يمزق الصورة : « هذا ماأعنيه بالضبط ! » ••

وسار نحو النافذة وهو يبتسم قائلا : « **كلما هبت هذه الرياح الشرقية ، تعطلت سفينتى بسببها أياما ، فلا يعود لى من عمل سوى الرسم • فلعلك تسمحين لى برسمك فى فرصة أخرى ! •• ولا تنسى أنك وقعت باسمك فى سجلى ، فكلما حنت نفسك الى الفرار ، وجدت عند منحنى النهر ملجأ •• هناك تتاح لنا مراقبة الطيور ، وصيد الأسماك ، واكتشاف الينابيع ••وكلها وسائل للفرار !** »

ثم قفز من النافذة وانصرف

— ٤ —

◆ **كانت** دونا طيلة الفترة التى قضتها فى زيارة آل جودلفن فى أقصى حالات الضيق والبرم •• كان الجو كئيبا ، والحضور لا يكفون عن تأملها فى اعجاب ، ولا يجدون مادة للحديث سوى اغراقها بأسئلة فضولية ساذجة عن لندن ، والبلاط الملكى ، وحياة الملك وشئونه الخاصة ومغامراته ! •• وراح اللورد جودلفن وجيرانه — الذين اجتمعوا لتحيتها — يعربون عن خوفهم من أن يغير القرصان على أملاكها ، ويبدون

ارتيابهم فى أن بين خدمها وفلاحى أراضـــيها من قد يقبلون مساعدته اذا هو أغراهم بالرشوة ، واقترح جودلفن أن يوفد بعض رجاله لحراسة ضيعتها ، ولكنها راغت من هـذا الاقتراح فى لباقة • وأخذ الحضور ــ من كبار الملاك ــ يؤكدون أنهم سيتولون بأنفسهم مطاردة القرصان ، ولن يطول الوقت حتى يشنقوه على أعلى شجرة فى المنطقة !

وكانت دونا تصغى ساخرة مستهزئة ، حتى اذا انصرفت ، أخذت تسرد على وليم ــ الذى كان يقود العربة ــ ماسمعته أثناء الزيارة ، معربة عن قلقها على سيده نظرا لخطورة الموقف •• **وكان وليم قد دبر لها مقابلة القرصــــان فى تلك الليلة ، فاستبدلت بثيابها الفاخرة ثيابا أخرى عتيقة خلف شجرة فى الطريق ! •• وما أن اقتربا من النهر ، حتى أطلق وليم صفيرا خافتا مقلدا صوت طائر « النورس » ، فسمعت فى الحال اجابة مماثلة من جهة النهر ••**

وكان الفرنسى فى انتظارهمـــا فى قارب مجهز بأدوات الصيد • وما أن رأى دونا حافية القـدمين وقد أمسكت بذيل ثوبها ، حتى ابتسم ، فداخلها شعور بسعادة غامرة • وقضيا وقتا ممتعا فى عرض النهر ، ألقى فيه القرصان على دونا درسا عمليا فى الصيد ، وقام برسم صورة جديدة لها ، علقها بعد ذلك فى قمرته •• وأيقنت دونا أن هذه هى السكينة الوادعة التى كانت تنشدها طيلة حياتها •• فلقد أحست بطمأنينتها الكاملة وسعادتها الحقيقية ، فى وجودها بجوار هذا القرصان !

واذ جثا بجوارها ليساعدها على سحب ســـمكة علقت بالشص ، أحست بكتفه تلاصق كتفها ، وبيده تلامس يدها ، فهالها أن تشعر برغبة متقدة فى أن تقترب منه حتى تلامس شفتاه فمها ، وتحيط ذراعه بخصرها • **وصعقت خجـلا من نفسها أمام ذلك اللهب الذى اشتعل لأول مرة فى جوفها ، فأسرعت تشيح بوجهها خوفا من أن يقرأ مشاعرها فى عينيهـا**



فيحتقرها ، كما كان يفعل هارى وروكنجهام مع نساء حانات لندن ٠
لكنهــا فطنت الى أنه توقف عن التجذيف لحظة مرهفا سمعه ، فأدارت رأسها نحوه ، واذا بها تسمع شقشقة غريبة ، ناعمة ، خافتة ، كان لوقعهــا المتكرر سحره ٠ وقال لها : « هكذا تفعل الطيــور حين تتآلف فى دجى الليل ! » ٠٠ ورمقها لحظة ثم أدار وجهه ، فعلمت فى هذه اللحظة أنه قد أدرك أحاسيسها ، لأنه كان يبادلها اياها !

* * *

◆ **وخرجا** من صيدهما بسمكة كبيرة ، فأشعلت دونا النار ـ بعد أن رسا القارب فى مكان مهجور ـ بينما قام القرصان بتنظيف السمكة وشيها ، ثم اقتسماها ٠

وبعد فترة من الصمت قال : « عندما كنت آوى الى الفراش فى مخدعك شتاء ، وأنظر الى صورتك ، كنت أتخيلك واقفة على ظهر « لامويت » تراقبين الطيور والبحر ، أو تمارسين الصيد كما فعلنا الآن ٠ وكانت هذه الصــور تتضارب فى مخيلتى مع تلك التى يشيعها عنك الخدم ! »

ـ لم يكن من الحكمة قط أن تتخيل صورا لشخص غائب !٠٠ ومع ذلك فقد كان فى وسعك أن تحول وجه الصورة نحــو الحائط ، أو أن تستبدل بها أخرى تمثل دونا الحقيقية وهى فى زى الرجال ، وقد حجبت وجهها وراء قناع ، وامتطت جوادا وانطلقت فى منتصف الليل لتملأ قلوب النساء العجائز رعبا !

ــ ما أشبهك بى ! ٠٠ انك مثلى : تتمردين فى قرارة نفسك على القانون ، وما أشبه مغامراتك هذه بالقرصنة !

ــ نعم ٠٠ لكنك اذا مافزت بغنيمتك ، شعرت بلذة النصر ٠ أما أنا فلم أكن أشعر بعد مغامراتى الا بالمرارة والهوان !

ــ ممـــا يؤســـف له أنك لم تخلقى ولدا ، والا ٠٠ لكنت اصطحبتك معى فى مغامراتى !

ــ أفلا بد أن أكون ولدا لكى أصحبك ؟

واذ ألحت عليه فى أن يصطحبها ، قال انه يخشى أن يغلبهـــا الضعف فتفسد خططه ٠ ولكنها راهنته : ان صح حدســـه أعطته قرطين مرصعين بالياقوت كانت تلبسهما ، وكان معجبا بهما ٠٠ أما اذا أثبتت جدارة بالاشتراك فى مغامراته ، فقد وعد بأن يأتيها بطاقية الشعر المستعار التى كان جودلفن يضـــعها فوق رأسه الأصلع !

* * *

◆ **وتمارضت** دونا لكى تلزم مخدعها فلا ترى أحدا ٠٠ حتى طفليها ، واختارت وليم وحده ليقوم على خدمتها ٠ وراحت فى عزلتها تتمثل هارى وحياة المجون والخلاعة التى كان يحياها فى لندن ، فتشمئز وتشعر بأنها لم تعد تطيق ذاك اللون من الحياة ٠٠ **لقد ماتت دونا الأولى وحلت محلهـــا دونا أخرى تعيش ، لا على هامش الحيـــاة وقشــــورها ، بل فى صميم أعماقها !**

وذات ليلة ، أيقظ وليم سيدته فى الساعة الرابعة صباحا ، لأن سيده القرصان أرسل يستدعيها ٠ فتسللت من القصر وقد ارتدت ثوبا عتيقا والتفت بشال ، وحملت لفافة ثيابها تحت ابطها ٠ واذ قصت على وليم فى الطريق قصة الرهان ، قال فى لهجة ذات مغزى : « من يدرى يا سيدتى ؟ ٠٠ ان الرحلة التى يكون أحد طرفيها رجلا كســـيدى ، والطرف الآخر امرأة

كسيدتى ، تبدو مشحونة بالاحتمالات ! »

ـ يالك من وقح يا وليم ! بل ان أفكارك فرنسية محض !

ثم ودعته بعد أن أوصته بطفليها خيرا ، وسعت الى سفينة القرصان الفرنسى . وعندما وقفت دونا بجوار القرصان وهو يدير دفة السفينة ، استطاعت أن تدرك أنه يحبهـا ، فطغت عليها نشوة الانتصار والسعادة .. **فقد أيقنت أنه أصبح ملكا لها ، وأنها قد أحبته ـ هى الأخرى ـ بكل جارحة فى نفسهـا .. لقد كان كل منهما ضالا ، شريدا ، فجمعت بينهما المقادير فى بوتقة واحدة !**

وسألته حين جلسا الى الطعام على ظهر السفينة ، عمـا سمعته من خوف الانجليزيات فى (كورنوول) من رجاله ، فقال : « **ان الآية معكوسة .. فنساؤكم لا يتركن رجالى فى راحة .. حتى وليم لم ينج من مغازلتهن كما بلغنى ! » .. وعقبت دونا قائلة : « لعل السبب فى ذلك هو أن قروياتنا يجدن رجالهن الانجليز أغبياء ثقيلى الدم ، لا خبرة لهم بمعـاشرة النساء ! »**

وغمرت الغبطة قلب دونا وهى تشعر بأنها تعيش طليقة فى جو يوحى بالمغامرة ، فى حين كان طفلاها ومربيتهما يعتقدون أنها سجينة فراشها ، محمومة ! .. وازدادت غبطتها عندما أخذ القرصان يدربها عمليا على قيادة السفينة . وقضت ساعة وهى منفردة بالقيادة ، وقد غشيتها سعادة كتلك التى تستولى على ابنها « جيمس » حين يحظى بلعبة جديدة ! .. وما لبث القرصان أن فاجأها بخبر ضاعف من نشوتها .. فقد اعتزم الاستيلاء على سفينة يملكها « فيليب راشليه » ـ صهر اللورد جودلفن ـ وصلت لتوها من جزر الهند ، محملة بالنفائس !

* * *

◆ **وقفت** دونا على ظهر « لامويت » تفكر فى تلك المخاطرة

الجنونية التى زجت بنفسها فيها ، وهى : دونا سانت كولومب، زوجة البارون هارى الشهير ، صاحب المزارع والضـيـاع • وأزعجها أن تقدم على هذا الطيش لمجرد نزوة جنونية طارئة ، ألقت بها الى صحبة قرصان لم تكن تدرى عنه شيئا ، ولكنها ــ مع ذلك ــ أحبته حبا جارفا لم تدرك له سببا ولا تعليلا ! ••
ولقد تفشل المغامرة ، فيقع القرصـــان ورجاله ــ وهى فى زمرتهم ــ فى الأسر ، ويقدمون للمحاكمة ، ولا تلبث أن تعرف شخصيتها ، فيستدعى هارى الذى قد تدفعه الفضـيحه الى القضاء على حياته ، فيتيتم طفلاهما البريئان ، ويقترن اسماهما بالعار بسببها ! •• وأخذت تتصور فراشـــها الوثـــير فى (نافرون) ، وحديقتها الهادئة ، وحياتها الآمنة مع طفليها ••
وفيما هى مستغرقة فى تفكيرها ، رفعت بصرها فاذا بالفرنسى واقف بجوارها • وساءلت نفسها : ترى ماذا قرأ فى عينيها ؟••
وناداها ، فسارت خلفه طائعة ــ كمـــا يفعل التلميذ الذى ارتكب مايجعله يتوقع لوم أستاذه ــ فما أن هبطا الى قمرته ، حتى بادرها قائلا : « لعلك تذكرت أنك دونا سانت كولومب ، فتمنيت لو أن عينيك لم تقعا قط على لامويت ! » •• وكان صادقا فى الجزء الأول ، ولكنه كان متجنيا فى الجزء الثـانى •
ولم تجبه ، ولكنها راحت تسائل نفسها : **هل للمرأة العاشقة أن تصارح حبيبها بمشاعرها نحوه ، أو من الخير أن تحرص على التحفظ ، فلا تبوح بمكنونات نفسها ؟** •• على أنها أرادت أن تثبت له أنه كان متجنيا ، فأصرت على أن تهبط الى البر مع من اصطفى من رجاله ، لتنفيذ خطة الاستيلاء على ســفينة « راشليه » ــ وكانت تدعى « مرى فورشن » ــ فارتدت « بنطلون » أحد الملاحين وقميصه وحذاءيه الكبيرين ، وعقصت شعرها من الخلف بمنديل أعارها اياه القرصان الفرنسى ••

وأخذ الجميع يتسلقون التلال الصخرية ، والفرنسى ممسك بيدها ، يساعدها على الصعود • لكنها لم تلبث أن أحست

بأن الحذاءين الكبيرين قد آذيا قدميها واحدثا بهما تسلخات ٠ واذ تغير اتجاه الرياح فجأة فى غير صالحهم ، واكفهرت السماء منذرة بالمطر ، نصح الفرنسى دونا بالعودة الى السـفينة ، اشفاقا عليها ٠ لكنها أبت ٠ فنظر اليها فى عطف وحنان وقال : « لم تريدين البقاء ؟ » ، ففكرت فى نفسها : « الى متى سنظل نخفى مافى نفسينا ، وقد يداهمنا الموت اليـوم أو غدا ؟ » ٠ ثم قالت : « ماذا يهم الموت أو الهلاك ؟ انك تعلم لماذا أريد أن أبقى معك ! » ٠٠ **وسادهما الصمت لحظة ٠٠ وكان صمتا أبلغ وقعا من الكلام ! وشعر كل منهما فى تلك اللحظة بأن ذلك الحاجز الذى كان يقف حائلا بينهمـا قد تلاشى ٠ وابتسم الفرنسى ، وأمسك بيدها مقبلا راحتها وقال: « اذن فامكثى معى كى نحارب جنبا الى جنب ، ولنشنق معا ـ أنت وأنا ـ على شجرة واحدة ! »**

ثم سألها أن تقوم بدور ينطوى على مخاطرة ، فتسعى الى منزل « فيليب راشليه » ـ وكان يعلم أن جودلفن يقضى تلك الليلة ضيفا على صهره ـ وتقنعه بالذهاب الى سفينته على جناح السرعة لأمر هام ! ٠٠ وقبل أن تنطلق فى مهمتها ، رأت الرجال يخلعون أحذيتهم فيربطونها حول أعناقهم ثم يسبحون نحـو السفينة « مرى فورشن » ، التى كانت قد رست عند بقعة من الشاطىء ، خلف المرتفعات

وسـارت دونا فى الظلام ، يتبعهـا ملاح يدعى « بيير بلان » كان القرصان يثق به ! ٠٠ على انهـا لم تلبث أن أمرت « بيير » بأن ينتظرها عند قارب تركه القرصان فى بقعـة متوارية ، وأمرته بأن يعود الى السفينة اذا هى لم ترجع اليه بعد نصف ساعة ٠ ثم انطلقت فى طريقها ٠٠ ولم تشعر دونا فى حياتها بالوحدة والرعب ، مثلما شعرت اذ ذاك ٠ حتى اذا بلغت دار « راشليه » ، تناهى اليها صوته وهو يتحدث الى جودلفن الذى لم يلبث أن خف بنفسه ليفتح الباب حين

طرقته ، وهو ثائر لازعاجه فى تلك الساعة المتأخرة من الليل ٠ **واذ أنهت رسالتها ، حاول جودلفن أن يستبقيهـا ، كما ارتاب « راشليه » فى أن هذا الرسول من « غلمان » سفينته ٠٠ ولمح جودلفن فى مظهرها ما أثار انتباهه ، فأمسك بها محاولا ابقاءها ، ولكنها أفلتت منه واخذت تعدو - والمطر ينهمر - حتى أشرفت على مرسى السفينة « مرى فورشن » ، فجثمت فى الظلام تنتظر** ٠ وما لبثت أن رأت جودلفن وراشليه وهما يرتديان معطفين سميكين ، ويقبلان مسرعين ، حتى اذا لمحا السفينة « مرى فورشن » تتحرك ، أخذا يجـريان نحـــو الشاطىء ، وهما يصرخان مهددين قائد السفينة الذى دفعه الجنون الى الاقلاع بها فى مثل ذاك الجو المنذر بالعاصفة ،وفى الوقت الذى كان فيه جميع بحارتها تقريبا يقضون ليلتهم فى المدينة ! واذ اشتد الصراخ ، فتحت نوافذ المنازل والأكواخ القريبة ، وأخذ الناس يعدون نحو الشاطىء ٠ وفجأة تبين جودلفن وجه دونا عن بعد ، فصرخ قائلا : « امسكوا هـذا الغلام ! » ، **فأطلقت دونا ساقيها للريح ، وأخذت تعدو على غير هدى ، حتى تعثرت قدمهـــا فسقطت فى حفرة ، وجرحت ذقنها وقدماها ، وتهدل شعرها ٠ ولكنها استطاعت أن تتوارى عن الأبصار خلف شجرة ، بينما استقل جودلفن وراشليه قاربا الى السفينة التى كانت تتهادى فوق صفحة الماء**

وفجأة ، سمعت دونا صوتا يقلد تغريد طائر « النورس » ، وتذكرت أن « بيير بلان » كان ينتظرها فى القـارب ، فأسرعت اليه وارتمت داخل القارب والدماء تسيل من ذقنها ٠٠ وأسرع بها « بيير » الى السفينة حيث كان الفرنسى فى انتظارها أمام عجلة القيادة ، وفى ذقنه جرح مماثل ، وقد تشعث شعره ، وتقاطرت مياه المطر من ثيابه ٠٠ والتقت عيونهمـا ، فتبادلا النظرات والابتسامات ! ٠٠ ودارت معركة بالبنـــادق بين السفينة وقارب راشليه وجودلفن ٠٠ وفجأة صاح الأخير :

« ان على ظهر السفينة امرأة » .. وما لبث الفرنسى أن أمسك بسيفه ، ثم مال نحو قارب جودلفن وراشليه قائلا : « نتمنى لكما عودة سالمة .. لكننا نود أن نحتفظ بتذكار منكما ! » . ثم مد سيفه فأطاح بقبعة جودلفن ، والتقط بحد السيف طاقية شعره المستعار ، فبدت صلعته تلمع . وفى تلك اللحظة اشتد سقوط المطر ، وطوحت الرياح بدونا على أرض السفينة فسقطت لاتعى شيئا

- ٥ -

◆ **أخذت** سفينة القرصان والسفينة المسروقة تتهاديان على صفحة الماء ، وقد صفت السماء واعتدل الجو . واستيقظت دونا بعد أن طال نعاسها يوما وليلة ، فتنبهت الى أنها كانت عارية الا من بطانية تستر جسمها . ولم تر أثرا لثيابها . وبدا لها أنه قد مرت أجيال منذ آخر مرة كانت تحتفظ فيها بوعيها . **واذ رفعت عينيها ، رأت طاقية شعر جودلفن معلقة على الحائط . وما هى الا لحظات حتى طرق الفرنسى باب القمرة ودخل يحمل طعاما ، فقالت له : « لقد خسرت الرهان ! » .. فرمقها بابتسامة وقال : « أعلم ذلك ، لكنك أبليت بلاء حسنا فى القيام بواجبك كصبى السفينة ! »**

وبعد أن شاركها الطعام ، فتح صندوقا مما كانت تحمله السفينة من كنوز ، وأخرج لها منه شالا حريريا محلى برسوم بديعة ، فتدثرت به . ثم سألته عما يعتزم عمله ، فقال : « سيقود البحارة « مرى فورشن » الى الشاطىء الفرنسى . أما نحن فسنبقى على ظهر « لامويت » حيث لا تزال أمامنا فرص للصيد والرسم والانصات الى غزل الطيور ! »

* * *

◆ **وقفت** دونا تدير عجلة قيادة « لامويت » ، وهى منتشية

بكل ما كان يحيط بها . ثم أرخت عينيها ، وصمت القرصان وقد استلقى على ظهر السفينة ، وغليونه فى فمه ، وأخذ يبتسم لنفسه بين آونة وأخرى فى سعادة ورضى ، اذ تذكرت احتكاكها بظهره ، أو هو يلامس جسمها أثناء الليل السالف ، ورثى فى نفسه لأولئك المحبين من رجال ونساء الذين يتملكهم الخجل والتحفظ والجمود يا لحرمان ، ظنا منهم أن الحب أو العاطفة ظاهرة ، والليونة أو الاستجابة ظاهرة أخرى .. **متناسين أن الحب — كما خبرته هى — عاطفة لا عار فيها ولا خجل ، فهو امتلاك شخصين أحدهما للآخر دون تحفظ أو ترقع .. انه اندماج شخصين : جسما وعقلا ، بل شعورا وادراكا !**

وعندما أرخى الليل سدوله ، أقلهما قارب الى ضفة النهر ، حيث أشعلا نارا أعدا عليها طعامهما وتناولاه . ثم جلس القرصان الفرنسى يدخن غليونه ، بينما استندت دونا الى ركبته وقد عقدت يديها خلف رأسها .. كان ذلك الصمت الذى سادهما أبلغ تعبير عما تشعر به نفس كل منهما من السعادة والرضى ، الى أن أثار انتباههما منظر أوزة تتهادى مع أليفها فوق صفحة الماء ، وخلفهما ثلاثة أفراخ صغيرة ترفرف بأجنحتها ، فقالت دونا وقد استهواها هذا الجو الشاعرى :

« لو شئنا لعشنا هكذا الى الأبد ! »

— لو شئنا ! .. لكن دونا سانت كولومب ليست دونا السفينة ، ان لها حياة أخرى . ان ماتراه الآن ليس سوى أضغاث أحلام ، لا يكاد يطلع الفجر حتى تتبدد .. وتستيقظ النائمة ! أنسيت أن النساء يفقن الرجال خضوعا للغريزة ، وأنهن وان لعبن بالمخاطر الى حين ، فلا يلبثن — بحكم الغريزة — أن يأوين الى أعشاشهن ، حيث ينجبن الأطفال ؟ !

* *

— لكن « الأطفال » لا تلبث أن تكبر .. ثم تطير ، فتتحرر

الأمهات مرة أخرى !

فضحك وقال : « أليس لديك جواب على هذا ؟ أوليس هذا يعني أن أغيب بسفينتي ، فلا أعود قبل عشرين عاما ؟ فإذا ذاك لن أجد سوى امرأة وادعة ، أخلدت إلى السكون ، وتلاشت أحلامها . وكذلك أكون أنا إذ ذاك ، كهلا ذا لحية ، مفكك الأوصال ، وقد بدد الزمن ولعه بالقرصنة ! »

— هب أنني رحلت معك إلى غير رجعة يا نافرون ؟

يعاودك الندم بعد ذلك ؟

— لن يراودني الندم قط ، وأنا معك !

— إذا لم يكن هناك ندم ، فقد يكون ثمة حنين إلى تكوين عش ، وانجاب أطفال ، فأضطر إذ ذاك إلى الرحيل بمفردي وهكذا ... لا مفر من الحقائق يا دونا !

— إنك لعلى صواب .. لكنني سأرحل معك ، وأصير صبي سفينتك الخاضع لأوامرك : أشعل لك النار ، وأقوم بخدمتك لنقضي هذه الليلة ، وهي أطول ليالي الصيف ، في العراء ، وتغادرني إلى نافرون قبل أن ينبلج الصباح أو تستيقظ ، فإذا سارت الأمور على ما يرام ، فسأعود إليك لنستأنف رحلتنا معا

* * *

وتسللت دونا إلى نافرون ، والظلام ساج عميق ، فما أن فتح لها وليم الباب ، حتى رأت علائم الاضطراب على وجهه ، فصرخت : « جيمس ... ابني ! أمريض هو أم أنه مات ؟ » . لكن نظرة خاطفة إلى ما حولها أسعفتها بالجواب ، إذ رأت معطفي هنري وصديقه روكنجهام اللذين كانا قد وصلا قبل الغروب . وكان وليم قد أقنعهما بعد لأي بإرجاء رؤيتها إلى الصباح ، زاعما أنها في حاجة إلى الراحة بعد ما عانته من الحمى ! وما لبثت أن سمعت نباح الكلاب ، فأيقنت بأن الهدوء والراحة قد وليا الأدبار

وعلمت دونا أن هارى جاء الى (نافرون) بعد أن برم بالحياة بعيدا عنها ، ولما نمى اليه من أنبـــاء الأحداث فى المنطقة ٠٠ ولكنها كانت واثقة من ان زوجها أكسل من ان يتجشم أعباء السفر دون اغراء روكنجهام ٠٠ وعز عليها أن تحرم ــ هكذا سريعا ــ من تلك السعادة التى تذوقتها عند منحنى النهر !

وعندما طلع النهار ، وفد هارى على مخدع دونا وكلابه فى أثره ، ثم الطفلان بضجيجهما وصخبهما ٠ وعجب هارى من دلائل الصحة التى كانت تبدو على دونا رغم مرضها ، وانحنى عليها يقبلها ، فكتمت أنفاسها تلك الرائحة القوية التى كان يتعطر بها ! ثم أخذ يقص عليها ما ابتاع من جياد ، وما ضارب به فى حلبات الرهان ٠٠ وانبأها بأنه دعا اللورد جودلفن وراشليه وبعض الأعيان الى العشاء ــ بايعاز من روكنجهام ــ للتباحث فى أمر القرصان الفرنسى الذى سيتولى روكنجهام مطاردته ٠ **وانزعجت دونا اذ علمت من وليم أن « لامويت » أصيبت بعطل لن يمكنها من الرحيل قبل أربع وعشرين ساعة، فجلست شاردة الذهن ، تفكر فى حبيبها وحرج موقفه ، فى الوقت الذى كان محتوما عليها أن تجلس فيه مع اعدائه مرحبة بهم !**

وأقلقها أن روكنجهام أخذ يتفرس فى وجهها ، وقد رابه ما طرأ عليها من تغير خلال الفترة القصيرة التى أقامتهـــا فى (نافرون) ٠٠ اذ غدت رزينة ، صامتة ! ولم يفته ماكان هناك من ألفة بينها وبين الخادم وليم ٠ ومن أسئلته التهكمية ، واصراره على مطاردة القرصان الفرنسى فى نفس الليلة ، أيقنت بأنه قد علم كل شىء ، وانه قد تقصى جميع الأخبار ــ كما هى عادته ــ من الخدم ٠ ومن ثم تسللت لائذة بمخدعها، وأرسلت تستـدعى وليم ٠٠ وكم أكربهـا أن تعلم أنه غادر المنزل منذ الأصيل ولم يعد !

* * *

وإذ أمضها القلق والانزعاج ، عجزت عن البقاء ،فتسللت خفية ويممت صوب منحنى النهر ، لكنها ما كادت تتوغل فى الغابة حتى فطنت الى أن رجال جودلفن كانوا منبثين خلالها ، وقد تسلحوا بالبنادق . وأدركت اذ ذاك سر تأخر وليم بعيدا عن الدار ، فارتدت راجعة ، واذا بها تلمح روكنجهام واقفا فى الشرفة .. لكنها استطاعت أن تتسلل خفية بين الأشجار وأن تدخل المنزل دون أن يراها أحد !

وما كادت دونا تستلقى على فراشها منهوكة القوى ، حتى أقبل هارى يرغى ويزبد لاختفاء وليم الذى كان يحتفظ بمفتاح مخزن الخمور ، بينما أوشك الضيوف على الحضور .. وأخذ يؤكد أن روكنجهام كان مصيبا فى ارتيابه فى ذلك الخادم .. وما لبث أن قال فى رجاء ، وكأنه نسى سخطه : « **دونا .. ألا اسمحى لى بأن أوافيك الليلة فى مخدعك ، بعد انصراف الزائرين !** »

– ظننت أنك ستقوم بالقبض على القرصان الفرنسى !

– سأتولى أمر المراقبة فقط .. ثم ان الليل لن ينتصف حتى نكون قد انتهينا من أمره

– لنترك هذا الموضوع الى حينه ، فأنت تعلم جيدا انك بعد منتصف الليل لاتدرك فرقا بين النوم هنا أو تحت مائدة الطعام !

وتأنقت دونا فى ملبسها وفى تصفيف شعرها والتزين بحليها ومجوهراتها ، لمقابلة أولئك الذين لن ينتصف الليل حتى يهاجموا من تحب ! .. **وفيما كانت تتأهب للنزول اليهم ، شعرت بحركة خافتة ، فالتفتت ، واذا بها ترى وليم يجلس القرفصاء والدماء تسيل من جروحه .. فان أحد رجال**

جودلفن أصابه بطلقاته . على أنه كان قد وفق الى تحذير سيده القرصان !

وحملت دونا الخادم على الاستلقاء على سريرها ، ثم عكفت تضمد جراحه ، وما لبث أن أصيب بغيبوبة ، فأحكمت اغلاق مخدعها ، وهبطت الى المدعوين

وكانت الوليمة فخمة حافلة ، وأفرطت دونا فى مجاملـــة المدعوين ، حتى ان هارى راح يحدق فيها مبهوراً بفتنتهـــا ، مشدوها لجرأتها فى مداعبة الضيوف . **ولم يكن روكنجهام أقل منه عجبا وحيرة من أمرها ، فكان يسائل نفسه وهو يرقبها : « ما الذى دعاها للسير فى الغابة نحو النهر فى المساء ، وفى وقت كنت أعتقد انها مستغرقة فى النوم ؟! » .. كما أخذ كل مدعو يفكر بدوره : « اذن فهذه هى ليدى سانت كولومب التى كثر الحديث عن الفضائح التى كانت تقترفها فى حانات لندن، والتسكع فى الشوارع بعد انتصاف الليل مرتدية زى الرجال .. لابد انها وهبت نفسها لكل من داعبها فى البلاط الملكى !.. أما عن علاقتها بجلالة الملك نفسه ، فحدث ولا حرج !** .. ولهذا ظلوا مدة صامتين ، متهيبين ، وقد وضعوها موضع الشبهة ، ولكنها لم تلبث أن بددت ـ بظرفها وسحرها ولباقتهـــا ـ وجومهم ، فانفرجت أساريرهم ، واطمأنت نفوسهم اليها

واذ نظرت دونا الى الساعة ورأت انها قاربت منتصف الليل، أمرت بأن تملأ كؤوس الشراب مرارا وتكرارا ، وهى تفكر فى نفسها : « بعد عشرين عاما من هذا التاريخ ، سيصبح جيمس ابنى شابا يافعا ، يتسلل الى غرفتى قرب مطلع الفجر ليقص على مغامراته .. ولعلنى أستطيع اذ ذاك أن أسرد عليه مغامرتى الكبرى ، وأقسم له أننى احتجزت اثنى عشر رجلا فى وليمة عشاء الى منتصف الليل ، لأتيح فرصة للرجل الوحيد الذى أحببته فى حياتى ، كى يفر الى فرنسا فيختفى عن حياتى الى الأبد ! »

* * *

◆ **وفيما** كانت سارحة فى أفكارها هـذه ، فطنت الى أن « راشليه » كان يتفرس فى وجهها ، وما لبث أن قال : « أقسم اننى رأيتك من قبل وسمعت صوتك ، وان كنت لاأذكر متى وأين !! » ٠٠ واذ رأته دونا يجهد ذاكرته ، ملأت كأسـه بالشراب ، وقدمتها له مبتسمة وهى تقول : « نعم ، هـذا هو نفس شعورى ٠٠ لعل ذلك كان يوم زفافى ، منـذ ست سنوات » ٠ فأجاب : «كلا٠٠كلا٠٠بل رأيتك منذ أمد قصير! »

واستدرجته فى لباقة ليحدثها عن الخسارة الفادحة التى منى بها باستيلاء القرصان على سفينته ، فصاح اللورد جودلفن : « لقد فر الأوغاد حين رأونا ، كما يفعل الفرنسيون عادة ، اذ يفضلون الهرب ـ فى جبن ـ على القتال »

وفجأة انتصب سيد يدعى « يوستيك » وقال : «ان الليل قد انتصف ، وعلينا أن ننفذ مشروعنا » ٠ واذا بجرس الباب يدق، فاندهش الجميع ، متسائلين عمن يكون الطارق فى مثل هذا الوقت ٠٠ ولم يتحرك أحد من الخدم لفتح الباب ! فلما تتابع الرنين متواصلا ، فتح «يوستيك» الباب بنفسه٠ واذا **بالقرصان الفرنسى يقف قائلا : « جان بنوا أوبيرى ٠٠ اننى فى خدمتكم أيها السادة ! ليلزم كل مكانه ، والا أرديته قتيلا ٠ أما السيدة فلها مطلق الحرية فى أن تفعل ما تشاء ، ولكن بعد**



أن تسلمنى قرطيها وسوارها وعقدها ،فقد راهنت عليها صبى سفينتى ! » •• وانحنى أمامهـا مادا يده ، وهو يبتسم • أما الاثنا عشر رجلا ، فأخذوا يحدقون فيه مبهوتين ، وقد امتلأت قلوبهم رعبا ، ولكن أحدا منهم لم يجرؤ على عمل شىء ، اذ كان برفقته بعض رجاله المسلحين ، بينما كان السادة متخمين بالطعام والشراب !

والتفت الفرنسى الى اللورد جودلفن قائلا : « لقـد جردتك المرة السابقة من طاقية شعرك ، أما اليوم فاننى أطلب ما هـو أفضل » ، ثم التقط بحد سيفه الوســام الذى كان يحلى به صدره ، كما جرده من سيفه • والتفت الى راشليه قائــلا : « أشكر لك أن أهديتنا السفينة ! » •• ثم جرده من ســيفه ومجوهراته ونقوده • وهـكذا فعل بالباقين ، تاركا لهارى خاتم زواجه فقط •• ثم قال : « **والآن أرانى مضطرا ـ لكى لا تفسدوا خطة عودتى ـ أن أطلب اليكم أن تخلعوا سراويلكم ، وأحذيتكم ، وجواربكم ، وأن تسلموها لأتباعى •• وسأمهلكم خمس دقائق لذلك ! »** ، ثم التفت الى رجاله وأمرهم بالمراقبة • وفتح الباب لدونا كى تخرج تجنبا للحرج !

وانفلت خلفها ، فلما أصبحا على انفراد ، ألقى سيفه جانبا ، وضمها الى صدره ، ثم انحنى عليها وأخذ وجهها بين يديه قائلا : « سأقلع بسفينتى بعد ساعتين ـ اذا عاونتنى الظروف ـ بلا رجعة ! • وليس معى صبى للسفينة ، فهل تعرفين شخصا يقبل مرافقتى ؟ • لقد أصبحت يا دوناى أسير حبك ، مقيدا بك كما أنت مقيدة بى • وهذا ما توقعته منذ اللحظة التى رأيت فيها صــورتك لأول مرة ، اذ أدركت أنك المرأة التى طالما انتظرت ظهورهـا فى حياتى •• وكذلك الحال معك : انك عشــت مــع زوجك فى لندن عيشة المغامرة والاستهتار ، وأنت تحسين فى قرارة نفسك أن هناك ، فى مكان ما ، شخصا هو جزء من جســمك وروحك وعقلك •• وأنك طالما كنت بعيدة عنه فأنت أشبه

بالريشة فى مهب الريح ، لا تستقر على حال ! »

فوضعت يدها على خده ، وقالت : « اننى أشاطرك كل ما يساورك : كل فكرة ، وعاطفة ، ورغبة ٠٠ ولكن الأمر كما وصفته أنت من قبل : لقد فات الأوان ٠٠وليس فى مقدورنا عمل شىء ! » ٠٠ وتبدت عليه الحسرة والأسى ، فتناولت يده ووضعتها على خدها ، ثم سألته عما اعتزم ، فقال وهو يشيح بوجهه عنها : « **دعينى أكرر لك قولى السابق : انك دوناسانت كولومب ٠٠ زوجة بارون ، وأم لطفلين ٠٠ وأنا قرصان فرنسى طريد القانون ، عدو لبلادك ! فان كان ثمة قرار يا دوناى بعد ذلك ، فانما هو قرارك أنت ٠ ولهذا السبب أمرت وليم بأن يصحبك الى (كوفراك) حيث سأمر بسفينتى ، وأبعث اليك بقارب لأتلقى جوابك ٠ فاذا لم ترى بادرة للامويت الى مطلع الشمس ، فاعلمى أن خطتى فشلت ، وأن جودلفن قد نال أخيرا بغيته وحق له أن يشنقنى !** »

ثم ابتسم وسار مبتعدا ٠ وبقيت دونا جامدة فى مكانها ، وقد شرد ذهنها بعيدا ٠٠

* * *

◆ **وانتبهت** من جمودها على رنين الساعة تعلن الواحدة، فتذكرت أن جميع الرجال ـ وكذا الخدم ـ موثقون ، ولا بد أنهم ثائرون ، باستثناء هارى الذى لا يحول حائل فى الوجود دون استسلامه للنوم ٠واستدارت نحو السلم لتصعد ، فاذا بها تسمع صوتا ٠ وتلفتت فرأت عينى روكنجهام الضيقتين الجامدتين تحدقان فيها ، وقد أمسك بيده سكينا ! ٠٠ وخيل اليها أنه ظل يحدق فيها أجيالا ، ثم اقترب فى بطء ، وجلس الى المائدة فى مواجهتها ، والسكين فى يده تقطر دما ، مما أوحى بوجود قتيل فى الطابق الأعلى ٠٠ وكان وجهه يختلف

عن وجه روكنجهام الذى كانت تشاركه - فى لندن - ركوب الخيل والمغامرات .. فقد تحول الى كتلةجامدة ، باردة ، تجسم الشر فى عينيها .. بل انه بدا عدوا لدودا لها ، يسعى الى ايذائها . واذ رآها تتحلى بمجوهراتها ، قال وشرر الغضب يتطاير من عينيه : « **ما الذى دفعته ثمنا لاسترداد مجوهراتك ؟ لقد علمت - من نظرتك اليه - السر فى أنك تختصين وليم بعطفك ، وتخرجين للتنزه جهة النهر ، بل وتنفرين منا جميعا باستثناء ذلك الرجل الواحد .. فهل تنكرين ذلك ؟ !** »

- لست أنكر شيئا !

- **ألا تعلمين أن من المحتمل أن تسجنى أو تشنقى ، لو أفشيت سرك ؟**

- حسن جدا .. أسرع بتنفيذ خطتك !

- **أعلم أنك تستعذبين الألم من أجله .. بل وتشعرين بفخر وسعادة فى الموت معه ، لأنك وجدت فيه الشخص الذى كنت تبحثين عنه طيلة حياتك !**

ثم شحب وجهه ، وغاض ماءعينيه ، وتوترت عضلات وجهه ، ومضى يقول : « وكان من الممكن أن أكون أنا ذلك الحبيب ، لولا مجيئك الى نافرون ! »

- كلا . لن يكون هذا قط يا روكنجهام !

فصوب السكين نحوها قائلا : « أعتقد أننى سأقتلك ! »

واقترب منها ، فرمته بكوب زجاجية ، لكنه كان قد طوح بالسكين ، فأصابت الحلية التى كانت تزين صدرها وشطرتها نصفين ، وخدشت صدرها . ثم انقض عليهافأمسك بمعصمها خلف ظهرها باحدى يديه ، وكتم أنفاسها باليد الأخرى .. ولكن كلابه - التى جاءت فى أثره - أحاطت به ، فتحول يدفعها بيده .. وانتهزت دونا هذه الفرصة ، فعضته فى راحة يده ، واستطاعت أن تصل الى السكين فغرستها تحت ابطه بشدة . وما لبثت يداه أن تراختا ، وارتكن الى المائدة ، وقد

صار منظره مرعبا .. بينما انطفأت الشمعة الوحيدة الباقية وأسرعت دونا تتلمس طريقها الى الطابق الأعلى فى الظلام ، لكنها ما كادت تصل الى رأس السلم حتى رأت روكنجهام يزحف خلفها وهو يلهث .. **وسمعت ثورة الرجال ونباح الكلاب ، ثم صرخة من ابنها الذى استيقظ على الجلبة مذعورا ، واذ ذاك تحول خوفها فى الحال الى غضب متقد ، وتطلعت فرأت - على ضوء خط من النور منبعث من النافذة - رمحا أثريا معلقا الى الحائط ، فانتزعته بسرعة وألقت به فى وجه روكنجهام ، وكان قد وصل الى رأس السلم وأخذ يحدق فيها ، فما ان أصابه الرمح حتى انقلب متدحرجا على درجات السلم ، والكلاب تنبح خلفه !**

* * *

◆ **ووقفت** دونا جامدة وقد نفدت قواها ، وشعرت بآلام مبرحة فى رأسها وعينيها ، بينما ظل صدى صراخ ابنها جيمس يرن فى أذنيها .. ثم سمعت جلبة وأصواتا ، لكنها كانت واهنة القوى ، فاستلقت على الأرض وفى ذهنها صورة « لامويت » ، يدير دفتها ذلك الرجل الذى أحبته والذى وعدت بأن تنتظره فى (كوفراك) - عند مطلع الفجر - لتبعث اليه بجوابها ! ثم فقدت وعيها !

وعندما أفاقت من غشيتها رأت هارى جاثيا الى جوار سريرها وهو يهتف فى قلق : « هل أنت بخير يادونا ؟ .. لقد مات عزيزنا روكنجهام .. لقد ضحى بحياته وهو يناضل وحيدا لانقاذك من ذلك الفرنسى اللعين الذى كان ولابد يبغى قتلك ! » . وأخذ يبكى صديقه ويرثيه ، ثم قال : « الآن طيبى نفسا واطمئنى ياحبيبتى .. فقد قبضنا على الشيطان اللعين ! » .. فقالت وهى لا تكاد تقوى على الكلام : « ماذا تعنى ؟ عمن تتحدث ؟ »

– عن الوغد الفرنسى الذى قتل « روك » وكان ينوى قتلك. لقد رحلت سفينته ببحارتها . أما هو ، فبعد أن صارع بمفرده رجلين ، وأتاح لرجاله الهروب بالسفينة ، وقف يضحك غير مبال بشىء ، كما لو كان قد أصابه خبل .. فأسرناه دون أن يقاوم أو يحاول الفرار ! »

وإذ رآها تحدق فيه مذهولة ، وقد بدا الرعب واليأس فى عينيها بكيفية لم يرها من قبل ، قال : « يافتاتى المسكينة ! . لقد كانت ليلةعصيبة ، ولا شك أنها أرهقت أعصـــابك .. فاستريحى ! »

– ٦ –

◆ **ظلت** دونا يومين فى ذهول ، لا تكاد تشعر بما يدور حولها .. ولم يفارقها هارى لحظة ، بل عكف على تدليلها وغمرها بحنانه ، وأقسم أنه سيقلع عن الخمر والميسر ، ليعنى بتربية جيمس . واستطاعت أن تعرف منه أن الفرنسى سجين فى قلعة قصر جودلفن ، ريثما يتم القبض على وليم ليشـــنق معه ! .. وكانت فى عجب من أمر وليم ، ولكنها أيقنت من حديث زوجها أنه قد هرب .. ولم يعد لها من أمل فى معرفة مصـــيره ، ثم تذكرت أن له عشيقة تقيم فى كوخ فى (جويك) ، فاعتزمت أن تسعى الى ذلك الكوخ ، عسى أن تحظى بنبأ عنه !

وقضت ليلتها تفكر فى خطة لانقاذ حبيبها . وعندما أقبـــل الصباح التالى ، ألحفت على هارى فى أن يرحل بالطفلين والمربية الى (هامبشير) – زاعمة أنهـــا كانت تخشى بقاءهما فى ذلك الجو المضطرب ، المحفوف بالأخطار – على أن تلحق بهم فى اليوم التالى فى (أوكهامبتون) . وعبثا حاول هارى اثناءها عن رأيها، حتى تتاح له فرصة مشاهدة شنق الفرنسى ، والسفر بعـــد ذلك ، الا أنه كعادته معهـــا ، انتهى الى الرضـــوخ لرغبتهـــا !

وهكذا رحل الجميع ، وظلت دونا واقفة تستعيد ذكريات نافرون التى لن تعود اليها ٠٠ وما لبثت أن أمرت خادما بأن يعد لها جواد المزرعة الصغير

وانطلقت دونا الى (جويك) ، حيث عرجت على كوخ عشيقة وليم ٠ واذ طرقت الباب ، سمعت حركة فى الداخل تنم عن ارتباك ٠ وما لبث الباب أن فتح وظهر وليم مضمد الذراع ، وخلفه تلك الفتاة التى كانت تدعى « جريس » ٠ **وما ان خلت دونا بخادمها ، حتى أخبرته بما كان من أمر القرصان ، وأرته خنجرا ومسدسا محشوا ، كانت تخفيهما فى طيات ثيابها ، وأخبرته بأنها تعتزم أن تسلمهما لسيده ، عسى أن يستعين بهما على الفرار !**

ثم تابعت دونا رحيلها على جوادها الى قصر جودلفن ٠ فلما وقفت فى ساحته ، لمحت شجرة ضخمة فى مكان منفرد بالحديقة ، امتازت بعلوها الشاهق ٠ وكان ثمة عمال يعدونها لعملية الشنق ، فحولت دونا وجهها وقد شعرت بدوار ٠ واذ ذاك لمحت جودلفن قادما نحوها يعتذر عن تأخره ، فأبلغته اضطرار هارى للسفر لأمر هام ، ثم سألته قائلة ـ وهى تشير الى البرج القريب من قصره : « أهذا هو المكان الذى تحتفظون فيه بذلك الفرنسى ؟ »

ـ نعم ، وهو يصرف كل وقته فى رسم الطيور ، ويبدو أنه معتوه !

ـ أهنئك لنجاحك فى القبض عليه ٠٠ يالك من شجاع !٠٠ لسوف أؤلف عن شجاعتك قصة شيقة أسردها فى البلاط الملكى على مسامع صاحب الجلالة ٠٠ ولكم أود أن آخذ معى من هذا الفرنسى تذكارا أريه لجلالة الملك ! فهل تعتقد أنه يقبل اعطائى أحد رسومه ؟ !

ـ ما أيسر هذا ٠٠ فان رسومه مبعثرة فى كل أنحاء الغرفة !

– ان حوادث تلك الليلة المريعة أنستنى هيئته ٠٠ كل ما أذكره أنه كان طويل القامة ، ضـــخما ، أســود اللون ٠٠ متوحشا !

– لعلك مخطئة ٠٠ فهو أقل منى ضخامة ٠٠ ويبـدو على ملامحه خبث الفرنسيـين ودهاؤهم ! ألن تحضرى الاحتفـال بشنقه غدا ؟

– يؤسفنى أننى مضطرة الى السـفر غـدا للحـاق بهارى والأطفال ٠٠ لكم أود أن أصف ذلك القرصان لصاحب الجلالة عندما أعود الى لندن !

* * *

◆ **وكان** مجرد تفكـير جودلفن فى أن « صاحب الجلالة » سيسمع القصة التى تصور بطولته ، كافيا لأن يقنعه بضرورة تمكين دونا من رؤية السجين ، حتى تصفه على حقيقته ٠٠ ومن ثم سارا معا الى الغرفة التى كان محبوسا فيها ، واذا به جالس الى منضدة ، وقد انهمك فى الرسم ٠ ولم يشـعر الفرنسى بقدومهما ، حتى أن جودلفن ضرب المنضدة بقبضة يده ، وأمره بالوقوف احتراما ٠٠ وأخبره برغبة السيدة سانت كولومب فى أن تحمل أحد رسومه لتعرضه على الملك ٠٠ وأشارت دونا الى رسم لطائر النورس وقالت : « **ان ريش هـــذا الطائر لم يكتمل بعد !** »

– لأن الرسم لم يتم ٠ ان الذى يعرف هــذا الطائر يدرك أنه لا يتوغل داخل البحر أكثر من عشرة أميال ٠٠ لا سـيما فى مثل هذا الوقت !

– اذن لا بد أنه سيعود الليلة الى الشاطىء للبحث عن ريشته التى فقدها !

فقال جودلفن : « اننى لم أسمع قط عن طائر عاد ليبحث عن ريشة أسقطها ! » ٠ واستطردت دونا قائلة للسجين : « **لقد**

كانت لى ـ وأنا فى الخامسة ـ حشية من الريش ٠٠ وأذكر أن ريشة منها سقطت فى الحديقة من نافذة غرفتى ٠٠ لكن النافذة كانت متسعة ، وليست مثل هذه النافذة التى لا تسمح الا بدخول الضوء فقط ! »

وتطلع اليها جودلفن مشدوها ، وقد ارتاب فى سلامة عقلها ، وخيل اليه أنها لا تزال تعانى من أثر الحمى ! ٠٠ بينما قال السجين : « ألا يمكن أن تمر ريشة من أسفل الباب ؟» ، فأجابت دونا : « **اذا وجد ما يساعد على دفعها ٠٠ كريح قوية ، أو طلقة مسدس ! »**

وكان جودلفن طيلة الوقت مضطربا ، مرتبكا ، فقد وافت آلام المخاض زوجته فى ذلك اليوم ٠ ومن ثم سهل على دونا أن تقصيه عن الغرفة بلباقة ، زاعمة أنها سمعت فرقعة عجلات عربة الطبيب الذى كان مرتقبا ٠٠ **وما ان خرج ، حتى دفعت بالمسدس والخنجر الى السجين ، وهى تهمس فى أذنه : « الليلة ٠٠ فى الحادية عشرة ! »**

وكان كل شىء ميسرا فى الواقع ، اذ أن المخاض الذى دهم ليدى جودلفن أشاع فى القصر كله قلقا وارتباكا ٠ وقد عرفت دونا كيف تستغل هذه الظروف بدهاء ، اذ نفحت الحارس مبلغا كبيرا من المال وهى تنصرف ٠ وتلكأت برهة متحدثة معه عن فرحة لورد جودلفن ، اذ آن له أن يرزق بوريث له ، وعن مدى اهتمامه بالمناسبة ٠ ثم أوصت الحارس ـ وكان يدعى « زكريا » ـ بطبيب ذكرت أنها ستوفده من لندن ، مساهمة منها فى العناية بليدى جودلفن !

وسعت الى جودلفن ـ بعد أن غادرت البرج ـ فأرته الرسم الذى اختارته وهى تقول : « لقد كسر السجن من شوكة القرصان ، وأذله وقوعه فى قبضتك ٠ لقد أيقن أخيرا أنه

صادف عقلية جبارة ! » . واستخف الاطراء اللورد جودلفن ، فقال : « **ان هؤلاء الفرنسيين أشبه بالنساء ، اذ لايستطيـع المرء فهمهم !** »

وما لبثت دونا أن ودعتـه ، ثم اعتلت صـهوة جـوادها وانصرفت !

* * *

◆ **تطلعت** دونا من نافذة غرفتهـا الى القمر ، ثم أخـذت تتأمل ما حولها وهى تعلم أن كل ما كانت تقع عليـه عيناها سيغدو فى عداد الذكريات التى سترافقها فى المستقبل ! .. وفى الساعة السابعة ، تناولت عشـاءها ثم أمرت الخدم بأن لا يوقظوها فى الصباح التالى حتى تصحو من تلقاء نفسها . ولجأت الى غرفتها فتزيت بزى الفتيان ، اذ كان عليها أن تمثل – للمرة الثانية والأخيرة – دور « صبى السفينة » ! وتسللت هابطة السلم وهى ترتعد خوفا فى الظلام ، ثم اندفعت تجرى الى حيث كان وليم فى انتظارها ، ومعه غلام أمسك بأعنة ثلاثة جياد . وكان وليم يرتدى حلة سوداء ، وقبعـة مستـطيلة ، وشعرا مستعارا ، وقدأخفى مسدسا تحت طيات ثيابه ..فقالت له دونا : « تذكر أنك طبيب يا وليم ، وانى سائسك ، فعليك أن تترك لقب « سيدتى » جانبا وتدعونى توم ! »

وسار الثلاثة ، حتى اذا أصبحوا علىمقربة من قصرجودلفن، ترجلوا ، فبقى الغلام فى حراسة الخيل ، وسارت دونا ووليم متسللين حتى بلغا البرج الذى كان الفرنسى سجينا فيـه . ووجف قلب دونا قلقا ، خشية أن يعجز وليم عن أداء دوره ، اذ كانت نجاة سيده متوقفة عليه . ولكنها اطمأنت حين رأته يتقدم فى رباطة جأش فيطرق الباب مناديا « زكريا » . وعندما رأت السجان يرحب به ، ازدادت طمأنينتها . وأفرخ روعهـا وهى تنصت الى وليم ، وقد اندمج فى دور الطـبيب ، وراح

يصف للسجان كيف وضعت ليدى جودلفن - فى سلام - ذكرا يرث مولاه ! وهتف زكريا : « فلنشرب اذن نخبك أيها الطبيب البارع ، ونخب المولود ! »

وأخذ وليم - بوصفه الطبيب - يشرب نخب المولود ، وهو يبدى دهشته مما سمعه عن السجين الذى يمضى وقته فى الرسم ، ويبتسم فى غير اكتراث ، رغم علمه بأن حبل المشنقة لن يلبث أن يطوق عنقه بعد ساعات ٠٠ فقال السجان : « **ان هذا من خصائص الدم الأجنبى : فالفرنسيون ، والهولنديون ، وغيرهم ، لا هم لهم سوى معاقرة الخمر واللهو مع النساء ٠٠ واذا ما أوليتهم ظهرك ٠٠ فطعنة فى الظهر !** » ٠ وقال وليم للسجان ، بعد أن سعل لينبه دونا : « نعم أود - بعد الذى سمعته - أن أرى ذلك السجين المتهور الذى سنستريح البلاد من شره غدا ! »

وسمعت دونا رنين نقود ، ووقع أقدام أدركت منه أن السجان اصطحب وليم الى الطابق الأعلى ، حيث كانت غرفة السجين ٠ وأدركت أن اللحظة الحاسمة قد حانت ، فأسرعت الى غرفة أخرى - أسفل الدرج - كان بها حارسان ، وهتفت : « أين الطبيب ؟ الطبيب ٠ ان الليدى جودلفن فى حال سيئة » ٠٠ فأسرع أحد الحارسين الى الطابق الأعلى ٠٠ واذ ذاك ، ولجت دونا الغرفة ، وأوصدت الباب خلفها ٠ وتطلع اليها الحارس الآخر فى عجب ٠٠ وكان بينهما منضدة ، فدفعتها دونا بأقصى قوتها وقلبتها على الحارس قبل أن يفطن الى ما كان يراد به ٠٠ **وفى تلك الأثناء ، كان الفرنسى ووليم قد تغلبا على زكريا وزميله ، وهبطا مسرعين ، ثم هرعا مع دونا الى ساحة القصر ٠ واذا الطبيب الحقيقى يصعد الى عربته متأهبا للرحيل ، فجرى الفرنسى نحوه غير مبال باحتجاج دونا ، ودس رأسه فى نافذة العربة سائلا الطبيب عن المولود ، فأجاب هذا : « لقد أنجبت السيدة لسوء الحظ توأمين ٠٠ وكل ما أبغيه الآن - وقد**

أضنانى التعب ـ هو عشائى وفراشى ٠٠ فأرجو أن تتركنى وتفسح الطريق » ٠٠ لكن الفرنسى اعتلى مكان السائق بعد أن ألقاه جانبا ، وطلب من دونا أن تصعد بجواره ، ففعلت ، كما أمر وليم أن يصعد الى جوار الطبيب ٠٠ وانطلقت العربة تنهب الأرض نهبا !

* * *

◆ **كان** الليل قد تجاوز منتصفه ، ووقفت دونا بجوار الفرنسى عند حافة خليج صغير هادىء ، يشبه البحيرة ، وكان القرصان قد تخلص من العربة والطبيب ، بينما انطلق وليم باحثا عن قارب ٠٠ واذ انفرد الحبيبان ، أشعلا نارا على الرمال . وانعكس اللهب على وجه الفرنسى وهو جاث الى جوار النار وقد قطب جبينه ، واستغرق فى التفكير ٠٠ وكان يرفع ذراعه الى وجهه ، كلما تفصد العرق منه ، فيجففه بكم قميصه ، ودونا ترقبه وقد أيقنت أن هذا المنظر لن يغيب عن ذاكرتها ما عاشت ! ٠٠ وأخذ الفرنسى يحدثها عن روكنجهام الذى قتلته فاتهم هو باغتياله ، فأحاطت دونا ركبتيها بذراعيها ، وهى جالسة على الرمل ، وقالت : « **لقد شعرت بالخوف فى البداية ، ثم اجتاحنى غضب أهوج دفعنى الى انتزاع الرمح عن الحائط ، ثم ٠٠ ثم سقط ميتا !** »

ـ وما الذى أثار غضبك ؟

فصمتت لحظة ، وقد تورد بالها ، ثم قالت : « **انه جيمس ابنى ! ٠٠ فقد استيقظ فجأة مذعورا ، وصرخ !** » ٠٠ فصمت بدوره ولم يقل شيئا ، ونظرت اليه فرأته جالسا مثلها وذراعاه حول ركبتيه ، وقد سرح بصره فى البحيرة ، وما لبث أن قال : « **آه ٠٠ كان جيمس هو الذى أثار يقظته وصراخه غضبك ! ٠٠ ها أنت ذى تعودين الى قولى السابق ٠٠ اننا لا نملك الفرار من الواقع !** »

ثم ألقى بحجر الى البحيرة الهادئة ، فارتسمت حلقات على سطحها راحت تتسع وتتوالى ، ثم سكنت وتلاشت ، وكأنها لم تكن ! ٠٠ واستلقى القرصان على ظهره فوق الرمال ، مادا يده الى دونا ، فاقتربت منه واستلقت بجواره ، وقال :

« **لن تعود ليدى سانت كولومب الى التجول فى شوارع لندن بعد الآن ٠٠ فقد قامت بما فيه الكفاية من مغامرات ٠٠ على ما أعتقد !** »

ـ بل ستصبح ربة بيت بارة بأهلها ورحيمة : تبتسم لخدمها ، وتعطف على مستأجرى أرضها ٠٠ ولسوف يأتى يوم يلتف فيه حولها أحفادها ، فتقص عليهم قصة القرصان الذى هرب !

ـ وماذا سيحدث لصبى سفينتى ؟

ـ سيقض مضجعه الأرق فى بعض الليالى ، فيظل مسهدا ، يتقلب على فراشه فى وجد وألم ٠٠ حتى اذا أضناه التعب ، نام ليحلم ثانية !

وهجع الكون ، وخيم السكون ٠ ثم هبت عليهما ريح باردة من وسط البحيرة ، فقالت دونا : « أتعتقد أنك ستجد «لامويت» فى انتظارك فى عرض الماء ؟ » ٠ فأجاب باقتضاب: «أعتقد ذلك!»

واذ رآها مستلقية على ظهرها بجواره ، وقد عقدت يديها خلف رأسها ـ وكانت بوادر الفجر قد لاحت ـ قال : « ترى متى اختل نظام الكون لأول مرة ،فنسى الناس كيف يعيشون، وكيف يحبون ، وكيف يسعدون ؟ ٠٠ اننى أخال أن فى حياة كل رجل من أوائل البشر بحيرة كهذه ! » ٠٠ فقالت دونا : « بل أخال التى كانت فى حياته ٠٠ امرأة ! ٠٠ ولعل هذه المرأة أوعزت اليه أن يبنى بيتا من الغاب ، ثم من الخشب ، ثم من الحجر ٠٠ واذ ازداد عدد الرجال والنساء ، ازداد تبعا لذلك عدد البيوت ، فطغت على التلال والبحيرات ، وأزاحتها من الوجود ، حتى لم يبق الا بيوت حجرية كلها متشابهة ! »

– أما أنا وأنت يا « دوناى » فما زلنا نمتلك تلا وبحيرة ، ولكن .. لم يبق لنا على مطلع الشمس سوى ثلاث ساعات !!

وعندما لاح ضوء الصباح ، بدا اليوم صحوا مشرقا، وظهرت صفحة البحيرة زرقاء صافية ، ساكنة .. فنهضا ، واغتسل هو بالماء – وما كان أشد برودته ! – ثم ابتعد عن الخليج سائرا نحو شاطىء النهر القريب ، حيث لاح على البعد قارب للصيد أخذ يقترب . ولحقت دونا بالفرنسى ووقفت الى جواره .. وما لبثت أطراف ساريات « لامويت » أن بدت عند حافة الأفق ، **ورسا القارب عند الشاطىء ، ووليم يقوده ، فقفز اليه الفرنسى، ونشر شراعه فأخذ يبتعد .. دون وداع !**

وظلت دونا جامدة فى مكانها – عند منحنى النهر – ترقب ساريات « لامويت » وهى تتهادى .. وخيل لها أن السفينة تبدو غريبة ، وكأنها تنتمى الى عالم غير هذا العالم ، وعصر غير هذا العصر ! .. وسرت فى جسدها قشعريرة نبهتها الى أنها كانت تقف حافية على الحصى البارد .. ثم برزت الشمس من خدرها وراء الأفق !

. وطوى التاريخ صفحة فى حياة دونا ، فاذا كل ما جرى أطياف رؤى .. كأنها الأحلام !



تلخيص : ابراهيم موسى

وصمة ·· فى جبين الانسانية !

◆ لم يقترن الغموض والرهبة والاستنكار باسم جمعية سرية فى التاريخ قدر ما اقترنت باسم جمعية الـ « كو - كلوكس - كلان » · كانت « الكافات » الثلاث التى تبدأ بها مقاطع الاسم الثلاثة ترمز الى الوحشية والظلم فى أبشع ألوانهما · وكانت هذه الألوان البشعة تنصب على السود دون سواهم من العناصر ، فقد كانت رسالة الجمعية فى كل أطوارها هى : اضطهاد زنوج أمريكا ارضاء لأبشع الغرائز العنصرية الخسيسة !

ولقد بدأ اسم « كو - كلوكس - كلان » يظهر من جديد ، على فترات متباعدة ، فى البرقيات الواردة من أمريكا · ومن ثم رأى « كتابى » أن يقدم لك اليوم قصة هذه الوصمة التى تلطخ جبين الانسانية ، فى ذلك الفصل الذى أفرد من تاريخها لامريكا

العنف ·· حتى فى المرح !

◆ **لايكاد** يوجد فى تاريخ التعصب العنصرى البغيض فى العالم بأسره - وفى مختلف عصوره - ما هو أبغض من «الكافات» الثلاث ·· « ك · ك · ك · » ·· كو - كلوكس - كلان !·· الجمعية التى ضربت الرقم القياسى فى غرائب أعمالها ، وفى خسة وبشاعة وسائلها !

ولقد ظهرت هذه العصابة - فى تاريخ أمريكا الشمالية - مرتين ·· وكان ظهورها فى المرة الثانية مجرد بعث وتجديد للفظائع التى خلفتها وراءها فى المرة الأولى ، فى ولايات الجنوب ··

وكان مولدها الأول فى بلدة (بولاسكى) بوادى (تنيسى) ، فى أعقاب الحرب الأهلية الأمريكية ·· كانت الأعصاب مرهفة

متوترة بسبب الركود الاقتصادى ، والضائقة المالية التى أخذت بخناق الولايات الجنوبية بعد أن منيت بالهزيمة على أيدى الولايات الشمالية ٠٠ **وفى مثل هذه الظروف ، يجنح الشباب الى الابتكار ، والى العنف ٠٠ حتى فى المرح ! وهذا ما حدا بفريق من الأصدقاء فى بلدة (بولاسكى) الى البحث عن ملهاة جديدة ، يشغلون بها عن الركود الجاثم على الصدور ، فاتفقوا على أن ينشئوا فيما بينهم جمعية مبتكرة تثير الفضول فى النفوس ٠٠ ودفعهم جموحهم فى ذلك الى أن يغالوا فيما أرادوا أن يسبغوه على جمعيتهم من غموض ، حتى لقد ظلوا طويلا يبتكرون لها الأسماء الغريبة التى تبدو كالألغاز المحيرة ، ثم انتهوا الى اسم غاية فى الغرابة والابهام : « كو ـ كلوكس ـ كلان » !**

ولم يستطع أحد ـ حتى اليوم ـ أن يبرر بجلاء وحجة ثابتة سر اختيارهم هذا الاسم ٠٠ على أن أقرب تعليل الى المعقول ، هو أنه اشتق من « كوكلوكس » ـ وهى كلمة يونانية معناها « دائرة » ـ و « كلان » ٠٠ وهى كلمة من اللغة الكلتية القديمة ، تعنى : « طبقة اجتماعية » ، أو « عامة الشعب » ٠ ومما يدعم هذا التبرير أن هذه الكلمة لا تزال مستعملة فى اسكتلندا التى ينتمى اليها كثيرون ممن نزحوا الى أمريكا وأقاموا فى وادى (تنيسى)

« كرنفالات » للارهاب والضحك !

◆ على أنه لا يكاد يوجد دليل مادى يقطع بصحة هذا التعليل ٠٠ واذا كان ثمة أمر مقطوع به ، فهو أن سحر هذه الكلمة سرعان ما تغلغل فى نفوس القوم ، لاسيما وأن أعضاء الجماعة غالوا فى احاطة أنفسهم بكثير من ظواهر السحر والشعوذة ٠ فأطلقوا على بعضهم ألقاب « التركى الأعظم » ،

و «الساحر الأعظم» ، و «التنين الأعظم» ، و «الراهب الأعظم» ..
وأطلقوا على ستة منهم اسم « الأخطبوط » ونظموا مواكب يتصدرها « الجبار الأعظم » ، تحف به ست « جنيات » أو « عفريتات » ! .. واختاروا لأماكن اجتماعاتهم اسم «المعزل» ، وأقاموا على حراسة كل منها اثنين من « حملة المحفات » !

ومن الثابت أن الشبان الذين أنشأوا هذه الجمعية ـ فى سنة ١٨٦٦ ـ لم يكونوا قد فكروا حتى تلك المرحلة فى رسالتها .. ولا كان فى عملهم هذا ما يوحى بأى أمر خطير . فقد كان همهم الأول هو البحث عن نواحى المرح واللهو فى الحياة ، وتنظيم اجتماعات كانت أقرب الى « الكرنفالات » منها الى أى شىء آخر . وكانوا يتعمدون ـ بما يسبغونه عليها من مظاهر السحر والشعوذة والغموض ـ أن يثيروا الفزع والرهبة فى نفوس الغير ليجدوا فى ذلك مادة للضحك والعبث !

البيض يحقدون على السود ان تحرروا !

◆ **ولكن** هذا الطابع اللاهى لم يلبث أن انقلب الى طابع جدى ، بعد أن انضمت الى الجماعة عناصر جديدة من أرجاء الولايات الجنوبية التى غلبت على أمرها ، والتى أجبرها الشماليون على النزول عن حق الاسترقاق ، وعلى اعتاق ما كانوا « يملكونه » من العبيد الزنوج ! .. فقد كان أغلب هذه العناصر من أصحاب المزارع الكبيرة ـ الذين كان تسريح الرقيق نكبة ضعضعت اقتصادياتهم ـ ومن الجنود والضباط الذين لم يقووا على مغالبة مرارة الهزيمة ! .. ومن ثم فقد كانت هذه العناصر ـ بالذات ـ تنشد متنفسا لكربها المكبوت ، وتبحث عن نبع يروى غليلها الى الانتقام . وهكذا اتجهت هذه العناصر بالجمعية الى اضطهاد الزنوج ، لا سيما حين تدفق فريق من المغامرين السياسيين من الشمال ، وأقاموا معسكرات للزنوج المتعطلين ، وأخذوا يدربونهم فيها على استخدام حقوقهم الجديدة ،

ويبحثون لهم عن أعمال

وكان حنق أصحاب المزارع الكبيرة وتجار الرقيق قد أوحى اليهم بأن يسدوا طرق الارتزاق أمام العتقاء ، فأثار هذا الأمر ثائرة السود ومناصريهم من البيض . وشيئا فشيئا ، تحول الصدام الى عنف ، وتبلور فى جماعة « الرابطة المخلصة » التى انتظمت السود فى صفوفها ، بينما تولى حماتهم من البيض رسم الخطط لهم لانتزاع المال قسرا من الأغنياء . ثم اشتد حساب « الخطر الأسود » عندما اقتربت انتخابات الاتحاد الامريكى ، وخشى زعماء الجنوب أن يدلى السود بأصواتهم فى جانب الشماليين لأنهم كانوا يناصرون قضية تحرير الزنوج ، وبذلك تصبح السيطرة للولايات الشمالية .. فراحوايحاولون الحد من حق السود فى الانتخاب ، حتى اذا أخفقوا ، عمدوا الى الارهاب .

واضطلعت جماعة « كو - كلوكس - كلان » بالزعامة فى هذا الميدان !

الفارس الذى يسكب الماء فى جيبه !

◆ **وسرعان** ما أخذ الناس يسمعون عن اجتماعات غريبة ، تعقد سرا فى ظلام الليل ، ويخف اليها أشخاص مقنعون ، يلتفون بعباءات سوداء ، ويرتدون قلنسوات - « طراطير » - بيضاء .. ولم يستطع أحد أن يدرك كنه هذه الاجتماعات السرية .. كل ما كان يشاهده الناس ، مجرد أشباح غامضة كانت تشق كبد الظلام ، لتجتمع فى بقاع نائية ! فاذا اقترب أى انسان من هذه البقاع ، اصطدم بحراس مسلحين ، وسمع صراخا مفزعا وصفيرا يشق الاسماع ، من جوف الظلام ، فيبادر الى الفرار ..

ثم أشاع رجال « كو - كلوكس - كلان » ان أرواح جنود

الولايات الجنوبية ـ الذين قتلوا فى الحرب الأهلية ـ تهيم فى الليل • وكثيرا ما كان ينطلق فى جوف الليل فارس مسربل بالبياض ، ثم يتوقف لدى باب أحد الزنوج ، ويسأله كوب ماء فى أدب •• ويأتيه الزنجى بالماء وهو يرتجف فرقا ،ويرسم بيده علامة الصليب • ويشتدفزعه اذيرى الفارس الغريب يصب الماء فى جيب ثوبه الأبيض ـ دون أن يدرى الزنجى المسكين أن الجيب من المطاط ! ـ ثم يتنهد الفارس ، ويتمتم أن هذه أول جرعة يطفىء بها ظمأه منذ قتل فى المعركة !!

ومن أساليب الارهاب أن ينطلق بعض هؤلاء « الأشباح » على الجياد فى جوف الظلام ، وقد ارتدوا ثيابا تظهرهم فى أشكال الهياكل العظمية ، وأخذوا يرقصون على جيادهم •• وقد يصادف أحد الزنوج شبحا من هذه الأشباح فى الظلام ، وقد سد عليه طريقه •• وفى حركة سحرية ، ينزع الشبح رأسه العظمى ويمده نحو الزنجى سائلا اياه أن يحمله عنه لأنه يثقل على عنقه المثخن بجراح المعركة !



واستبد الفزع بالزنوج ، حتى أصبحوا لا يجسرون على مبارحة دورهم بعد غروب الشمس !•• ولكن الصراخ والجلبة الرهيبة كانا يحيطان ببيوتهم طيلة الليل ، فكانوا يلجأون الى الصلاة وهم فى أقصى حالات الجزع •• فقد كانوا يخالون أن الأشباح انطلقت ـ بالفعل ـ تعيث فى الأرض فسادا

البيض يستردون « حقهم » فى اعدام السود !!

◆ **والى** جانب هذا الارهاب الفظيع ، أخذ أعضاء « كو ـ كلوكس ـ كلان » ينفذون قانونا كان متبعا فى الماضى ، ويبيح للسادة « البيض » اعدام أى « زنجى » ارتكب جرما ٠٠ ومع أن الزنوج لم يعودوا ـ كما كانوا ـ عبيدا ملك ايمان البيض ، وانما أصبحوا مواطنين يقفون على قدم المساواة مع أولئك البيض ، الا أنهم لم يكونوا يملكون دفع هذا الخطر الجديدعنهم **٠٠ فما أن يرتكب واحد منهم جرما ، أو يخوض معركة ضد أحد من البيض ، حتى ينبعث وقع حوافر جياد عند داره ليلا ، ثم يفاجأ بفرسان مقنعين يقتحمون داره ، وينتزعونه من فراشه ، ثم يجرونه الى أقرب غابة فيربطونه الى شجرة ، وبعد أن يوسعوه تعذيبا يقتلونه رميا بالرصاص ! ٠٠ وفى الصباح التالى ، تجد أسرة الزنجى المنكود جثته مثبتة الى الباب ، وتحتها بطاقة تحمل « الكافات » الثلاث ٠٠ رمز الانتقام !**

وشجع مسلك « السادة » غيرهم من البيض من أبناء الطبقات الأخرى ، فما لبث السوقة أن أصبحوا هم الأغلبية فى أماكن الاجتماعات الليلية السرية ، واذ ذاك أصبح فرسان الليل خطرا حقيقيا على الأمن ٠٠ كما أصبح القتلة وقطاع الطريق يستترون خلف عباءة الكو ـ كلوكس ـ كلان !

وحاول أقطاب الجماعة أن يتداركوا الموقف ، فطهروا صفوفهم من مرتكبى الجرائم التى ليس لها مبرر سياسى ٠ بيد أن زمام الأمر كان قد أفلت من أيديهم ، وأخذ فرسان الليل يعيثون فى الأرض فسادا ، يقتلون وينهبون ، حتى فطنت الحكومة الى الخطر ، ورأت أن تضع له حدا ٠ **وفى ابريل سنة ١٨٧١ ، أقر مجلس الشيوخ مشروع قانون لمكافحة « كو ـ كلوكس ـ كلان » ، وقد أباح فيه الاستعانة بالقوات المسلحة للقضاء على هذه العصابة ، وخول لكل فرد من السكان**

حق اعتقال كل من يشتبه فى انتمائه اليها

وبادر « الساحر الأعظم » ـ زعيم العصابة الذى كان من القلة النظيفة التى وضعت بذرة الجماعة ـ الى الاستجابة لضغط السلطات ، وأصدر قرارا بحل العصابة قال فيه : « لقد أدت الامبراطورية الخفية ما عليها من واجب ، وأصبح القانون يحمى حياة المواطنين وأملاكهم وحرياتهم ، فلم يعد ثمة مبرر للاغضاء عن السرقة والحوادث الأخرى التى تجرى ٠٠ ومن ثم فقد آن للجماعة أن تنزل عن المكانة التى كانت تحتلها بعد أن أدت مهمتها !

وبذلك طويت صفحات فصل من أبشع فصول تاريخ المدنية الحديثة ٠٠ ولكن فصلا جديدا لم يلبث أن فتح بعد نصف قرن ! ٠٠ ففى خلال السنتين الأخيرتين من الحرب العالمية الأولى ، عاد لقب « الساحر الأعظم » الى الظهور فى الولايات الجنوبية من أمريكا الشمالية ٠

البيض يخافون على نسائهم من السود !

◆ **لم** يكن ظهور اللقب فى هذه المرة مختلسا ، بل كان محفوفا بالضجة والدعاية ٠٠ فظهرت اعلانات تشغل صفحات كاملة من كل صحيفة ، ولافتات مضيئة ، تحذر أهالى الولايات المتحدة من الخطر الذى ستنجلى عنه الحرب ٠٠ خطر عودة الجنود الزنوج من أوربا وتسريحهم ٠ **فان المدة التى قضاها أولئك الزنوج ـ وسط القوات الأمريكية ـ فى الجبهة الفرنسية ، أتاحت لهم أن يتذوقوا المتعة والدفء فى أحضان الأوربيات ، وما كانوا لينسوا ـ عند عودتهم الى أمريكا ـ لذة « اللحم الأبيض » ! ٠٠ وبالتالى ، فان من واجب الأمريكيين أن يقدروا الخطر المحيق بنسائهم البيض قبل تسريح القوات المحاربة !**

وكان كل اعلان يحمل فى ذيله اسم « جمعية السادة الجنوبيين » ، وتحته « الكافات » الثلاث ٠٠ « ك ٠ ك ٠ ك ٠ » !

وفعلت هذه الدعاية الطنانة فعلها فى النفوس ، فتدفق الشباب على الجمعية ينضوون تحت لوائها ٠ ونشطت « كو — كلوكس — كلان » من جديد ، لا سيما وأن السنوات الخمسين التى انقضت على موتها الأول كانت قد محت من الأذهان آثار الجرائم الفظيعة المخزية التى ارتكبتها ، ولم يبق من معالم الجمعية سوى ذكريات ملفوفة بغلالة من الخيال والبطولة ومزاعم مكافحة وحشية العبيد والدفاع عن البيض !

وأذكى الاقبال جذوة النشاط فى الدعاية للجمعية ٠ وتألفت النواة الأولى لفروع لها فى كثير من المدن الصغيرة ، حيث كانت الغرائز المكبوتة ، والأعصاب التى أرهقتها الحرب وظروفها ، ترحب بكل شىء مثير ! ٠٠ واستخدمت الجمعية عين الأساليب التجارية التى كانت متبعة فى تلك الأيام ، فحددت رسم الاشتراك فى البداية بخمسة دولارات ، ثم رفعته بعد قليل الى عشرة دولارات ، فأوحى ذلك للمترددين بأن الاقبال يشتد ، وحفزهم على أن يبادروا الى اقتناص الفرصة !

ومن الأساليب التجارية الاستغلالية ، أن اتخذت الجمعية لأعضائها زيا جديدا غير العباءات السوداء ، تمثل فى معاطف بيضاء نقش على صدورها صليب أحمر ٠٠ وقصرت الجمعية امتياز صنع هذه المعاطف على شركة خاصة أنشأتها بنفسها لتؤول اليها أرباحها ! ٠٠ وقد بلغ من رواج أعمالها أن كان ثمن المعطف الواحد يتراوح بين ستة دولارات وخمسين دولارا ، وان بلغ عدد ما كان يباع منها ٦٠٠ معطف فى اليوم الواحد !

ومن عجب أن المنظم الجديد للجمعية كان قسا عمل فى الجيش وهو الكولونيل وليم جوزيف سيمونس ٠٠ وكانت له سلطة مطلقة ، حتى أنه لم يلبث أن أهمل لقب « الساحر الأعظم » ليحمل لقب « امبراطور » ، اذ كانت الجمعية تعتبر

« **امبراطورية خفية !** » ٠٠ وقدكان «سيمونس» خطيبا مفوها ، اشترك فى الحرب الامريكيـــة الاسبانيـــة ـ فى أواخر القرن الماضى ـ وســاهم فى كل الجمعيــات السرية التى شــهدتها الولايات المتحدة فيما بين تلك الحرب والحرب العالمية الأولى ٠٠ وقد هداه دهاؤه الى اســـــتغلال « كو ـ كلوكس ـ كلان » فى سبيل الشهرة والمجد والسلطان والاثراء ، فبعثهـــا فى تلك الظروف !

« المسيحيون » ٠٠ الذين يشوهون تعاليم المسيح !

◆ **وفى** احدى ليالى شتاء سنة ١٩١٥ ، ارتقى «سيمونس» قمة جبل (ستون) بولاية (الاباما) مع خمسة عشر شابا ، وقد حمل مشعلا على شكل صليب ينبعث منه اللهب ٠٠

وكان هذا ايذانا بالمولد الجديد للجمعية !

وكانت الى جانب « سيمونس » على قمــة الجبـل ـ فى تلك الليلة القارسة ـ امرأة قيل انها شريكته فى الشئون الدنيوية ، وكانت تدعى « اليزابث تايلر » ! ٠٠ ولم تكن المرأة أقل دهاء وعبقرية من الرجل ، فشرعا يرسمان معا خير خطط الاستغلال المعقول ، فقدرا مكافأة لكل من كان يتقدم للترويج للجمعيـة واستدراج الاعضاء اليها ٠٠ وقد بلغ من قيمة هــذه المكافأة أن من السماسرة من كان يجنى منها خمسين ألف دولار فى السنة

واستطاع « سيمونس » أن يستغل لباقته الخطابية خـــير استغلال ، وأن يتظاهر بالورع والعطف على الفقراء ، حتى لقد كان يلقى فى روع أتباعه أنه كان ينفق ايرادات صندوق المركز الرئيسى للجمعيــة فى مساعدة المعوزين ٠ وقد بلغ من اعجاب أتباعه به ، أن أهداه بعضهم عمارة فى مدينة (اتلانتا) بلغت قيمتها ٢٥٫٠٠٠ دولار ٠ **وفى تحقيق برلمانى ـ أجرى فيمــا بعد ـ ثبت أن « سيمونس » كان يتقاضى من أموال الجمعية ألف دولار فى الشهر ٠٠ كما أن مسز «تايلر» كانت تتجر فى**

الزى الرسمى للجمعية وفى الكتب والنشرات التى تصــــدر للدعاية لها .

وكان « سيمونس » وأعوانه يفتنون فى تنظيم المهرجانات لاجتذاب الناس الى الانضواء تحت لواء الجمعية . ومن أروع المهرجانات ، موكب تصدره « الاســتاذ الاكبر ، المختــار من سيد السموات » وسار خلفه ١٦ من تلاميذه ، وقد حمل كل منهم حجرا ، وراحوا يصعدون الجبل ، حتى اذا بلغوا قمته ، لفوا الاحجار فى العلم الامريكى ، وأرسوها فى البقعـــة التى اختيرت موقعا لانشاء « الهيكل » أو « المعبد » ، ووضعوا فوقها الكتاب المقدس ، بعد أن فتح عند الاصحاح الثانى عشر من رسالة بولس الى الرومانيين .. ثم أمسك كل من التلاميذ بيد الآخر ، وراحوا ينشدون : « الى الأمام ياجنود المسيح » ، بصوت مدو ..

ثم هبطوا الى الأودية للكفاح والارهاب !

الجمعية تتهم اليهود بافساد النظم الاجتماعية والأدبية !

◆ **وبدأت** العصابة رسالتها الجديدة بحرب أعصــاب شاملة ، اجتاحت أمريكا طولا وعرضا .. ولم يعــد الزنوج وحدهم محط نقمـــة « الكو ــ كلوكس ــ كلان » ، فقد أراد « الامبراطور » وأعوانه أن يستأثروا باهتمام الرأى العام كله ، ليظلوا موضع رهبة .. وتمخض تفكيرهم عن توسيع نطــاق الكراهية بحيث شمل ــ الى جانب السود ــ كلا من «الكاثوليك» و « اليهود » ! وشنوا الدعاية التى راحت تصور أن الكاثوليكية اداة فى يد البابا يحـاول عن طريقها أن يفرض نفوذه الروحى وسلطانه الدنيـوى على الولايات المتحـدة ! .. **لذلك راحت الجمعية تتهم اليهود بأنهم لم يسيطروا على المسارح والسينما الا امعانا فى افساد النظم الاجتماعية والأدبيـة فى البــلاد .. ولم تنس العصــابة فى اتجاهاتهــا الجديدة أن تتهم الزنوج**

بأنهم يكثرون من التناسـل ليغـدوا قوة تطغى على الجنس الأبيض !

وكان لا بد ـ الى جانب الرسالة الجديدة ـ من اخراج مسرحى بارع ، فوضع « الساحر الأعظم » وحواريوه وأتباعه النظم التى تجعل أسرار الجماعة مقدسة ، لا يرحم من يفشيها من الموت ، وابتدعوا لها طقوسا غامضة رهيبـة ٠٠ **وأسرفوا فاتخذوا للأيام أسماء عجيبة تربطها بدنيا السحر والشعوذة ، فمنهـا : « حزين » و « قاتل » و « رهيب » ٠٠ كما اتخذوا للشهور أسماء أغرب : « دموى » و « عنيف » و « معذب » ! ٠٠**
وحرص رؤساء الجماعة على أن يجتذبوا اليها طبقةجديدة ذات خطر : طبقة المغامرين والوصوليين السياسيين ، وصرعىالعقد النفسية و « السادية » و « جنون العظمة » من ذوى المناصب الكبيرة فى الجيش والبوليس والقضـاء ٠٠ بل والهيئـة التشريعية !

« المنتقمون بالحق » ٠٠ ليسوا الا سفاحين ؟

◆ **واتسع** نطاق العصابة واشتد بأسها ، وما اناطمأنت الى توتر الأعصاب نتيجة دعاياتها ، حتى أطلقت فرسان الليل يشقون أكباد الظلام كماكانوا يفعلون فيمامضى ، منتحلينلأنفسهم لقب « المنتقمون بالحق » ! ٠٠ واذا حوادثهم أشد قسوة واراقة للدماء مما كانت فى الماضى ، فاضطهدوا القساوسـة الزنوج واتهموهم بأنهم أصابع البابوية ، وعادوا ينفذون فكرة سيادة البيض بشنق من يذنب من الزنوج ، وطرد الأبرياء منالاراضى الزراعيـة ٠٠ بل وبنفيهم من ولايـة بأسرها من الولايات ! **وكانت أبشع ألوان نقمتهم أن يوثقوا ضحاياهم فى الكنائس الكاثوليكية ، ثم يوقدوا النار فى الكنائس ، ويصدوا رجـال الاطفاء عن اخماد الحريق !٠٠ وكانوا يعذبون عشراتمن الرجال والنسـاء والفتيـات ، ويقتلونهم أو يشنقونهم أو يحرقونهم**



أحياء ! ٠٠ كما كانوا يستغلون سلاح « الدعوة الى المقاطعة » ضد الشركات والمصانع الكبرى التى ترفض طرد ما لديها من زنوج أو كاثوليك أو يهود

واذ اشتد السعار بفرسان الليل ، أخذوا يبطشون لأتفه الأسباب ، كاهمال الآباء والأمهات للاطفال ، أو حسن معاملة الزنوج ، أو انتقاد أى تصرف من تصرفات العصابة ٠٠ بل ان هوس الاجرام جعلهم فى كثير من الأحيان يوقعون بطشهم بالأبرياء لمجرد الحزازات الشخصية ! ٠٠ وكان الشخص يشعر بأن لا مهرب له من الخضوع ، لمجرد أن يتلقى رسالة تحمل « الكافات » الثلاث ، تحت انذار يتهمه بخرق القوانين أو انتهاك الأخلاق ، ولو لم يقم أى دليل على ذلك !

ولا سبيل الى حصر ألوان اجرام العصابة ، بل يكفى أن نذكر أن منها : الاضطهاد العنصرى ، والتشهير ، وابتزاز الأموال بالقوة ، والتعذيب ، ودمغ الجباه أو الخدود أو الظهور بـ « الكافات » الثلاث بخاتم يحمى فى النار ، وخطف الأطفال ، وتقطيع الأوصال ٠٠

وقد حدث فى سنة ١٩٢٧ أن بلغ عدد الجرائم التى جمعتها هيئة المحلفين الكبرى فى ولاية (الاباما) ضد ٢٦ رجلا من العصابة مائة جريمة واثنتين !

«حاميها ٠٠ حراميها !»

◆ **على** أن معظم الجرائم راحت بلا عقاب ، ونجا المجرمون

من تبعاتها . بل ان بعض الجرائم كان يرتكب على مرأى ومسمع من القضاة ورجال النيابة ورجال الأمن ، دون أن يجرؤ أحد على انزال العقـــاب بمرتكبيها ، اما لخوف السلطات من تنكيل العصابة وسطوتها ، واما لأن المهيمنين على تلك السلطات أنفسهم ينتمون الى العصـابة ! .. **فاذا قدر لحـادث من تلك الحوادث أن يصل الى ساحة القضاء ، فكثيرا ماكانت القضية تحفظ أو يبرأ المتهمون !.. واذا شاء سوء الطالع لأية هيئة أو فرد أن يحتج أو يعارض ، فان العصابة كانت توفد له في اليوم التالي « قوة » تبطش به في «مظاهرة علنية ! »** .. وقد حدث في مدينة (دلاس) بولاية (تكساس) أن ذهـب ٦٨ شخصا ضحايا لفرسان الليل في ثلاثةأشهر - من عام١٩٢٢- دون أن يجرؤأحد على أن يلمس بيده جوادا من جيادهم .. مجرد لمس !

وفي سنة ١٩٢٣ ، سجل في ولاية (أوكلاهوما) أكثر من ٢٣٠٠ حادث جلد بالسياط ، كما أنذر ٢٢٠٠ شخص آخـر بالجلد ، فلم ير حاكم الولاية بدامن أن يجمع أطراف شجاعته ، وعقد العزم على أن يضع حدا لهذا « الفزع الأكبر » في ولايته . فاستصدر أمرا بفرض الأحكام العرفية في الولاية !

حاكم الولاية .. يقتسم الغنائم مع أفراد العصابة !

◆ **وأمعنت** العصابة في حملاتها حتى جعلتها حربا شعواء ، وحتى ملأت النفوس ذعرا طاغيا .. الى أن كانت سنة ١٩٢٤ ، اذ اعتزل القس « سيمونس » زعامة العصابة ، محتجا بأن الجهلة أساءوا الحكم عليه ، وقصروا في تقدير رسالته ! .. **على أنه لم ينس استغلال « اعتزاله » هذا ، فبـاع سلطاته وامتيازاته لطبيب أسنان في (اتلانتا) يدعى « هيرام وسلى ايفانس » ، في مقابل ٣٠٠٠٠٠ دولار ، فأصبح طبيب الأسنان هو «الساحر الأعظم» والأستاذ الأكبر للامبراطورية**

الخفية»، وكان رجلا جريئا ، قوى الشكيمة لا يهتز أمام الشدائد ، ولكنه سرعان ما اصطدم بشخص لا يقل عنه جرأة وقوة وثباتا. وكان ذلك الغريم قطبا رفيع المكانة فى الجماعة ، يدعى « ستيفنسون » ، ويلقبونه بـ « النسر الملكى » ..

ودارت المعركة حامية بين « الساحر الأعظم » و « النسر الملكى » ..

وحدث فى احدى الليالى أن انقض البوليس على منزل ستيفنسون – بولاية أنديانا – واعتقله بعد أن ثبت اتهامه فى اغتيال فتاة صغيرة بطريقة شنيعة أثارت الجماهير .. وبهت « النسر الملكى » لجرأة رجال البوليس (!) ، ثم غلى الحقد فى أعماقه حين رأى حاكم الولاية يتركه فى السجن ، ولا يحرك أصبعا لانقاذه ، فلم يجد وسيلة للانتقام الا بأن يكتب رسالة طويلة للمحكمة يقرر فيها أن الحاكم ظل سنوات يتستر على جرائم العصابة ، ويقتسم مع أفرادها – فى مقابل ذلك – الغنائم !

انقسام الجمعية على نفسها

◆ **وأثارت** القضية والاعترافات التى لابستها ضجة شديدة ، الأمر الذى أثر فى خزانة العصابة – اذ بدأ الناس يعرضون عنها – كما أدى الى جرأة المعارضين لها ، والى تشجع رجال البوليس والنيابة والقضاء .. بل ان الماسونيين ورجال الصحافة استغلوا الفرصة ليشنوا عليها حملات شعواء ! .. وحاولت الجمعية أن تستعيد سلطانها ، فعادت تنفخ فى نيران الكراهية والوقيعة ضد الزنوج والكاثوليك . على أن بعض أقطاب العصابة فى (بنسلفانيا) عارضوا هذا الاتجاه ، فلم يتردد « الساحر الأمبراطورى » فى فصلهم من العصابة . بيد أنهم رفضوا تنفيذ قرار الفصل ، فأخذته العزة بالاثم ، ورفع قضية ضدهم طلب فيها حرمانهم من العضوية قانونا !

وأصابت القضية فشلا مخزيا ، اذ رفضت على أساس أن

صاحب الدعوة وأنصاره « **أثاروا - بأعمالهم وتعاليمهم - الكراهية بين عناصر الأمة ، وبين ذوى الأديان المتباينة .. وبذروا بذور الفوضى ، وشجعوا انقسام الأمة ، وعرضوا الامن العام للأخطار .. لمجرد اجتذاب أكبر عدد من الأعضاء !** »

ثم منيت العصابة بصدمة قاسية عندما خرجت من انتخابات « الكونجرس » - فى سنة ١٩٢٧ - بهزيمة منكرة .. ولكنها كانت كالغريق الذى يأبى أن يكف عن محاولة الارتفاع على الماء .. فأقامت الدنيا وأقعدتها فى انتخابات رئاسة الجمهورية فى سنة ١٩٢٨ ، اذ شنت حملة من الدعاية العنيفة ضد المرشح الديموقراطى الكاثوليكى « آل سميث »

بيد أن هذه المحاولات لم تطغ على البوادر الواضحة .. البوادر التى كانت تؤكد أن انهيار العصابة قد بات وشيكا !

ظهور جمعية « المملكة العليا »

◆ **وقد** ظهرت أولى البوادر عندما انفصل عن العصابة « ادوارد كلارك » ، وزير دعايتها وكبير أقطابها بعد ايفانس .. « الامبراطور » ! فقد استقال لينجو بجلده حين اشتم من العواصف والغيوم أن السفينة صائرة الى الغرق !

وعمد « كلارك » الى انشاء جمعية جديدة أسماها « المملكة العليا » ، انبعثت رسالتها من ولاية (جورجيا) كما انبعثت رسالة الجمعية السابقة ، وتقدمت تعرض على « كولدج » - الذى كان قد انتخب رئيسا للولايات المتحدة - خدماتها للقضاء على « الامبراطورية الخفية » .. وكان عجيبا أن يبسط « تاجر الكراهية » يده للسلطات ! .. على أنه فى الواقع لم يكن قد تخلى عن رسالة « الكراهية » ، وانما تحول بها من الكراهية العنصرية - فيما عدا كراهية الزنوج - الى كراهية النظريات التى بدأت تتفشى اذ ذاك ، كالمادية ، والالحاد ، والبلشفية .. وتحول بها من العنف الى التربية والتعليم ، لا سيما التعليم

السياسي ! ٠٠ **وكما تسلق أعضاء الجمعية القديمة الجبال لينشئوا « الهيكل » ، تسلقها أعضاء الجمعية الجديدة ، ولكن ٠٠ لينشئوا محطة لاسلكية من أقوى محطات الاذاعة الأمريكية ، أخذت تذيع أطرف البرامج التى كانت تتخللها عبارات التحذير من « الخطر الأحمر » ، والدعاية للانضواء فى صفوف المحاربين عن « المملكة العليا » ، التى فتحت أبوابها لكل العناصر ، اللهم الا الزنوج ٠٠** حتى اليهود والكاثوليك منحوا حق الانضواء تحت لوائها ، ما دام الواحد منهم قادرا على دفع اثنى عشر دولارا ونصف ٠٠ كرسم للالتحاق !

أضواء النظام تبدد ظلام الفوضى !

◆ **وفى** تلك الأثناء كانت الجمعية الأخرى تنحدر بسرعة مخيفة ٠٠ لا سيما حين تولى منصب المدعى العام فى (بيتسبيرج) رجل قوى جرىء يدعى «د٠هـ٠طومسون»، أراد أن ينزل بها ضربة قاصمة ، فاعتقل زعيمها « هيرام وسلى ايفانس » ، ووجه اليه أقوى الاتهامات ، وحمله مسئولية حوادث القتل وحوادث الفتنة !

وانهار البناء الذى شيد على الكراهية والاضطهاد والوحشية٠٠ انهار ، وكان لانهياره دوى شديد ، فاذا السلطات القضائية فى الولايات تشغل بقضايا رعايا « الامبراطورية الخفية » ، واذا الموضوع يشغل « الكونجرس » فيعين لجنة للتحقيق فيه ٠٠

وتوارى جنود الظلام وفرسان الليل ، بعد أن فاضت أضواء القانون والنظام !

كتابى : ولكن هل اختفت « الكافات » الثلاث ، والصليب المشتعل فى دياجير الظلام الى الأبد ؟ ٠٠ هل انقرضت الـ « كو ـ كلوكس ـ كلان » الى غير رجعة ؟ ٠٠ الواقع أن العباءة السوداء و« الطرطور » الأبيض لا يزالان يظهران من وقت لآخر ـ

وان تباعدت أوقات ظهورهما - ولا سيما فى الضائقات والملمات . فهل من المحتمل أن تكون الجمعية الرهيبة باقية ، وان ثمة قيادة تحركها فى تلك الأوقات .. أو أنها مجرد محاولات فردية للعبث ، أو للارهاب ؟ هذا ما لا يستطيع أحد أن يقطع فيه برأى .. ولا السلطات الامريكية ذاتها !

وتبقى الحقيقة الثابتة ، وهى أن تاريخ الجمعيات السرية فى العالم كله ، وتاريخ الارهاب والاضطهاد العنصرى ، والاجرام بوجه عام ، لم يشهد أبشع من هذه الجمعية فى أى عصر من العصور !



مصر قبل ٥٠ عاماً

فصل شيق من الكتاب الذى وضعه الكاتب الشهير "بيير لوتى" بعد زيارته لمصر

تلخيص : كليم أبو سيف

الشرق ٠٠ فى مرآة الغرب !

◆ زار الكاتب الفرنسى المعروف « بيير لوتى » مصر منذ أكثر من ستين عاما ، فجاس خلالها ، ودرس أحوالها وأهلها ، ثم عاد الى بلاده فضمن دراساته كتابا ضخما أسماه « مصر » ، وأهداه الى صديقه الحميم « مصطفى كامل » الزعيم المصرى الخالد

ولما كانت مصر قد باتت محط أنظار العالم فى الأشهر الأخيرة ، فان « كتابى » ينتهز الفرصة فيقدم لك فصلا شائقا من هذا الكتاب ، كتبه المؤلف عن زيارته للجامع الأزهر بصحبة الزعيم المصرى ، وسوف تلمس خلاله عمق نظر « لوتى » فى دراسته ، اذ استطاع أن يلمس بوادر نهضة مصر وشعوب الشرق ، عندما أحست بمخالب الغرب الجشعة تغوص فى كيانها ، فطرحت عنها أحلامها الروحية التصوفية ، وهبت تخوض غمار الصراع فى ميدان الحضارة المادية التى سادت العالم !

مركز الاسلام

« طلب العلم فريضة على كل مسلم »
حديث نبوى

◆ **فى** شارع ضيق متوار فى أعماق أقدم حى عربى من أحياء القاهرة ، وفى قلب طريق متعرج كثير الانحناءات ـ يضل فيه السائر مالم يكن فى صحبته دليل ـ يقوم باب ضخم جميل ، يفضى بك الى فناء فسيح تغمره أشعة الشمس ٠٠ ويتألف هذا الباب من مصراعين مقوسين مزخرفين بالنقوش ، تعلوهما واجهة نقشت عليها آيات دينية بخط عربى زخرفى معقد

هذا هو مدخل الأزهر : مركز من أجل مراكز الاسلام ، تخرجت منه ـ خلال ألف عام تقريبا ـ أجيال متعاقبة من



بيير لوتى

رجال الدين والعلماء الموكلين بنشر الدعوة الاسلامية بين الأمم ، من المغرب الى بحر العرب، عبر الصحارى الشاسعة .

وقد شيد الخلفاء الفاطميون ، فى نهاية القرن العاشر الميلادى ، هذه المجموعة الضخمة من الأروقة والاعمدة ، التى أصبحت أعظم جامعة اسلامية فى العالم ، ومنذ ذلك التاريخ ، دأب الحكام المتعاقبون على الاضافة الى هذا الصرح وتوسيعه ، حتى جعلوا من الأزهر مدينة داخل عاصمتهم ، متمثلين فى ذلك بتعاليم النبى محمد ، اذ قال ان الباحث عن العلم أحب عند الله من المقاتل فى حرب دينية

« هنا .. الشرق العريق ! »

◆ **ووصلنا** الى الأزهر حوالى الساعة الحادية عشرة صباحا، والشمس حامية ، يكاد وهجها يخطف الأبصار . وكانت ثمة أصوات كثيرة تتجاوب مهمهمة فى الأروقة ، حيث كانت دروس الصباح مشرفة على الانتهاء . وما ان اجتزنا عتبة الباب الخارجى ذى المصراعين ، حتى ألفينا أنفسنا فى فناء رحب ، خال من الناس لشدة ماكانت الشمس تسكبه من شواظها . وفى نهاية الفناء ، قام المسجد ببابه المفتوح على مصراعيه ، وأقواسه التى لاتكاد تبدو لها نهاية ، اذ كانت تتعاقب فى تكرار متشابه ، حتى تغيب فى جوف المسجد المظلم البعيد الغور .. **وبهر أعيننا ماحفل به المكان من أفراد معممين ، وقد جلسوا**

متزاحمين ، بعضهم الى جوار بعض ، يرددون ـ أو بالأحرى ينشدون ـ فى صوت خفيض ووقت واحد ، عبارات مسجوعة تتجاوب أنغامها فى فضاء المكان

اولئك كانوا طلاب الأزهر العشرة آلاف ، الذين وفدوا من جميع أرجاء العالم ، ليتلقوا فيه تلك العلوم التى ظلت على حالها ـ على مر السنين ـ دون أن يطرأ عليها تحوير أو تعديل • واذ ألقيت عليهم نظرة شاملة ، تبينت أن من العسير على المرء أن يميزهم لأول وهلة ، فقد كانوا جالسين فى الظلال ، فى حين أننا كنا نقف فى الخارج ، ونور الشمس الوهاج يكاد يعشى أبصارنا ••

وكانوا موزعين على جماعات صغيرة تضم كل منها ما بين عشرة وعشرين شخصا ، جلسوا على الأرض فى انتباه ويقظة ، ملتفين حول استاذ وقور يتلقون الدرس عليه فى أدب وخشوع • وكم أدهشنا أن تقوى تلك الجماعات القابعة فى جوف المسجد على قراءة ماكان مدونا فى صفحات كتبهم بخطوط قديمة معقدة ، رغم ان النور كان لايكاد ينفذ اليهم !

وبقينا فى الخارج حتى لانقطع عليهم دروسهم ••

ان هذه الساحة (صحن الأزهر) التى كانت شمس الضحى تصليها بشواظ من أشعتها الحامية ، مكان ذو طابع عربى صميم رائع ، فما ان احتوتنا ، حتى أحسسنا بأنها قد عزلتنا فعلا عن العالم المحيط بنا •• فهى ساحة رحبة ، يحدها الجامع من جانب ، كما يحدها من الجانب المقابل جدار مرتفع يفصل الجامع عن العالم الخارجى فصلا تاما ! •• أما جدران المبنى ، فكان لونها يميل الى الحمرة ، وقد لوحتها شمس القرون العديدة الغابرة بسمرة مشوبة بحمرة •• وهى تستوى فى استقامة من أساسها حتى قممها المزركشة ، التى تتخللها ثغرات تحدها حواف من الحجر المدبب ، تبدو من ثناياها المآذن العديدة التى انتشرت هنا وهناك ، فى البقاع

القريبة من الأزهر

هنا الشرق العريق بطابعه الدينى . وانا لنلمس مدى تأثير هذا المكان الرائع المحوط بالغموض ، فى نفوس رجال الدين الشبان الذين يتلقون العلم فيه

المسلمون : بين الدنيا والدين

بلغ من اهتمام الاسلام بالعلم ، أن نقل عن نبيه أنه قال : « اذا مر بى يوم دون أن أتعلم شيئا يقربنى من الله ، فلا بارك الله فجر هذا اليوم »

◆ **كان** الذى قادنى الى هذا المكان ، هو صديقى مصطفى كامل باشا ، خطيب مصر ولسانها المعبر عن مشاعرها . وانى لمدين له بالمعاملة الممتازة التى لقيتها من رجال الأزهر .. فما ان وصلنا ، حتى نقل اسمانا الى الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر ، وهو شخصية عالية المقام فى الاسلام ، وكان مصطفى كامل من تلاميذه .. وقد أذن لنا فى الحال . وفى بهو عربى صميم ، لايضم من الأثاث سوى الأرائك ، رحب بنا الأستاذ الأكبر ، بتلك البساطة والبشاشة المألوفتين من النساك . وكان مظهره ، وكل أسارير وجهه ، تنم عن ثقل الأعباء التى يتولاها .. فهو المشرف على تعليم تلك الآلاف من العلماء الشبان الذين سيحملون العقيدة والطمأنينة والسكينة الى مايربو على ثلاثمائة مليون من الأنفس

ولم تنقض لحظات ، حتى استغرق مع مصطفى كامل فى نقاش نمت أساريرهما عن اهمية موضوعه ، اذ كان يدور حول الأحداث التى أعقبت موت النبى ، وحول الدور الذى قام به « على بن أبى طالب » .. **ولكم بدا الايمان المتغلغل فى نفس مصطفى ـ كمسلم ـ وهو الذى رأيته فى فرنسا فرنسيا كأى فرنسى قح ! .. هذه حال الغالبية العظمى من هؤلاء الشرقيين ، فانهم يبدون لنا ـ اذا ما التقينا بهم فى بلادنا ـ**

وكأنهم اصطبغوا بالصبغة الباريسية ، ولكن هذا الطـابع الحديث ليس فى الواقع سوى قشرة سطحية ، بينما تظل نفوسهم فى أعماقهم مسلمة أصيلة لاتشوبها شائبة ! ·· ومن هنـا نستطيع أن ندرك كيف أن رؤيتهم للاضطرابات ، والمتـاعب ، والقنوط ، والشقاء ـ التى نعانى منها فى نواحى حياتنـا الحديثة ـ تحملهم على التفكير والروية ، ثم العودة الى الحياة الوادعة التى يحلمون فيها بأجدادهم وماضيهم !

ذخائر الماضى البعيد

◆ **وريثما** تنتهي دروس الصباح ، رحنا نجوس خلال بعض الأجنحة الملحقة بالأزهر ، فاذا بها أروقة تمثل جميع العصور ـ وتقوم فى بعضها محاريب مزدانة بالنقوش ـ ومكتبات ، بعضها يلحق بعضا ، وكلها ذات سقوف من خشب الصنوبر ، موشاة بنقوش حفرت فى عصور كان الانسان يتمتع فيهـا بأوقات فراغ فسيحة ، وبكثير من الصبر والجلد ·· **وهناك ، كانت آلاف من المخطوطات التى يرجع تاريخهـا الى مئات السنين ، دون أن تبدو ـ فى الأزهر ـ غابرة ، بعيدة عن روح العصر** ·· وفى صناديق زجاجية ، كانت ثمة نسخ من القرآن لا تقدر بمال ، كتبت فى أزمان بعيدة · وفى مكان بارز ، كان ثمة منظار فلكى يستعان به فى رؤية هلال شهر رمضان !

كلها ذخائر من الماضى ·· والذى يدرس اليوم لطلبة الأزهر ، لا يكاد يختلف عما كان يدرس لأسلافهم فى عهد الفاطميين المجيد : القرآن وجميع تفسيراته ، والنحو والصرف والنطق والالقاء ، والشريعة ، والخط الذى مازال حبيبـا الى قلوب الشرقيين ، والشعر ، و ـ أخيرا ـ الرياضيات التى كان العرب أول مبتكريها ! ·· أجل ، كل هذه الذخائر من الماضى ، هى فى متناول طلاب هذه الجامعة التى يبلغ عمـرها ألف عام ·· ومع انهم قد يصبحون رجالا نادرى المثال ، الا انهم سيظلون

أولئك الحالمين الوادعين ذوى النفوس النبيلة المطمئنة ، الذين يخطون على مهل وهم آمنون فى ذلك المعقل الذى يقيهم دوار الدوامة التى تعصف بنا معشر الغربيين !

سر احتفاظ الاسلام بتماسكه وسلطانه

« اطلبوا العلم ولو فى الصين »
حديث نبوى

◆ **وانتهت** دروس الصباح ، فأصبح فى وسعنا أن نزور المسجد ، دون أن نزعج أحدا . واذ عدنا الى الفناء ذى الجدران الحصينة ، كانت ساعة الترويح قد حانت لذلك الحشد من الشبان ذوى العمم والقفاطين ، الذين برزوا من الظلال التى كانت تخيم داخل المسجد .. لقد مكثوا منذ الصباح الباكر جلوسا على حصائرهم ، مستغرقين فى الدرس والصلاة ، وسط الهمهمة اللجبة التى كانت آلاف الأصوات تؤلفها .. وهاهم أولاء الآن ينتشرون فى الأحياء العربية المجاورة ، حتى يحين وقت دروس المساء .. **يسيرون فى فرق ، ويمسك بعضهم بأيدى بعض – أحيانا – كالأطفال .. وقد رفع معظمهم الرؤوس عالية ، وتطلعوا بأعينهم الى السماء ، رغم ان الشمس التى استقبلتهم خارج الجامع كانت باهرة الضياء !** .. وكانوا فى مرورهم بنا يبدون وجوها متباينة كل التباين .. فهم يفدون من كافة أرجاء الأرض : بعضهم من بغداد ، والبعض من الشام ، ومن الموصل ، بل ومن أعماق الحجاز . أما الوافدون من الشمال ، فلهم عيون لامعة صافية . وبين القادمين من المغرب – من مراكش والصحراء الكبرى – كثيرون يغلب اللون الاسود على بشرتهم . ولكن وجوههم جميعا كانت تحمل تعبيرا واحدا : شىء من التصوف والترفع يرين عليها كلها .. نفس الاستغراق فى نفس الحلم !

واذ رحنا نتأمل كل هؤلاء العلماء والفقهاء الشبان وهم يمرون بنا ، فى اختلافهم وتشابههم معا ، أدركنا أكثر من ذى قبل كيف ان الاسلام ٠٠ الاسلام القديم ، العريق ، يحتفظ بتماسكه وسلطانه !

واصبح المسجد ـ الذى كانوا يتلقون فيه دروسهم ـ خاويا تقريبا ، يخيم عليه الصمت الذى لا تتخلله سوى موسيقى العصافير غير المرتقبة ٠٠

هل مات الايمان فى قلوب البشر ؟!

◆ **كان** هذا المسجد دنيا يستطيع آلاف الناس أن يجدوا لأنفسهم فى رحابها مكانا ٠٠ فهناك حوالى مائة وخمسين عامودا من الرخام التى اجتلبت من المعابد القديمة ، تحمل أقواس الأروقة السبعة المتوازية ٠٠ وليس هناك من ضوء سوى ذاك الذى ينفذ من الردهة المسقوفة المفضية الى صحن الجامع ٠٠ وتشتد العتمة فى الأروقة القصوى ، حتى اننا لنعجب كيف يستطيع الأتقياء أن يقرأوا فيها عندما تكون شمس مصر محتجبة وراء الغيوم

والاقامة فى الجامعة الأزهرية مباحة دون مقابل لجميع الطلاب ، اذ أن نفقات تعليمهم ومعيشتهم مكفولة بهبات يقدمها الأتقياء المحسنون ٠٠ على أنه لما كانت بعض هذه الهبات تقصر على المنتمين لجنسية مقدميها ، كان لابد من وجود بعض الفوارق بين الطلاب ، ومن ثم فقد نجد أبناء أحد البلدان فى ثراء تقريبا ، فى حين لا يكاد أبناء بلد آخر يجدون سوى ما يكفى لصون أجسادهم ونفوسهم ٠٠ **ولكن أحدا لا يشكو نصيبه ، بل انهم يعرفون كيف يساعد بعضهم بعضا !**

وفى أحد الأروقة القصية المعتمة ، جلس واحد من الطلبة على حصير ، وفتح مصحفه ، وشرع يقرأ بصوت مرتفع ، وبالترتيل المعهود ٠٠ وكان صوته رخيما ، منطلقا ، يشوبه

وقار التقوى ، ويمتاز بسحر أخاذ وهو يتردد فى جنبات الجامع العتيق ٠٠ **ان الذين اطلعوا على ما أطلعت عليه من معالم الاسلام وأقداسه ، يدركون أنه لا يوجد هناك ما يماثل القرآن فى روعة قوافيه وسجعه وقابليته للترتيل ٠٠ وحتى اذا فاتك منه المعنى ، فان الترتيل ـ وهو مادة من مواد الدراسة ـ يستهوى نفسك بسحر نغمه ٠٠** وهكذا راح ذلك الفقيه الشاب ذو الوجه الحالم ، والثوب الذى يشى بالفقر المدقع ٠٠ راح الشاب يرتل القرآن ، وصوته يرتفع وينخفض ـ كالأغنية الحزينة ـ ويسرى ويعلوا رويدا رويدا ، حتى بدا وكأنه يملأ أروقة الأزهر السبعة الخالية !

وتوقفنا على الرغم منا ، ورحنا ننصت وسط الصمت الذى خيم فى الظهيرة ٠٠ وفى ذلك المكان المقدس ، حيث تبدى أثر السنين وفعل القرون فى كل جانب ـ حتى ان الأعمدة الرخامية تآكلت من احتكاك الأيدى المستمر ـ بدا ذلك الصوت الذهبى ، الذى ارتفع وحيدا وسط السكون ، وكأنه الناعى يرثى موت الايمان فى قلوب البشر قاطبة !

دفاع عن الاسلام

◆ **من** الشائع بيننا ـ معشر الأوروبيين ـ ان الاسلام دين الظلمات والجمود ، وانه يجلب على الأمم فى ركابه الركود والتخلف ، فيعرقلها عن السعى الى المجهول الذى ندعوه « التقدم » ٠ على ان هذا المسلك من جانبنا لايدل على جهل مطبق بتعاليم النبى محمد فحسب ، وانما يدل على نسيان أعمى لحقائق التاريخ ٠ فان الاسلام فى قرونه الأولىساير الأمم وتقدم معها ، وكانت الحوافز التى بثها فى نفوس الناس ـ فى عهود الخلفاء الراشدين ـ فوق كل شك او جدال ٠ **فمن الخطل أن نعزو اليه التأخر الذى أصاب العالم الاسلامى ٠٠ والحقيقة هى ان للأمم أعمارا وآجالا ، ولابد من ان تعقب كل فترة**

تألق ومجد ، فترة تراخ ونعاس . هذا حكم الطبيعة ! .. ثم لايلبث أن يهدد الأمة الناعســـة خطر ما ـ ذات يوم ـ فيهزها من سباتها ، ويوقظها !

ولقد كان هذا الجمود الذى ران على دول الهلال حبيبا الى نفسى يوما .. فاننا اذا سلمنا بأن خير نهاية هى أن تجتاز الحياة بأقل عناء ، مزدرياكل كفاح غايته بهرج الدنيا وزخرفها ، ومستغرقا فى آمال روحية مشرقة .. آذا سلمنا بهذا ، كان الشرقيون وحدهم هم الحكماء العاقلون . **على أن الأمم الجشعة أخذت اليوم تحيط بهم من كل جانب ، فلم يعد الاستغراق فى الأحلام ميسورا .. ولابد لهم ـ واأسفاه ! ـ من ان يستيقظوا !**

.. يجب ان يستيقظوا ، بل ان يقظتهم جد وشيكة .. فهنا ـ فى مصر ـ أصبحت الحاجة الى تغيير كثير من الأشياء ، ملموسة . ومن المزمع أيضا اصلاح الأزهر بوصفه مركزا من مراكز الاسلام الرئيسية . وان المرء ليفكر فى هذا مشفقا ، لما يدركه من خطر التدخل فى شئون المعاهد التى قدر لها ان تعيش ألف عام . على ان الاصلاح أمر قد تقرر ، من حيث المبدأ . وتسربت المعرفة الحديثة ـ المستجلبة من الغرب ـ الى هذا المسجد الفاطمى . ألم يقل النبى : « اطلبوا العلم ولو فى الصين» !



تلخيص : صلاح الدين الشريف

مدن ٠٠ حققت النصر لأوطانها !

◆ فى الوقت الذى يسجل فيه التاريخ - بأقلام كتاب الشرق والغرب على السواء - بسالة بور سعيد وبطولتها فى صد الغزاة المستعمرين ، تعود بنا الذاكرة الى مواقف مشابهة ، لمدن أخرى ، كان لها الفضل فى كسب معارك النصر لاوطانها ، وفى دحر عناصر الاستعمار البغيض ٠٠ وفى مقدمة هذه المدن ، نذكر (موسكو) وموقفها البطولى الرائع فى بداية القرن التاسع عشر ، حين زين الغرور والجشع لنابليون بونابرت أن يغزو روسيا ليسخرها - كما سخر باقى أوربا - فى تحقيق نزواته وأطماعه ٠٠ وقد كان لموقف موسكو المشرف فضل الاجهاز على أسطورة « الامبراطور الذى لا يقهر » !

ومما يضاعف طرافة الكتاب الذى نلخصه ، أن الذى وضعه هو « فيليب دى سيجور » حفيدمارشال فرنساووزير حربيتها فى عهد لويس السادس عشر ٠٠ فقد كان « سيجور » ياورا ومرافقا لنابليون فى الحملة الروسية ، مما أتاح له أن يعيش فى خضم المعركة ، وفى خضم المشاعر والافكار التى كانت تصطخب فى صدر نابليون ورأسه ٠ ولم يستطع « سيجور » - رغم أنه كان ضابطا فى الجيش الفرنسى - أن يخفى أو يشوه مواقف البطولة الرائعة التى قابل بها الروس عدوان المغامر الكورسيكى الطموح !

نحو انشاء امبراطورية ٠٠ لولى العهد !

◆ **كانت** طلقات المدافع المتواصلة - فى دوى يصم الآذان - تختلط بدقات أجراس الكنائس والكاتدرائيات فى باريس ، وقد انطلقت جلجلتها المرحة فى الفضاء المشحون بالغيوم ، وكأنها تحاول مع هزيم المدافع تبديد تلك الغيوم قبل أن تزف الى العالم فرحة الامبراطور ، وفرحة فرنسا معه ،

بمولد ولى عهد لهذه الامبراطورية الضخمة التى أقامها نابليون بحد السيف ، ثم قدر له أن يخسرها ـ بعد مولد ولى العهد بأربعة أعوام ـ بحد السيف أيضا !

كان ذلك فى صباح اليوم العشرين من شهر مارس سنة ١٨١١ •• ووقف الامبراطور فى احدى قاعات قصر «التويلرى» وراح ينصت الى هدير الأمواج البشرية المهللة فى الخارج ، وقد احتضن وليده وأخذ يناجيه ـ وكأنما كان يناجى نفسه ويمنيها بما كان يراوده من آمال وأحلام : « **سأجلسك يوما على عرش العالم •• سأتوجك ملكا على روما التى كانت يوما سيدة العالم ! لقد استسلمت اسبانيا أخيرا لجيوشى ، وانضمت هولندا وبلجيكا ومدن (برمن) و (هامبورج) و (لوبيك) الى لوائى •• كلها خضعت لحكمى راضية طائعة •• بل اننى قلمت أظفار « البابا » نفسه ، وأنزلته من علياء سلطانه ، وضممت دولته الى امبراطوريتى ! »**

ولكن خاطرا أسود تسلل الى أفكار الامبراطور المرحة •• فزفر فى نقمة وهتف : « ومع ذلك ، فلا تزال تلك العجوز الشمطاء (انجلترا) تتحدى سلطانى ، وتناصبنى العداء السافر ، وتحيك لى أقذر المؤامرات •• لسوف أذيقها وطأة الجوع ، وأعلم شعبها معنى المسغبة •• سأشدد الحصار على موانىء القارة وثغورها ، فلا يتسرب مثقال درهم من خيرات أوربا الى هذه الجزيرة التافهة •• ولسوف تبور تجارتها ، ولن يطول بى الوقت حتى أراها جاثية عند قدمى تطلب الرحمة ! »

غيوم فى سماء الامبراطور !

◆ **كانت** أوربا بأسرها ـ من أقصى الاطلنطى الى أقصى تخوم روسيا ـ تخضع لسلطان نابليون وتخشى بأسه فى ذلك الحين •• وغدت القارة بدولها وشعوبها وخيراتها ومواردها

ومواقعها الاستراتيجية ، مجرد « آلة ضخمة » ، متشابكة الاجزاء والتروس ، ينبغى أن لا يختل جزء منها – ولو كان أصغرها – حتى لا يضطرب سيرها أو يتوقف لحظة قد تكون كافية لتهديدمصير الامبراطورية، كمارسمها حاكمها وسيدها!

وكانت روسيا خليقة بأن تكون الجزء الأكبر ، أو « الترس » الأضخم فى هذه الآلة · ولقد كان نابليون – المهندس الذى توفر على صنع هذه الآلة وادارتها – يعول كثيرا على دور هذا « الترس » فى حرب الحصار الاقتصادى الذى فرضه على عدوته اللدود (انجلترا) ليذلها ، ويجبرها على أن تستسلم له بغير قيد ولا شرط

وراح نابليون ينعم بحياة حافلة بالمباهج ، مع زوجته الجديدة « مارى لويز » ، وولى العهد ، مطمئنا الى ما كان يتدفق عليه من سفرائه وأعوانه وجواسيسه المنبثين فى أرجاء القارة الأوربية ، من تقارير ورسائل مستفيضة عن نجاح الحصار الاقتصادى ، وقرب انهيار عدوته واستسلامها

ولكن صفاء سمائه لم يلبث أن تعكر ، اذ بدأت التقارير تتحفظ فى تفاؤلها · واكتشفت عينا الأمبراطور الثاقبتان غيوما تنذر بالشكوك ، بين سطور تلك الرسائل والتقارير ·· ثم لم يلبث هذا التحفظ المتردد ، المحجم ، أن تكشف عن حقائق مروعة لم تكن يوما فى حسبانه ·· وانتبه نابليون من نشوة السعادة ، اذ تبين أن صرح الحصار الاقتصادى الذى بذل فى اقامته جهودا خارقة ، قد بدأ يتصدع فى ناحية من أخطر نواحيه ·· **ناحية روسيا ، التى لم يكن مداد صلحه وتحالفه معها – فى (تيلسيت) – قد جف بعد !**

والواقع أن روسيا بدأت تضيق بحصار لم تجد له مبررا كافيا ، فلم تلبث أن تجرأت ذات يوم ، وفتحت موانيها القائمة على البحر الأسود للتجارة الانجليزية · · واذا صادرات انجلترا تسرى فى القارة ، حتى تصل الى قلب فرنسا نفسها !

دراسات وتمهيدات لأكبر غزوة فى التاريخ

◆ **وهاج** نابليون وماج ، وأرعد وأبرق ، وأمطر القيصر اسكندر الروسى بتحذيراته ، وترغيباته ، وأخذ يذكره بشروط الصلح وبنوده ٠٠ ولكن القيصر الروسى أصم أذنيه ، وقد أيقن أن هذه الصيحات ليست سوى هذيان متهوس أصيب بجنون العظمة ، فهو يستحل فى سبيل مجده العسكرى اجاعة شعوب بأسرها ، وسفك دماء الجيوش ليروى شهواته ومطامعه التى لا تنقطع !

وحين أفلست كل حيلة ، أعلن نابليون لخاصة رجاله وقادته أنه قرر أن يدع للسيف حق الفصل فى هذه الخصومة !٠٠

وقضى ستة أشهر بطولها وهو غارق فى خضم من المراجع والمؤلفات والتقارير والخرائط التى تصور طبيعة البلاد الروسية و « طبوغرافيتها » ومواقعها الاستراتيجية ، وخصائص شعبها ٠٠ راسما الخطط العسكرية منقحا اياها المرة تلو المرة ، تمهيدا لرسم « الخطة الكبرى » على خريطة الطبيعة حين تنشب أعنف حرب عرفتها أوربا فى تاريخها الحديث ٠٠ بالنسبة لذلك العصر على الأقل !

ولم يشأ أن يقنع بكل ما قرأ وطالع ، فعهد الى وزير خارجيته الداهية « تاليران » بتنظيم فرق من البوليس السرى يبث رجالها فى الأراضى التى يتكلم أبناؤها اللغة الروسية ـ كحدود بولندا الشمالية والشرقية ، وكلتوانيا وليفونيا وأوكرانيا ـ لجمع مزيد من الحقائق والبيانات التى يستنير بها ٠٠

القدر يسوق نابليون نحو مصير مجهول !

◆ **والواقع** أن الأمبراطور اتخذ الخطوات والتدابير محاولا أن لا يدع للفشل منفذا يتسلل خلاله الى المشروع ٠٠ وبعد أن كانت الفكرة تبدو لأعوان الامبراطور وأركان حربه ضربا من

المستحيل ، استطاع نابليون ـ بدهائه وسحر منطقه وقوة شخصيته ـ أن يقنع معارضيه بأن لا مستحيل على الارض ٠٠ **وأن الجيش الفرنسى لن يحتاج الى دخول موسكو ذاتها ، لأن القيصر سيبادر الى طلب الصلح بمجرد سقوط معاقله الأمامية فى (فيلنا) و (ليبوتسك)** ٠٠ وكان الغرور والطمع يستخفانه أحيانا الى مشروعات « خيالية » : فهو لن يقنع بسقوط روسيا وخضوعها لسلطانه ، بل انه سينحدر عن طريق القوقاز الى فارس ، فالى الهند ـ درة التاج البريطانى ـ حيث يوجه لعدوته العتيدة (انجلترا) ، ضربة قاصمة ، قاضية !

وحرص نابليون على أن يقنع بالتهديد من لم يقتنع بالحجة من معارضيه ٠ وكانت ثمة عوامل أربعة تلح على تفكيره وتتعجله تنفيذ مشروعه العسكرى الضخم : أولها ، وجود جيش « عملاق » كامل العدة والعتاد ، متأهب للانطلاق عند أول اشارة ٠٠ وثانيها ، حاجته الماسة الى موجة جديدة من الدعاية الجبارة لشخصه وسياسته ، بعد أن بدأت رؤوس أعدائه تطل من أوكارها فى أسبانيا وروسيا وبروسيا ٠٠ وثالثها ، طموحه الهائل الجامح ، الذى كان يدفع به الى ركوب أخشن مركب يرضى كبرياء مغامر طموح ٠٠ **أما رابع العوامل ، فكان ذلك الواعز الخفى الذى كان يحس بأنه يسوقه سوقا ـ لاهوادة فيه ـ الى مصيره ، دون أن يقوى على مقاومته** ٠٠ حتى انه كثيرا ماردد على مسامع خاصته : « اننى أشعر بأننى مسوق دائما صوب هدف هائل لا أدرى كنهه ، ولا أستطيع أن أبصره بعينى ٠٠ لعله قدرى الذى لا أملك منه فكاكا ! »

النساء والمهرجون ٠٠ مع الجيش !

◆ **والحق** الذى لا جدال فيه ، هو أن الاستعدادات للحرب كانت تفوق كل وصف ، فلم تنقض الأشهر الستة التى استكمل فيها نابليون دراساته وخططه ، حتى كان جيش

الغزو مهيأ ، وقد تألف من نصف مليون رجل ، دربوا خير تدريب ، وجهزوا بأكمل عتاد .. وكانوا رمزا حيا للامبراطورية فى عنفوان فتوتها ، اذ انضمت الى الفصائل الفرنسية فيه فصائل من دويلات شرقى الرين ، ومحاربون من هولندا وايطاليا وكرواتيا واسبانيا وسويسرا والبرتغال وبولندا والمجر ولتوانيا !

وزودت الحكومة الأمبراطورية هذا الجيش اللجب بكل وسائل المواصلات البرية التي كانت معروفة فى ذلك العهد ، كما عنى الامبراطور بتجهيز فرق من المهندسين لبناء الجسور المتنقلة، واقامة الاستحكامات السريعة . وهكذا لم يفت نابليون ولا أعوانه من خبراء الحرب شيء من حاجة الجيش فى هذه الغزوة الهائلة ، حتى أصبح المشروع أقرب ما يكون الى حركة من حركات الهجرة الجماعية صوب آسيا الحافلة بالكنوز والخيرات. واكتملت هذه الحركة حين تأهبت للسير فى ركب الغزاة جموع هائلة من النسوة والطهاة والمهرجين !

السفير الفرنسى ينذر .. والامبراطور يسخر !

◆ **وكانت** عيناى ـ طيلة هذه اللحظات التاريخية الخطيرة فى تاريخ فرنسا ، وأوربا بأسرها ـ لا تغفلان ملاحظة الامبراطور ، محاولتين أن تستشفا خلال أساريره الهادئة ، الجامدة ، حقيقة المشاعر التى كانت تعتلج فى صدره ، والافكار التى كانت تتطاحن فى جمجمته .. وكان يروعنى منه خلال النشاط المحموم ـ فى القصر ومقر القيادة ووزارة الحربية وكافة الوزارات ـ ذلك الانتباه الفذ لكل صغيرة وكبيرة من شئون الحملة ، وتلك اللماحية الخارقة للعادة التى ظلت توحى اليه بالتعديلات ، يدخلها على خطته فى اقبال الهاوى المشغوف على هوايته !

وعرف الامبراطور من مصادره السرية أن ملك بروسيا

أكد للقيصر نواياه الطيبة ، وتأهبه لانتهاز أول بادرة تسنح له كى يتخلص من قيود المعاهدة المجحفة التى كبله نابليون بها، فيمد الى روسيا يد العون .. وكذلك فعل الداهية النمسوى « ميترنيخ » !

وقبيل تحرك الغزاة ، وصلت من السفير الفرنسى فى روسيا رسالة سرية حذر فيها الامبراطور من مؤامرات تحاك فى (سان بطرسبورج) بين بروسيا والنمسا وروسيا ، هدفها القضاء النهائى على قوة فرنسا العسكرية فى برارى روسيا الجليدية !
.. وسخر الامبراطور حين قرأ ما كتبه سفيره من أن خطة القيصر ـ كما نميت اليه من أوثق المصادر ـ تتمثل فى عدم الالتحام بالجيوش الفرنسية فى أية موقعة فاصلة ، والانسحاب المنتظم أمام الغزاة لاستدراجهم الى جوف البلاد ، ثم توجيه الضربة القاضية اليهم !

الأمطار والعواصف .. خط الدفاع الأول !

◆ **لم** يعلق نابليون أية أهمية على رسالة سفيره .. وقد تجلى لنا ـ فيما بعد ـ أن رجل الأقدار الذى كان يتحرك بدافع قوة خفية الى مصيره ، قد انساق فى هذه المرة حقا وراء قدره ، الى نهايته ، دون أن تجديه نفعا كل البطولات الخارقة ، والتضحيات الجسيمة التى بذلها جنوده وضباطه عن طيب خاطر ، وتحت دفع حماس مشبوب لا نظير له !

وفى فجر العاشر من يونيو سنة ١٨١١ ، أصدر الامبراطور أوامره ، فاذا الجيش العملاق يجتاز آخر حدود فرنسا ، منطلقا فى سرعة صوب الشرق .. **وخيل الينا أن الدوى والضجيج المنبعثين من عجلات العربات والمدفعية ، ودقات أحذية المشاة الثقيلة ، ووقع سنابك الخيل ، ونداءات الضباط .. خيل الينا أن هذا الضجيج وذلك الدوى يترددان فى فضاء أوربا الخائفة المرتجفة ، منذرا بأهوال وشيكة الوقوع !**

وعندما ظهرت فى الأفق بداية معالم الحدود الروسية من ناحية بولندا ، فاجأتنا الأمطار الغزيرة بهطولها المستمر بدرجة غير معهودة ، حتى أحالت الأرض تحت عجلات المدفعية الثقيلة الى طبقة طينية رخوة ، تتخللها البرك والمزالق ، مما جعل تحرك وحدات المدفعية ، وعربات الذخيرة والمؤن المشحونة الى أقصى حمولتها ، أمرا شاقا يتطلب حذرا ومهارة وصبرا ٠٠ وكانت العواصف تهب من الشرق والشمال الشرقى محملة برذاذ الماء ، فتسوط به الخيل والبغال والثيران التى راحت تصهل وتخور فى جلبة مزعجة أوحت الى ذوى الأحاسيس المرهفة بأنها نذر شؤم يوشك أن ينصب على رؤوسنا جميعا !

خطأ الامبراطور يتيح للعدو فرصة تعديل خططه

◆ **وأخذ** كبار القادة يعتصرون أدمغتهم فى دراسة تفصيلات الخطط المرسومة ، ومطابقتها على الطبيعة التى بدأوا يواجهونها ، وقد شفت سحنهم الجامدة عن قلق كانوا يجاهدون فى سبيل كبته ٠٠ **أما الامبراطور فكان أهدأ ما يكون نفسا ، وأصفى ما يكون ذهنا ، يكثر من مطالعة الكتب والصحف والتقارير ، ويوزع الفكاهات على مرافقيه وكبار ضباطه ، ويلتهم الوجبات مع النبيذ المعتق بشهية كنا نحسده عليها !**

وعاد الامبراطور فأصدر أمره ــ فى صبيحة يوم ٢٣ يونيو ــ بعبور نهر (نيمن) عند بقعة تقع جنوبى بلدة (كوفنو) ، فكانت هذه هى النقطة الحاسمة التى بدأ منها أضخم غزو عرفته أوربا بعد غزو « الهون » ! ٠٠ وراحت فرق المهندسين تقيم الجسور عبر النهر ، بينما انتظم الجنود والضباط فى مشهد رائع ٠٠ وأشرف الامبراطور من فوق جواده الأدهم ــ وحوله كوكبة من أركان حربه ــ على عبور جحافله بعتادها وذخائرها ٠ حتى اذا تم العبور فى ساعات قلائل ، اندفع جنود القلب يحف بهم ــ عن بعد ــ الجناحان على شكل مروحة ، صوب

(فيلنا) التى ظلت المدفعيـــة الثقيلة تصليهـا نارا حاميــة متواصلة ، حتى استسلمت رغم كثرة جنود حاميتها ٠٠ وسقط هذا الموقع بحصونه واستحكاماته ومخازن ذخائره ، فى أقل من خمسة أيام ، كان القتال خلالها مريرا ، حامى الوطيس

ووافتنا الانباء بمدى هلع رجال القيصر لسقوط هذا الموقع الحصين بسرعة ، فآثر نابليون أن يتريث ، عسى أن يأتيـه القيصر طالبا الصفح ٠٠ **ويبدو أن الانتظـــار أفاد الروس ، اذ أتاح لهم فرصة تعديل خططهم ٠٠** فقد أثبتت لنا الأيام التى تلت ذلك ان نظرية القيصر ـ عن التقهقر المنتظم ـ تغلبت فى تلك الايام السبعة التى تريثها الامبراطور على كل رأى معارض من قادته ٠٠ ومن ثم فان انتظار نابليون لم يؤت أية ثمرة ، ولم يعد هناك مفر من مواصلة التقدم فى جبهة أخذت تتسع أمام أعيننا اتساعا مخيفا !

القوات الفرنسية بين الطبيعة والقناصة !

◆ **وأصدر** الامبراطور أوامره ـ وهو ساخط ـ بالتقـــدم السريع نحو (فيتبسك) ، التى تبعد مائتى ميل عن (فيلنا) ٠ ولكن التقدم فى هذه المرة لم يكن بالسهولة التى صادفناها فى المرة السابقة ، اذ ازداد هطول الأمطار شدة ، بل استحال الى سيول مروعة ، كبدت قواتنا جهودا مضاعفة ٠ **فقد أصـبح على جنودنا ـ الى جانب ماكان يثقل عواتقهم من أغطية ومعدات وسلاح ـ عبء دفع المدفعية الثقيلة وعربات الذخيرة ، التى أعيا الجياد والبغال جرها فوق الأرض الرخوة الموحلة ٠٠** وكانت الدواب تصهل فى هياج جنونى ، وتدق الأرض بقوائمها فى عنف ، ثم تحرن فلا يعود من سبيل الى تهدئتها أو دفعهـــا الى السير ٠ أما الثيران الاسبانية والسويسرية ، فقـــد أخذت تسقط بالعشرات اعياء ، ثم تموت قبل أن تتدارك رقابهـــا السكاكين للانتفاع بها فى تغذية الجيش

وفى غمرة هذا الصراع المرير مع الطبيعة ، أخـذت جموع القناصة تخرج علينا من الغابات والمستنقعات ، فتستدرج بعض وحداتنا بعيدا عن مراكز قواتها الرئيسية ، لتوقعها فى الكمائن والشراك ! .. وتلاحقت أوامر الامبراطور مشددة بعدم الايغال فى تتبع القناصة الى مسافات بعيدة .. وظل الكفـاح ناشبا على أشده ضد الأمطار والقناصة .. والحق أن جنودنا وضباطنا كانوا يحاربون - رغم هذه العـوامل المثبطة - حربا عنيفة ، عنيدة ، لا هوادة فيها ولا رحمة !

خلاف بين نابليون وقادة جيشه

◆ **وعندما** جن الليل ، وضربنا خيامنا فى الغابات ، أخذنا نحصى خسائرنا على وجه السرعة ، فتبينا أن كل ميل اجتزناه قد كبدنا ستمائة رجل ، فضلا عن الثيران والخيل والبغال !

أما الامبراطور ، فكان فى أشد حالات الهيـاج والغضـب عندما أوى الى خيمته الدافئة .. ولم يطمئن له مضـجع طول الليل ، بل ظل أرقا مسهدا ، حتى لقد طالعنـا فى الصـباح بعينين مقرحتين .. **بيد أنه لم يلبث أن استعاد هدوءه وصفاء قريحته اذ عقد العزم على أن يخلق من الاضطراب والفوضى غير المتوقعين ، طاعة ونظاما وتحمسا للثبات أمام العوائق والصعاب**

وأطلع نابليون قادته على خطته الجديدة ، التى كانت تقضى بسرعة الزحف فى حركة التفاف متناسقة الى (سمولنسك) .

وهنا ارتفع رويدا لغط القادة ، ثم اشتد الجدل بينه وبينهم ، اذ كانوا يرون أن الجيش فى حاجة الى اسـتجمام وتنظـيم ، ريثما يتم استطلاع الطريق الذى سيسلكه فى تقدمه خـلال الغابات .. فضلا عن أن الأمطار والرياح العنيفة كانت سادرة فى مهاجمتنا

ولاحظت أن الامبراطور لم يلبث أن عجز عن كبح الثـورة التى كانت تضطرم فى صدره ، فانتفض أخيرا واقفا ، وضرب

النضد بقبضة يده ، صائحا : « **لقد جعلت من أعوانى رجالا أثرياء مترفين ، أكثر مما ينبغى ، فلم يعودوا يفكرون فى غير الراحة والمتعة ، ورحلات الصيد ، ووصال الغانيات فى غابات باريس وضواحيها ! ٠٠ وا أسفاه ! حتى مورا و ناى وبرتييه و دارو أصبحوا يضيقون ذرعا بحرفة الحرب ، ولم يعودوا يصلحون الا للجلوس بجوار المدافىء فى بيوتهم !** »

ولم ينبس القادة ببنت شفة ٠٠ أما الامبراطور ، فرحل غاضبا الى بلدة (فيلنيف) ـ على الحدود البولندية ـ حيث قضى أياما ريثما تهدأ ثورته !

انجلترا تعقد محالفة مع القيصر

◆ **ولكن** غضبه لم ينفثىء ، اذ لاحقته الانباء عن سوء الأحوال فى اسبانيا ٠٠ ولم يجد بدا فى النهاية من العودة الى الجيش ، ومصالحة قادته ، لاستئناف الزحف والقتال

وانقضى شهر يوليو بتمامه دون أن ترد كلمة من القيصر توحى بأمل فى الصلح ، فجعل الامبراطور وقادته يفكرون فى الظروف المحيطة بهم : النقص المستمر فى المؤن والاغذية ، والهجوم المطرد من القناصة ، وغياب جيش العدو عن أعيننا حتى الآن ٠٠ ولم يكن ثمة بد من أن يندفع الجيش «العملاق» نحو (سمولنسك) ٠٠ **وعلى الأفق المحيط بمشارفها ، تراءى لنا فرسان القوزاق بثيابهم التقليدية ، حاملين بنادقهم وسيوفهم ، وهم يرصدون حركاتنا ٠٠ وكانوا يقتربون منا فى حذر شديد ، حتى اذا أشبعوا أعينهم من منظرنا ، انثنوا راجعين، مطلقين لخيولهم الأعنة !**

وما لبثت بعض وحداتنا أن اشتبكت فى قتال عنيف مع بعض فرق الحرس الوطنى الروسى ، فلم تنقض ساعات حتى انسحب الروس شرقا ، بعد أن أضرموا النيران فى المدينة ، وجردوها من أقواتها ، وتركوها لا تكادتصلح لسكنى انسان !

ومن الطبيعى أننا حنقنا عليهم · ولكن غضب الامبراطور كان أشد وأعتى ، اذ كانت الظروف تدعوه الى انتزاع نصر حاسم بأى ثمن ، وفى أقصر وقت · فقد نمى الينا أن العدوة المدود (انجلترا) وقعت معاهدة تحالف مع القيصر لتبادل المعونة ·· ولكن ، أنى للامبراطور النصر المنشود ، والجيش الروسى لم يظهر أمامنا بعد ؟

أنباء للشعب ·· وأنباء للتاريخ

◆ **وبدأ** كبار القادة يتهامسون ـ فيما بينهم ـ بما جاء فى تقارير السفير الفرنسى فى (سان بطرسبورج) عن خطة القيصر · وساورهم هاجس بأن فى الأمر خدعة كبيرة ستكلف الجيش كثيرا ، لا سيما وأن أشهر الصيف ولت ، وبدأت طلائع الخريف تهاجمنا ، وبات أى تأخر فى الزحف يهددنا بأخطار يعجز العقل عن تصورها !

والواقع أن الاستيلاء على (سمولنسك) كبدنا نيفا وتسعة آلاف جندى ، بين قتيل وجريح ! وفى غداة دخولنا المدينة ـ التى كانت طعمة للنيران المسعورة ـ استدعانى الامبراطور ، وأملى على رسالة عاجلة وجهها الى مجلس الشيوخ ومجلس الوزراء فى فرنسا ، زعم فيها أن المدينة سقطت فى ايدينا دون اية خسارة ·· واذ لمح أمارات الدهشة على محياى ، صاح منفعلا: « **لا تعجب يادى سيجور ، فان هناك نوعين من الأنباء : انباء للشعب ، كى ترفع معنويته فيزداد حماسا ويمدنا بالرجال والسلاح ·· وأنباء لسجلات الجيش ، أو للتاريخ ، على السواء !** »

وفى اليوم التالى ـ ٢٥ أغسطس ـ أمر الأمبراطور بالزحف صوب (موسكو) دون تلكؤ · وكانت عاصمة القياصرة ـ مدينة الكنائس والكاتدرائيات الفخمة والقصور المذهبة والكرملين العملاق ـ تبعد بأكثر من مائتى ميل ! ·· وعلى

الرغم من الاعياء الذى كان يبدو واضحا على الجنود ،فان الجيش لم يفقد روحه المعنوية ، اذ كان وجود الامبراطور وسط صفوفه يبث فيه قوة روحية خارقة مكنته من مواجهة عواصف الخريف العاتية بصبر وجلد !

شياطين ٠٠ على الجليد !

◆ **ولكن** الموقف لم يلبث أن تبدل تبدلا تاما ، اذ بكر الشتاء فى الهجوم - مع طلائع سبتمبر - وامتدت أمام الجموع الزاحفة - فى عناد - مساحات رهيبة من الجليد ، عارية تماما من كل تضاريس طبيعية أو صناعية تحميها من غوائل العواصف الثلجية ٠ حقا ، لقد بدأت خطة الروس تتضح أمام أعيننا الدامعة من لفح البرد ! ٠٠ **واشتدت الحال سوءا بازدياد انهمار الثلوج ، وتوالت هجمات القوزاق ٠٠ كانوا كالشياطين التى أطلقت فجأة من قماقمها ، فراحت تثخن مؤخرة الجيش فى غير رحمة ٠٠ ودأبت - طوال الطريق الى موسكو ، ومع القناصة وفرق الحرس - على محاولة استدراج أكبر عدد من جنودنا الى حبائل ومهالك خفية ، لتبدد قوى جيشنا فى هذا البلقع الجليدى !**

وهكذا كان جنودنا يواصلون سيرهم حثيثا ، وهم مضطرون خلال الزحف المرهق الى مقاومة عدوين رهيبين : الطبيعة وأسراب القوزاق والقناصة والأهالى المسلحين ٠٠ وكان هؤلاء يبادرون بعدوانهم السريع ، ثم يولون الادبارفى لمح البصر ، وكأنهم أشباح تذوب فى الفضاء ، مما اضطر القيادة الى أن تعدل بعض الشىء فى خطة الزحف ، لتنوط ببعض الفصائل مهمة قتال أولئك الشياطين !

وترك الامبراطور صهوة جواده - تحت وطأة البرد - وآب الى عربته الدافئة ، يحرسها مئات من حرسه الأشداء البواسل ٠ واشتدت وحشة الطريق ، وازداد غموض المصير

الذى يرتقبنا خلاله . وران الصمت المطبق على الامبراطور ، واستولى عليه قلق محموم ، وأصبح المنظار لا يفارق عينيه المتقدتين ، وكأنه كان يستشف من وراء الأفق المتجهم ، الغامض ، موعد الانتحام الذى كان يتعجله ليضرب ضربته ، ويضع نهاية لهذه الحال الممضة الفظيعة !

صمت موسكو أقوى من كل مقاومة !

◆ **واشتد** الاعياء بالدواب ، فازداد عدد ما كان ينفق منها كل يوم . وشغلت مسألة تموين الجيش بال القيادة ، بعد أن ازداد النقص ازديادا ملموسا ، مما اضطر الامبراطور الى اصدار أوامره المشددة بالاقتصاد فى توزيع المؤن على الضباط والجنود .. **وضرب المثل بادئا بنفسه ، فخفض من كمية وجباته طعاما وشرابا !**

ويبدو ان قسوة الأقدار أبت أن تقف فى حربها لنا عند حد معقول ، فقد شاءت ان يدهمنا ـ ونحن مشرفون على معالم موسكو ـ عدو رهيب لم يستطع ازاءه كثيرون من الجنود وضباط الصف ، بل والضباط أنفسهم ، مقاومة أو حيلة ، رغم العناية الطبية الفائقة .. وتمثل ذلك العدو فى جراثيم مريعة خفية لاندرى من اين دهمتنا .. جراثيم « التيفوس » و « الديسنطاريا » . فكانت تفتك يوميا بالعشرات ، وكبدتنا خسائر فى الأرواح لم تستطع أن تحققها ـ فيما بعد ـ قنابل العدو ولا أسلحته ! .. انها لعمرى النتيجة الطبيعية لهذا الاعياء المميت وذاك الارهاق الجسدى المتصل ، مع النقص المستمر فى الأغذية ، وقسوة الزمهرير التى فاقت حدود التصور !

.. لقد كان عددنا حين بدأنا الحملة نصف مليون جندى ، فأصبح لايزيد على مائتى ألف !

ومع ذلك فلم تكن لتروعنا فداحة الخسائر قدر ما روعنا وأقض مضاجعنا ـ ان كنا حقا عرفنا خلال الحملة نعمة

المضاجع ! ـ ذلك الصمت الرهيب المنبعث من ناحية موسكو ، وانعدام أية أنباء عن القيصر وجيوشه ، كأنما ابتلعتهم الارض ، أو كأنما غدت روسيا الشاسعة الأرجاء بيداء جليدية هائلة ، لا حرث فيها ولا نسل !

ولم أكن خلال هاتيك الساعات الرهيبة أدرى من حولى شيئا ، وان كنت أدرى أمرا واحدا لاشك فى صدقه ، اذ كان يجرى أمام عينى .. تلك هى أوامر الامبراطور الصريحة باستمرار الزحف دون ابطاء أو تريث ، مهما يكن عدد الضحايا ، وأيا كان الثمن !

لعبة الموت .. على جليد موسكو !

◆ **وواصلت** مواكب الجند طريقها المتجهم الموحش : فعجلات المدافع وعربات الذخيرة تدوى على الأديم الجليدى فى صرير حزين أجش ، والجياد تصهل فى وجه الرياح والثلوج ، وما بقى من الابقار والثيران يؤنسنا بخوار كأنه النعيب او النحيب .. الكل متجه نحو نهاية المطاف ، أى موسكو ، قلعة القياصرة ، والمدينة التى لاتزال تعيش على ذكريات « ايفان الهائل » !

وكنا نمر بقرى خاوية على عروشها ، ودساكر صامتة قد سكن فى احشائها نبض الحياة ! .. ومع اقتراب الطريق من نهايته ، ازدادت مقاومة الفلاحين ، الذين بدوا وكأنما تسلحوا بين يوم وليلة . وزادت ايضا كرات فرسان القوزاق والقناصة

وكان هنالك نوعان من القلق يستبدان بأعصابنا ، ويأخذان بمخانقنا : أما الامبراطور ، فقد كان قلقا من جراء تلهفه الطويل على المعركة الفاصلة ، التى كان يطمع فى أن تضفى عليه مرة أخرى مجدا لايقل عن مجد معارك (مارنجو) و (ريفولى) و (ينا) و (استرليتز) .. وأما رجال القيادة ، فكانوا قلقين من توالى النقص فى المؤن ، وكثرة تساقط المتعبين من

الجند ، وازدياد عدد الجياد التى كانت تنفق كل يوم فى الطريق، كأنما حلت عليها لعنة خفية لاحيلة لنا معها !

وأقسم الامبراطور انه لن يدع هذه « اللعبة » تطول أكثر مما طالت ٠٠ لعبة انسحاب الجيش الروسى من وجهه ، واصراره على التخفى والصمت ٠٠ فأملى على نداء حماسيا للجيش ، ونحن على مقربة من موسكو ، جاءفيه :«أيها الضباط والجنود ٠٠ ان أمامكم الآن معركة فاصلة طالما اشتقتم اليها بعد هذا السير الطويل ٠٠ لقد قطعتم فى سبيلها قفارا جليدية عزت الا على عزائمكم ، وتحملتم كل ماتحملتموه الى الآن فى بسالة وشرف ، وها قد جاء وقت النصر ٠ اننى أريد منكم هذا النصر ، فهو متوقف عليكم ٠ وهو فضلا عن الفخار الخالد الذى سيضفيه على بسالتنا التقليدية ، سيتيح لكم جميعا مناعم الغذاء والدفء والترفيه داخل قصور موسكو ومغانيها ٠٠ فحاربوا بشجاعة فائقة كما حاربتم فى سهول استرليتز وفريدلاند وسمولنسك ، ودعوا الأجيال القادمة تتحدث عنكم ، قائلة فى أقصى زهو : مرحى ، لقد كان أبى من جنود معركة موسكو !! »

الاشتباك الأول مع القوات الروسية

◆ وفوق السهل الجليدى المنبسط ، الذى كان يحيط بأسوار موسكو وأبراجها الشامخة من بعيد ، وجد نابليون طلبته أخيرا ، وان لم تكن كل ما اشتهى ! ٠٠ **كانت هناك فصائل تامة العدة من الجيش الروسى ، لايقل أفرادها عن ستين أو سبعين ألفا ، تحت قيادة الجنرال كوتوزوف الأعور ! ٠٠ وبدا أن الحرب ستدور على قدم وساق مدى ساعات غير قليلة٠٠ حقا ان النصر فى معركة كهذه سيفوق في أهميته كل نصر أحرزه الامبراطور فى سائر معاركه السابقة !**

وبعد مناوشة من هنا ومناوشة من هناك ، انطلقت مدافعنا

كهزيم الرعد ، تلقى قذائفها فى تركيز شديد ، فأجابتهـــا المدفعية الروسية عنيدة نشطة ، مدى ســاعة . ولم يلبث الامبراطور أن أصدر أوامره الى الماريشال « ناى » ليندفع على رأس فرسانه العمالقة ويلتحم بفرسان جيش العدو ، وبمقدمة صفوفه قبل الكرة الفاصلة .. فاندفع فرساننا اندفاع السيل الدافق نحو صفوف العدو . وما هى الا دقائق حتى اختلط الحابل بالنابل ، وارتفعت الصيحات مقترنة بدمدمات الرصاص ودوى القنابل وصليل السيوف ، وملأ دخان البارود سماء السهل . وربض الامبراطور فوق جواده ساكن الجأش ، صارم الملامح ، وجعل يرقب بمنظاره مسرح المعركة ، ومن حوله مورا واوجين وبرتييه وديما ، الذين ظل يصـــدر اليهم تعليماته وأوامره ، ويسمعهم تعليقاته اللماحة على سير القتال لحظة فلحظة .

والواقع أن هـــذه المعركة ـ التى عرفت باسم « معركة بورودينو » ـ اتسمت بالعنف والوحشية والعناد والتحدى ، من كل من الفريقين .. **كان دور مدفعيتنا هائلا ومريعا ، ولكن لا سبيل الى انكار أن دور المقاومة من الجانب الآخر كان أروع وأكثر عنادا ، حتى لقد خيل الى أن رد مدفعيتهم على مدفعيتنـــا كان فيه معنى «شفاء الغليل» !..**



وانجلى الدخـــان والدوى والصراخ ـ بعد أربع ساعات مروعة ـ عن النتيجة المحتومة التى كان الامبراطور يتوقعها ، وهى : تقهقر الروس الى الشرق .. وهكذا فتح الطريق الى قلب موسكو ذراعيه لجيشنا

الفرنسيون يحلمون بالنساء والحب !

◆ ومع ذلك لم تكن ذراعا الطريق ذراعي صديق يرحب بمقدمنا، وانما كانتا تطبقان علينا فى خشونة، الفينة بعد الفينة، بسبب جموع القوزاق والقناصة التى لم يهدأ لها كر وفر فى كل شبر من الطريق . وحين احصيت خسائرنا وخسائرهم فيما بعد ، عرفنا اننا فقدنا مايقرب من ثلاثين ألف رجل فى مقابل ٥٨٠٠٠ جندى خسرهم الروس ! .. وامتلأ السهل العريض بجثث القتلى والجرحى ، فجاست قوائم الجواد الذى كان يمتطيه الامبراطور خلال مئات من الأجساد انتشرت هنا وهناك . ولكن خسائرنا لم تروع جنودنا ولا قوادنا ، رغم ماكانوا عليه من انهاك واعياء .. فقد كان الأمل فيما سيجدونه فى العاصمة الكبرى من طعام وغذاء وترويح ، يداعب خيالهم ، وينسيهم كل الأهوال التى صادفوها حتى الآن !

وحل ظهر يوم ١٤ سبتمبر ، وطلائع الحرس الامبراطورى على مسيرة نصف ساعة من بوابات موسكو الضخمة . وحين اتضحت تماما أبراج الكنائس والكاتدرائيات الضخمة ، والقصور المنيفة ذات القباب الذهبية ، دوى فى الفضاء العريض — مع هزيم رياح الثلوج — هتاف واحد : « هاهى موسكو اخيرا .. عاش الامبراطور ! »

وأقف هنا لحظة لأقول وأنا أكثر ما أكون صراحة : ان مشاعر الجندى الفرنسى فى مثل هذه اللحظات سريعة التقلب من حال الى نقيضها .. فهو بعد أن نفض عن كتفيه ونعليه — بل وعن قلبه — غبار المعركة وهمومها ، بات يحدث النفس بالمناعم القريبة ، وفى مقدمتها النساء والحب !

الرسول الرهيب الذى اوفده القيصر لاستقبال الفرنسيين

◆ .. وحسب الامبراطور — وحسبنا معه — ان رسل

القيصر ينتظرون مقدمنا على أبواب المدينة ، أو ان قواد حاميتها ورجال بلديتها قد جاءوا يحملون فى ايديهم المفاتيح ليسلموها الى الامبراطور ، كما تجرى بذلك تقاليد الحروب .. ولكن شيئا من هذا أو من ذاك لم يحدث !

ويا للمفاجأة التى اخذت اهوالها المريعة تتمخض عن حقيقتها البشعة ـ مع حلول الظلام رويدا ـ بالعاصمة التى طال اشتياقنا الى اجتلاء مناظرها والاستمتاع بمناعمها .. **فبعد كل هذه الخسائر والنكبات والمعارك ، لم نجد شيئا مما كنا نأمل ، بل لقد أوفد القيصر رسولا لم يكن في الحسبان لاستقبالنا .. انه الحريق الهائل الذى اندلعت ألسنته فجأة ، عند أول هزيع من الليل ، كأنما اضرمته شياطين غير منظورة ، ليلتهم « درة » القياصرة فى نهم ، ووحشية ، وسعار لا يشبع !**

وهكذا جاس جنودنا خلال شوارع خيم عليها السكون والصمت ، وأضفت عليها ألسنة اللهيب وحشة الموت وفظاعة المصير ! أما البيوت فقد كانت قاعا صفصفا .. ولم يعد بالمدينة الضخمة أقوات ، أو مخازن للطعام ، أو دكاكين للسلع . يا لله ! لكأنها مدينة مسحورة ، بنتها الشياطين ، ليسكنها الخراب والحريق ، ويعشعش فيها الجليد والموت ! .. **وكان وقع الصدمة على الامبراطور أقسى من وقع الصواعق ، فاتخذ طريقه الى الكرملين مهموم النفس كاسف البال ، تاركا لقواده وجنوده مهمة جديدة ، هى التغلب على هذا العدو الرهيب : الحريق !**

وكان على الجنود ـ الذين دخلوا مدينة خيبت آمالهم ـ ان يصارعوا النيران حتى لاتصرعهم ، وان يكافحوا الموت وسط الانقاض ، ولكن هذه الانقاض والخرائب مالبثت هي الأخرى آن اسفرت عن مكنونها .. فقد اتخذ منها القناصة من القوزاق والحرس الوطنى أوكارا ومخابىء للمقاومة واطلاق النيرآن ، وتصيد الفرائس من الفرنسيين !

النار والدمار والموت ٠٠ حول الجيش الفرنسى !

◆ **وعلى** الرغم مما بذله جنودنا المرهقون من جهود خارقة ، فان الحريق ازداد هياجا بفعل الرياح الباردة التى لم تكف عن الهبوب طوال الليل ، فتركوا النيران تفعل فعلها ، وعصوا لأول مرة فى حياتهم أوامر قوادهم ، مكتفين بأن يكافحوا الموت المختبىء لهم وراء النوافذ والجدران والأنقاض ٠٠ لقد غدا كل واحد منهم مجنونا بالدفاع عن نفسه ، بعد أن احتدمت فى صدره غريزة الحياة !

وفى اليوم التالى ـ ١٧ سبتمبر ـ اضطر الامبراطور الى ترك الكرملين هو وقواده ، بعد أن عجزت كل الجهود عن مقاومة ألسنة اللهيب ٠ وظل طوال اليوم التالى ، وظللنا معه، نتجول خلال مدينة النار والخراب والموت ، تصدم انظارنا الجثث هنا وهناك ، والاخشاب المشتعلة ، والحديد المصهور والكلاب النابحة هلعا من محاصرة النيران لها ، وقد خيمت على المدينة كلها رائحة كريهة تزكم الأنوف وتزهق الأرواح وتصعق وعى الاحياء منا ٠٠

لقد وضح الآن ان الامبراطور خسر « اللعبة » من أول جولة ، كما بان لنا جميعا ان مقدرة الروس على التضحية ، ودهاءهم العجيب ، كانا فوق كل تقدير وحسبان !!

وحل اكتوبر ، والامبراطور لايزال يتشبث بالبقاء فى مدينة الدمار والموت ، بأمل واحد ، هو احتمال ان يوفد القيصر رسله ، طالبا شروط الصلح ! ٠٠ وكانت الأيام والليالى فظيعة فى بطئها ، مليئة بمزعجاتها ٠ وفى اليوم السابع عشر لم يعد أمامنا بد من اتخاذ قرار حاسم ٠ ولأول مرة ، استمع الامبراطور الى نصيحة قواده ، وقرر الرحيل بسائر الجيش عن موسكو بعد يومين !

انسحاب ذليل ٠٠ وأفول نجم !

◆ **ما** ان اسفر صبح اليوم التاسع عشر من اكتوبر ، حتى حمل الجيش أثقاله ، وانتظم الجنود فى صفوف صامتة حزينة ٠٠ ولقد شعر الامبراطور شعوراً بينا بمدى هبوط الروح المعنوية بين جنوده وضباطه ٠٠ فقد كان أمام الجيش - أعنى البقية الباقية منه - طريق طويل شاق ، تحف به المفاجآت من كل جانب ، وتترامى على مسافاته المكاره والمهالك ٠٠ والموت جوعا ان لم تتداركنا رحمة المقادير !

كان أمامنا أمر واحد ليس لنا سواه ، هو ان نتجلد لكل شىء يواجهنا ، وان يكون تجلدنا فائقا وخارقا للعادة !

وهكذا بدأنا حركة الانسحاب والتقهقر ، وسط أقسى ظروف يمكن أن يواجهها جيش ٠٠ كان فى انتظارنا الزمهرير والجوع والقناصة ، وشماتة بروسيا والنمسا وانجلترا ، المتحفزة جميعها لضربنا الضربة القاضية والخلاص النهائى من نابليون ٠٠عدوها المشترك !

وخلال السير البطىء الحزين ، كان ثمة خاطر واحد يسرى فى رؤوسنا جميعا ، هو ان « اله الحرب » قد ارتد - بفعل قوى الطبيعة والقدر ، وبفضل هذا الضرب الفريد من المقاومة - عاجزا مدحورا ، لأول مرة فى تاريخه الحافل !

وواصل الجيش سيره البطىء الحذر ، متجها صوب (بروفسك) ٠ وفى الليل ، والنجوم تتألق فى قبة السماء الصافية ، رغم هطول حبات البرد ، رأيت الامبراطور يحدق طويلا فى السماء ، وكأنه كان يستنطق لوح القدر ماهو مخبوء له فيه ! وما لبث ان هتف فى أنه ابتهال مؤثرة : « **أيتها النجوم والكواكب ٠ ألا ترين بينكن نجمى ؟ أما زال لامعا يتضوأ ، أم تراه قد خبا وأفل ؟ !** »

ومررنا ببلدة « كالوجها » ، فى طريقنا الى « مالو - ياروز لافتز » ، التى كانت تحيط بها غابات رهيبة ، جعلتها موقعا

حصينا ممتازا ، ومخبأ طبيعيا فذا لجنود الجنرال «كوتوزوف» ، يوجهون منه لجنودنا المنزوفة المتعبة ضربات قوية متلاحقة ٠٠ وهذا مافوجئنا به ٠ وكأنما جن جنون العدو ، واشتدت اكثر من ذى قبل جرأته فى المقاومة ، فأصبحت المناوشات البعيدة ، المتقطعة ، تلاحما عنيفا استخدم الفريقان خلاله كل شىء ، حتى السلاح الأبيض ٠٠ بل حتى الأظافر والخناجر وقبضات الأيدى !

وحين ازداد ارتفاع الضجيج والصراخ والدمدمات ، لم يملك الامبراطور أن تساءل بصوت غاضب مرتفع : « هل تشجع كوتوزوف مرة أخرى وعاد الى مواجهتى بجيشه ؟ ٠٠ اهى حقا معركة ؟ ! ٠٠ » واصدر أوامره الى الجنرال « ديلزون » ليقود كتيبة من المشاة وبعض الفرسان فيهاجم بها الطرف الشرقى من الغابة ، فى حركة تطويق محكمة ، حتى اذا فر المختبئون عند تضـييق الخناق عليهم ، لم يجدوا منفـذا الا ناحية الغرب ، حيث يتولاهم جنود جيشنا بمدافعهم ورصاص بنادقهم !

ولكن الخطة ـ بعد قتال استمر أكثر من خمس ساعات ـ لم تنجح تماما ٠٠ فقد كان المختبئون وراء الأدغال الكثيفة كالشياطين ٠٠ وقد استدرجوا عددا من جنودنا الى مكامن خفية ، كان فيها حتفهم !

وأمر الامبراطور بتسليط المدفعية الثقيلة صوب الغابات ، لتحمى مؤخرة الجيش خلال زحفه المحفوف بالمخاطر صـوب (غورودينيا) فسمولنسك ٠٠ وكان الامبراطور قد ناء ـ بعد كل هذه الأيام والليالى المريعة ـ بعبء فادح ، فغدا متعبا ، متجهم الأسارير ، متقرح الجفنين ، شديد الانفعال !

جنود فرنسا يأكلون لحوم دوابهم ويشربون دماءها !

◆ **وازداد** هطول الثلج ، حتى غدا فى طريق الانسحاب

والتقهقر « تلالا وآكاما » ٠ وكان « كوتوزوف » الداهية قد وزع قواته على طول الطريق توزيعـا بارعا ، تؤيدها جموع القوزاق والفلاحين وعصابات الأهلين ، بكل ما يملكون من سلاح وهمجية ، لانهاك طلائعنا واثخان مؤخرتنا ، طوال ساعات النهار والليل دون هوادة !

ومع كل ماتذرع به جنودنا من صبر وتماسك وبسالة ـ حيال ماتيك الأهوال التى تعجز طاقة البشر ـ لم تسلم صفوفنا الجانبية ، ولا صفوف مؤخرتنا ، من ارتباك واضطراب وهرج ، حتى لقد اضطرهم الفزع أحيانا الى الاندفاع الى قلب الجيش ، مما ألحق الارتباك بصفوف الحرس المحيط بالامبراطور ، وكاد يفقد هذا الحرس تقاليده العسـكرية العريقة ، فيوقعه هو الآخر ضحية الاضطراب والفوضى والفزع ! ولما كانت حياة الامبراطور تمثل رمزا وطنيا وعسكريا رفيعا ، نكافح حتى الموت من أجله ، فقد صدرت أوامر مورا المشددة باعدام كل من يكون سببا فى مثل هذا الهرج !

وازداد الصقيع بدرجة مروعة ، وتوالى النقص فى الأغذية بصورة اكثر ترويعا ، لاسيما وان الفلاحين كانوا لايدعون أى طعام يتسرب الى أيـدينا ٠٠ واضطر الجيش الى ان يخفف من احمالـه كثيراً ، والى أن يتلف الكثير من مدافعه الثقيلة بعد ان لم يعدثمة دواب لجرها ٠ وكانت الجياد والبغال من الاعياء المريع حتى اذا سقط واحد منها ميتـا ، شـمر الجنود فى الحال لذبحه وتقطيعـه ، وطبخـه ، وشرب دمه ! ٠٠ وقـد لاتسـعف



الأحوال على ايقاد نيران خلال السير الحثيث ، فيأكله الجنود نيئا !

وكان الامبراطور يرى هذه المآسى كلها بعينيه ، ولكنه لم يكن يملك حيالها شيئا . كان لا يريد ان يظهر أمام جنده بمظهر الهالع ، الجازع ، حتى لا يزيد معنويتهم تخاذلا وانهيارا

« تاليران » يدعو لقلب نظام الحكم فى فرنسا !

◆ **وفي** أواخر نوفمبر ، راجت بين الجنود والضباط شائعة قوية ، لم تلبث ان بلغت الامبراطور ، فاضطرب لها واغتم . تلك هى استفاضة النبأ فى فرنسا بموته وهلاك ثلاثة أرباع جيشه معه . وهذا الشق من النبأ لم يثر ألم الامبراطور ، ولكن الذى أثار بالغ ألمه ودفين همه ، ما رددته الشائعة من ان « تاليران » دعا الى تأليف حكومة « جمهورية » مؤقتة لمواجهة الموقف ، فكأنه بدعوته هذه ، لم يفكر فى ابن نابليون باعتباره وريثه وخليفته على العرش !

وواصل الجيش تقهقره فى هذه الظروف التعسة ، حتى اذا اقترب من (بولوتسك) ، وغدا على بعد فرسخ أو بعض فرسخ من (سمولنسك) ، تكاثفت على الأفق فجأة صفوف من جنود العدو وفرسان القوزاق ، وجعلوا يمطروننا ـ بلا تمهل ـ وابلا من الرصاص والقنابل ، ثم يعودون القهقرى ، مختفين فى مخابئهم الجهنمية . واستمرت الحال على هذا النحو بضع ساعات ، فأصدر الامبراطور أمره الى الماريشال « ناى » ليقود كتائب فرسانه ، ويتولى بنفسه مهمة تطهير الطريق الى (سمولنسك) امام الجيش ، مهما يكلفه الأمر !

ولقد زاد الامور سوءا ان كثرة هائلة من المتطوعين البروسيين والنمسويين والكرواتيين والفنلنديين ، انضموا الى المقاتلين الروس ، فرجحت بذلك كفة العدو .. فضلا عن ان الاعتقاد ظل سائدا بيننا بأن « كوتوزوف » كان يكمن مع أركان حربه

فى جهة ما بهذه النواحى ، منتظرا الفرصة السانحة التى يستطيع أن يوجه فيها الينا الضربة القاضية ، ويخلص من أمرنا الى الأبد !

وسار الماريشال ناى بجموع فرسانه على الضفة اليسرى لنهر الدنيبر الكثير الانحناءات والتعاريج ، وكان يقابل فى طريقه ـ المحفوف بالأهوال والمفاجآت ـ عديدا من مكامن العدو وعصاباته .. وطالت غيبة ناى ، وانقطعت اخباره تماما عنا ، فقلق الامبراطور كثيرا من أجله ، وايقنا بعد انقضاء ثلاثة أيام على غيبته انه ورجاله فى عداد المفقودين !

كاد الروس يأسرون نابليون !

◆ **ولقد** فقدنا جميعا عقولنا ، ازاء الأهوال والشناعات ، وعجزنا عن كل تفكير وتدبير .. وظل الامبراطور وحده محتفظا بنشاط ذهنه ولماحية تفكيره ، وقوة تحمله العجيبة .. كما ظل يدبر الحيل ويرسم الخطط !

وشاءت الاقدار ان تنتظرنا مأساة اخرى فى بقعة على نهر بريزينا ـ أحد فروع الدنيبر ـ فقد قطع جنود الاعداء الجسر الخشبى المقام على ضفتى النهر ، بعد ان تغلبوا على حراسه من جنودنا ، فاضطرب خط التقهقر الرئيسى وتعطل .. وهكذا بات الامبراطور ، ومعه ثلاثون ألفا من جنوده ، مهددين بالوقوع فى ربقة الأسر !

على أن نابليون لم يفقد جأشه ، ولا خانته سرعة تفكيره ، بل رسم فى دقائق خطة سريعة للتقهقر ، لم تكلفه سوى نظرة أو نظرتين الى الخريطة ، ثم أمر بتعبئة قوى المهندسين والفنيين لتشييد جسر آخر على بقعة أخرى ـ جنوبى الجسر الأول بعدة أميال ـ تحت حراسة مضاعفة . فقام مهندسونا وجنودنا بالعمل فوق المياه ـ التى تقرب من درجة الصفر ـ بهمة لاتعرف الخوف أو الكلل ، حتى أتموا انشاء الجسر فى أقل من

يوم واحد !

ومع ذلك ، وبالرغم من هذه الجهود الخارقة ، أبى النحس - الذى لازم الحملة منذ بدايتها ! - الا ان يلازمهاحتى النهاية . فما ان عبرت الصفوف الأولى من الجنود هـذا الجسر ، حتى هجمت الصـــفوف الخلفية فى عنف واندفاع ، تريد العبور بدورها - ومعها أثقالها وأحمالها - بعد أن سرت خلالهاشائعة خبيثة تزعم لها ان خط رجعتها سوف ينقطع بين لحظة وأخرى .. وكانت النتيجة آن انهار الجسر . **ولم تمض ساعة حتى كانت جثث الضحايا تملأ مياه النهر .. وفضلت القـــوات الأخرى وعلى الأخص الفرسان ، عبور النهر سباحة ، فى مياه يتجمد من زمهريرها نبض الحياة !**

وحين دخلنا (سمولنسك) ، بعد كل هذه الأهوال ، كان



نابليون على رأس جيشـــه أثناء انسـحابه من موســكو
(لوحـة مشـــهورة من معروضات متحف اللوفر)

عددنا لا يزيد على الثلاثين ألفا .. وهناك وجدنا الماريشال ناى ـ بنصف عدد فرسانه ـ فى انتظارنا !

الامبراطور يتخلى عن جنوده !

◆ **ومرة** أخرى قابلتنا فى (سمولنسك) الحرائق والخرائب والكمائن ، وهجمات العصابات .. ومرة اخرى تساقط عدد كبير من الجنود ضحايا الجوع ، وان كان الامبراطور قد حاول ان يخفف عنهم وقع النكبات ، فوزع عليهم الأوسمة والنياشين فى سخاء عجيب !

وحين توالت الأنباء بقلق الشعب الفرنسي ، وأطلت رؤوس الفتنة من أكثر من أمة ، وازدادت مؤامرات انجلترا ودسائسها، أيقن الامبراطور انه فاقد عرشه لامحالة ان لم يبادر بالذهاب الى باريس للسيطرة على الموقف ، تاركا قيادة الجيش ـ خلال التقهقر ـ للماريشال مورا

وهكذا أصبح الجيش لأول مرة بغير امبراطوره ، خلال تقهقره الشاق المريع !

كتابى : وما توالى بعد ذلك من أحداث معروف ومشهور ، فقد حاول نابليون اقناع مجلس الشيوخ بمعاودة الهجوم على روسيا ، وجند بالفعل جيشا من الكهول والأحداث ناقصى الخبرة ، ولكن الأمم كلها كانت قد تحزبت ضده .. والتقت جموعها بجموعه في سهول (ليبزج) حيث دارت معركة هائلة عرفت بمعركة الأمم ، اندحر فيها نابليون وتمزق جيشه شر ممزق ، وأصبح الطريق لغزو فرنسا مفتوحا

وفى باريس ، وقعت شروط الصلح ، وقرر الحلفاء نفى نابليون الى جزيرة ألبا

وهكذا يأبى التاريخ الا أن يجعل للطغاة مصيرا واحدا لا يتغير !



مصير البشرية

أبقاء ونماء .. أم اندثار وفناء ؟!

للباحث العالمى: "ب. ل. دى نووى"

تلخيص : أنطون العبيدى

الانسان الحائر .. بين العلم والدين !

◆ من أهم معالم حضارتنا الحديثة ، أنها تلقى على الفرد قسطا من التبعة فى بناء المستقبل ! .. غير أن هذه التبعة لا يمكن أن تتبلور فى جهد انشائى الا اذا فطن الناس الى معنى حياتهم ، وسبروا أغوارها ، وأدركوا مرمى جهودهم وأهداف كفاحهم .. والا اذا أقاموا هذا الكفاح وتلك الجهود ، على ايمانهم بأن للانسان مصيرا ساميا . وهذا الايمان هو ما يهدف الكتاب الذى نقدمه اليك اليوم ، الى تدعيمه على أسس علمية . فمن المغالطات الشائعة ، ما يروجه بعض المذاهب من تعارض العلم مع الدين ، مما أفسح الطريق الى انتشار الالحاد .. ولكن « دى نووى » الباحث ذا الصيت العلمى الذائع ، يؤكد هنـــا ما خرج به من أبحاثه العلمية من أن العلم هو الدعامة التى تعزز أركان الدين . وهو يعرض نظرياته هنا فى أسلوب سلس ، وعبارات سهلة بعيدة عن المصطلحات الفنية .. وقد حرص « كتابى » على أن يزيدها تبسيطا حتى تكون فى متناول كل قارىء ، مهما تكن ثقافته

الباحث الذى أدخل المعادلات الرياضية فى الطب

◆ ولد « بيير ليكونت دى نووى » ــ مؤلف هذا الكتاب ــ فى باريس سنة ١٨٨٣ ، فى أسرة كان جل أفرادها من أهل الفن والأدب : فكانت أمه « ايرمين ليكونت دى نووى » أديبة فذة ، كما كان جده لأبيه « أوجـين دى نووى » من أشهر الرسامين على الزجاج . ومن أسـلافه « بيير كورنى » ، أشعر شعراء فرنسا فى العصر الكلاسيكى

وقد تلقى « دى نووى » العلم فى السربون ، وفى كلية الحقوق . وحصل على الدكتـــوراه فى الفلســـفة ، وفى الفلسفة العلميـــة ، ثم انصرف الى دراسة طائفة من المشكلات العلمية العميقة ، التى كانت تبدو بغير حل ، فنجح فى وضع معادلة رياضية يتسنى بواسطتها تحديد معدل الالتئام فى

جروح الانسان .. وكانت هذه أول مرة تطبق فيها العلوم الرياضية بنجاح فى حل مشكلة من مشكلات علم الأحياء . وأدى هذا ـ فيما بعد ـ الى تبين أن الزمن يسير بالنسبة للكائنات الحية ، بمعدل يختلف عن معدل سيره بالنسبة للجماد . وكانت أهم نتيجة فلسفية ترتبت على هذا الكشف العلمى ، هى أن الزمن لايحتفظ بقيمة واحدة ، ولا بقدر واحد ، بالنسبة للطفل وبالنسبة للشخص البالغ . وأحدث هذا الكشف ثورة فكرية ، عندما نشر فى فرنسا ـ سنة ١٩٣٦ ـ وفى أمريكا سنة ١٩٣٧

ولقد انصرف « دى نووى » الى الأبحاث العلمية والبيولوجية فى معهد « روكفلر » بنيويورك ـ فيما بين عامى ١٩٢٠ و ١٩٢٧ ـ حيث اكتشف طائفة من الظواهر التى تستخدم الآن فى معامل الطب والصناعة . ثم عاد « دى نووى » الى باريس حيث عمل رئيسا لقسم الطبيعة الحيوية بمعهد « باستير » . وفى سنة ١٩٣٧ ، عين مديرا لمدرسة الدراسات العليا فى السربون . وبعد الاحتلال النازى ـ فى الحرب العالمية الثانية ـ تمكن « دى نووى » من الهرب الى أمريكا ، فى سنة ١٩٤٢ ، حيث واصل أبحاثه

وقد نشر له أكثر من مائتى بحث فى مسائل علمية بالغة الأهمية . كما نشرت له سبع كتب عن أبحاثه الخاصة فى فلسفة العلم ، بلغ من الاقبال عليها أن أعيد طبع أحدها ـ وهو « مستقبل العقل » الذى ظفر بجائزة الأكاديمية الفرنسية ـ اثنتين وعشرين مرة فى ثمانية أشهر من عام ١٩٤٢ . كما نال « دى نووى » ، فى سنة ١٩٤٤ ، جائزة « أرنولد ريموند » من جامعة لوزان ، تقديرا لكتبه الثلاثة : « الزمن والحياة » و « الانسان أمام العلم » و « مستقبل العقل » ، باعتبارها أعظم عون قدم للفلسفة العلمية خلال الأعوام العشرة الأخيرة

وقد توفى « دى نووى » فى نيويورك فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٤٧

وفيما يلى تلخيص لكتاب « دى نووى » الشائق عن « مصير البشرية » :

الصنم الذى أسلم البشرية للقلق !

◆ **اجتازت** الانسانية منذ عهد قريب عصرا من أظلم عصور تاريخها ، اذ امتدت فيه الأحداث المفجعة الى أنأى بقاع العالم ، وبلغت فيه المنازعات الدولية حدا من العنف أطاح بكل ماكنا نتوهمه – فى غرور وصلف – عن متانة حضارتنا ودوامها !

والواقع أن الدول الغربية – بالذات – تستشعر منذ الحرب العالمية الأولى قلقا عاما ، ليس فى حقيقته سوى يقظة الشعور الانسانى الذى خدره تقدم الآلات خلال القرنين السابقين .. فلقد توالت الكشوف العلمية الرائعة – دون انقطاع – منذ سنة ١٨٨٠ حتى سنة ١٩١٥ ، فكان لها دوى هائل وتأثير عميق ، مما أذهل عقول الجماهير وكاد يصرفها عن المأكل والمشرب ، كما يحدث للأطفال حين تبهرهم الألعاب البهلوانية فتلهيهم عما عداها ! .. وكذلك كان المظهر الخلاب للكشوف العلمية شاغلا للناس عن القيم الحقيقية التى حجبتها عن الأنظار تلك الأضواء الباهرة المنبعثة من الكوكب الجديد : العلم والآلة . ومن ثم لم يصغ أحد الى صيحات الانذار التى انبعثت من المشفقين الذين استشعروا دنو الخطر ..

أجل ، لم يصغ أحد الى هؤلاء المنذرين ، لأن صنما غريبا جديدا ظهر فى الوجود ، ولأن وثنية جديدة استهوت الجماهير ، فى الوقت الذى كانت فيه آراء المتبصرين وأسانيد العقلاء ، قديمة لا تتمشى مع تطورات العالم الذى يبدل أنماط حياته – فى كل يوم – بأنماط اكثر بريقا ولمعانا .. ومن ثم اخذ الناس يحملقون فيما يجرى حولهم مبهوتين ، معجبين ، مؤمنين بمقدرة هذا الصنم الجديد : العلم والاختراع !

استخدام العلم .. ضرورى لمكافحة الالحاد !

◆ **ولقد** بذل رجال الدين جهودا جبارة فى هذا السبيل ،

ولـكنهم لم يحاولوا أن يبدلوا من تعاليمهم وطرائقهم القديمة ، فلم تفلح جهودهم ٠٠ لا فى اصلاح الفساد الخلقى العام فحسب، وانما فى ازالة القلق الذى أشرنا اليه كذلك

وما كان من سـبيل لأن يحدث غير الذى حدث ٠ اذ أن التعليم الاجبارى شق طرقا جديدة فى عقل الانسان ٠ فقدر للناس ان يتعلموا كيف يستخدمون عقولهم فى التفكير ، دون ان يصيبوا مزيدا من العقل والحكمـة ٠٠ أو بالأحرى ، قدر للناس ان يحصلوا على اداة خلابة ، بالغة الاغراء ، خيل اليهم انهم على دراية باستخدامها ٠ **ولما كانت هـذه الأداة ـ وهى العلم ـ قد أحدثت نتائج مثيرة بدلت حياتهم المادية شـيئا فشيئا ، فقد علقوا عليها آمالا لاحد لها ، وانصرفوا عن رجال الدين الى رجال العلم الذين نجحوا فى اخضاع قوى الطبيعة وكشف بعض أسرارها !**

وهكذا طغت المادية ، لا على تفكير العلماء الفنيين فحسب ، وانما على تفكير الجماهير كذلك ٠٠ ولم يعد بد ، لمكافحة هـذا المرض الذى أصاب العقل البشرى ، من اسـتخدام نفس الأسلحة التى شق بها طريقه ٠٠ فالحجة الرياضية لا تهدمها سوى حجة رياضية ، والاستدلال العلمى لايهزمه سوى استدلال من نوعه ٠٠ وبعبارة اخرى ، ليس فى وسعنا ان نصدم الالحاد ، بالكلام الحار والحجج العاطفية التى كانت تكفى ـ فيما مضى ـ لالهاب الجماهير ٠٠ ليس فى وسـعنا أن ندفع الدبابات بالفرسان ، ولا أن نهاجم الطائرات بالقسى والنبال !

ان العلم هو الذى اسـتخدم فى زعزعة أركان الدين ٠٠ وبالعلم ـ ذاته ـ يجب ان تدعم هذه الاركان ، وان يقضى على الالحاد ٠ ولما كان العالم قد تطور خلال القرون الخمسة الأخيرة، فمن المهم الاعتراف بهذه الحقيقة والتكيف مع الأحوال الجديدة ٠٠ وفى سبيل ذلك يجب أن ندرس التراث العلمى الذى تكدس بين أيدينا عبر الأجيال ، وابراز النتائج المنطقية والعقلية التى

ينطوى عليها .. وسنرى أن هذه النتائج تنتهى بنا الى فكرة الخالق !

ادراك الانسان لقيمته وكرامته هو العلاج !

◆ **ان** القلق الذى يساور البشرية فى عصرنا يرجع أكثر ما يرجع الى أن العقل قد قضى على الأديان ، حين قضى باسم علم — لم يزل فى المهد ! — على المثل والقيم التى اضفت على الحياة البشرية معناها وحددت غايتها .. فان نفى حرية الاختبار ، والتبعة الأدبية ، واعتبار الانسان مجرد قطعة من المادية الحية ، لا تكاد تختلف عن الحيوانات الأخرى ، يؤدى بالضرورة الى تلاشى الشخصية الانسانية ، والى زوال كافة القيم الروحية ، وتلاشى كل أمل ! .. **ذلك لأن الانسان يمتاز بوجود الأفكار الأدبية والقيم الروحية فى ذاته . فلو أردنا للحياة الانسانية ان يكون لها معناها ، وللجهد البشرى ان تكون له علته ، وجب أن نعيد تقدير الآراء والمذاهب على أساس من العلم والعقل . ولا سبيل الى هذا الا اذا ادمجنا تلك الآراء والمذاهب فى التطور**

ان علينا أن نثبت أن لكل انسان دورا فى الحياة ، وأنه حر فى أن يؤديه أو لا يؤديه . علينا أن نثبت أن الانسان حلقة فى سلسلة ، وليس قشة فى مهب الريح ، وأن الكرامة الانسانية ليست مجرد كلمة جوفاء .. فما لم يقتنع الانسان بذلك ويسعى اليه ، فانه يتردى الى حضيض ضراوته الأولى !

دراسة العلم تفسر قيمة الانسان ومنشأه

◆ **وخليق** بنا أن نلم بالأساليب التى يستخدمها العقل فى وصف الكون والتكهن بالأحداث المستقبلة . اذ أننا سننسج من الاساليب العلمية والرياضية اسانيدنا ، لنثبت أنها تؤدى الى الاقرار بضرورة وجود قوة عليا غير أرضية ، لا تفسير

للحياة بدونها ٠ واذا سلمنا بأن الانسان جزء من كون واسع الرحاب ، وانه الوحيد بين الحيوانات الذى يملك ملاحظة الطبيعة واجراء الاختبارات ووضع القوانين والنسب ، تعين علينا أن ندرس العالم منذ نشأته ، وأن نلم بالنواميس التى تحكمه ، لأن هذه الدراسة تلقى بعض الضوء على معنى الانسان، اذ تفسر ظهوره على الأرض ، وتبين الروابط التى تربطه بالكائنات الحية الأخرى ، والفوارق التى تميزه عنها ! ٠٠ **وبذلك نضيع على دعاة المذهب المادى واولئك الذين يسمون أنفسهم « المفكرين الأحرار » ، ما يزعمونه من أنهم وحدهم الذين يفكرون تفكيرا عقليا ، ويقيمون معتقداتهم على الاسس العلمية**

على ان هذا يقتضينا تحليلا مفصلا ، لا للحوادث وحدها ، وانما للفكرة العلمية أيضا ٠ فان العلم لا يهدف – كما قيل – الى التفهم والادراك ، وانما هو يهدف الى استنباط الحوادث المقبلة ٠ اذ أنه يصف بعناية ما وقع – وما يقع – من حوادث وظواهر ، ويربط بينها بنواميس ، أو قوانين يستعين بها على التكهن بالاحداث التالية ٠ فعلم الفلك قد أتاح لنا بدراسة حركة الاجرام السماوية ، تحديد مواقعها بالنسبة للأرض ٠٠ وكذلك فسرت لنا الطبيعة والكيمياء مسلك الأجسام الصلبة والسوائل والغازات ، والجزئيات والذرات !

لو انقرض الانسان لبقيت الظواهر الكونية !

◆ **بيد** أنه يجب عدم الخلط بين هذه القوانين الذاتية – التى أخضع العقل الحوادث لها – وبين القوانين الحقيقية الازلية التى تخفى على ادراكنا ٠٠ فقوانيننا العلمية تعبر عن تعاقب الحوادث، وهى فى ذلك محكومة بالحوادث التى تسيطر عليها ٠٠ **والقوانين المتعلقة بالانسان – وهو الاداة المفكرة والمسجلة معا – انما تعبر عن علاقة أو طائفة من العلاقات قائمة بينه وبين العلة**

الخارجية ، فهى لا تصف سـوى تعاقب الحالات النفسية التى تضفيها علينا تلك العلل والاسباب · فهى اذن نسبية وذاتية !

وعلى ذلك فان عبارة « الحقيقة العلمية » ليست شاملة ولا مطلقة · فالعلم لم يقل لنا أكثر من ان أحداثا معينة تتعاقب ، وستظل تتعاقب ، الى أجل معلوم · وهذا هو جوهر حقيقتنـا العلمية ·· والانسان هو مناط الحقائق العلمية المتعلقـة به ، فلولا وجوده فى الكون ما وجدت هذه الحقائق · والكون حافل بموجات مختلفة الاطوال ، يتحول عدد قليل منها بفعل حواسنا الى ضوء أو حرارة أو صوت · كما ان فى الكون ذرات وجزئيات اذا مالامست أطراف أعصابنا ترجمت هذه الملامسة فى مخنا الى صفات ، كالنعومة والخشونة ، والصلابة والمرونة ، والرائحة · **وهذه الصفات ليست فى الأشـياء ذاتها ، وانما هى تعبير لاستجابة جهازنا العصبى للطبيعة ·**

ولو اننا ألغينا الانســان لبقيت علل ـ أى مسببات ـ أحاسيسنا ، منفصلة عن هذه الأحاسيس ·· تماما كما يحدث اذا ألغينا جميع أجهزة الراديو مع بقاء محطات الاذاعة تعمل · فان الألحان والأحاديث تظل تصدر عن تلك المحطات ، دون أن يسمعها انسان ، بل تحيط بنا من كل جانب موجات صامتة لاتحسها ولا نعرف عنها شيئا ··

الانسان ·· جهاز استقبال لتفسير الظواهر !

◆ **ان** جهاز الاستقبال ـ الراديو ـ هو الاداة التى تحيـل هذه الموجات الصامتة الى موجات صوتية تسمع فى كافة انحاء العالم ·· **وكذلك الانسان يلعب فى الطبيعة دور جهـاز الاستقبال ، فيحيل خصائص الأشـياء الى ظواهر يمكننـا ملاحظتها ، اما مباشرة او بوساطة اجهزة رائعة الدقة يبدعهـا المخ ·· وهذه الظواهر الطبيعية التى تتحول الى ظواهر بشرية ، هى موضوع « العلم » ، فهو اذن بشرى محض !**

وعلى هذا ، فلا بد للدراسة الحقة للانسان من أن تكون دراسة شاملة تتناوله من كافة جوانبه المادية والنفسية ٠٠ ومن ثم فان انفصال دراسة الناحية المادية عن دراسة الناحية النفسية ، وانفصال كل منهما عن دراسة الجوانب الأخرى من خلقية واجتماعية وغيرها ، يفسر لنا الفجوات التى نلاحظها فى العلم ، والتى نجدها كذلك فى تاريخ تطور الكون

ولقد ذكرنا ان العلم يهدف الى استنباط الحوادث المقبلة ، بوساطة « القوانين » التى يربط بها بين الحوادث السابقة وأسبابها ٠٠ فكيف يفلح العلم فى التعبير عن هذه القوانين ؟

ان وسيلة العلم الى ذلك وسيلة احصائية ، تقوم على مشاهدة وملاحظة عدد كبير من الظواهر ٠ وكلما كان هذا العدد كبيرا ، كانت النتائج أكثر دقة ٠٠ ويدلنا البحث التحليلى على أن المادة تتألف من عناصر دقيقة ، متحدة الخصائص ، تسمى « الجزئيات » ٠٠ وهذه الجزئيات بدورها تتألف من عناصر أصغر وادق ، تسمى « الذرات » ٠٠ ووراء هذه « الذرات » عناصر متميزة هى «الاليكترونات» و « البروتونات » ، وهى ليست مادة ، وان كانت لها احدى صفات المادة ، وهى الحجم ٠ ومن ثم فالقوانين التى تنطبق على المادة لا تنطبق على الاليكترونات ، والتى تنطبق على هذه لا تنطبق على تلك

هل العلم مازال قاصرا ؟!

◆ **ولكن** ، لما كان عالمنا مكونا من جزئيات ، ففى وسعنا أن نستخدم فى ابحاثنا الطريقة الاحصائية ، على شريطة ان نعتبر كل جزىء خاضعا فى المتوسط للقوانين الاحصائية ، التى يطلق عليها أيضا اسم « قوانين المصادفة » و « حساب الاحتمالات »

وليست حركة الجزئيات والذرات والاليكترونات والبروتونات حركة رتيبة منظمة ، وانما هى حركة تسودها الفوضي والاضطراب ٠ ولو انها كانت منتظمة رتيبة ، لما

استطعنا ان نستخلص منها قوانيننا العلمية ٠٠ وهذه حقيقة مجردة لابد من ادراكها لمتابعة ما سيأتى من حقائق فى هذا البحث ٠ **فنحن – فى هذا الفصل – سنرجع الى « حساب الاحتمالات » لنثبت رياضيا انه من المستحيل ان نفسر اليوم ظهور الحياة بمحض المصادفة ٠٠ اى بعلمنا البشرى الراهن ٠ فالعلم لا يزال – وقد يظل أبدا – قاصرا عن ان يكشف لنا عن العلاقة بين الكون النظرى الذى خلقه منطقنا وعقلنا من عناصر تعكسها صفحة حواسنا ، وبين الكون الحقيقى الساكن الذى لا لون له**

ان عقلنا دائم السعى الى المعرفة ، وسبيله الى ذلك هو تجزئة الأشياء وتبسيطها ٠ على أن هذا السبيل كثيرا ما يبتعد بالملاحظ المدقق عن المشكلات التى يأخذ فى دراستها

لا « مستحيل » ٠٠ فى قاموس العلم

◆ **بقى** ان نشرح ما يقصد باحتمال حادث ما ٠٠ فالاحتمال هو نسبة عدد الحالات الملائمة لهذا الحادث ، الى العدد الكلى للامكانيات مع اعتبار كافة الاحتمالات الممكنة ٠ فلو أنك قذفت قطعة نقود الى أعلى ، فانها قد تسقط على وجهها أو على ظهرها ، اى ان هناك احتمالين اثنين ، ومن ثم يقال ان الاحتمال هو ١ الى ٢ ، او ٥٠ فى المائة ٠ واذا كان الجسم المقذوف سداسى الجوانب ، كان الاحتمال ١ الى ٦ ٠٠ وقد لا تقذف قطعة نقود واحدة ، بل تقذف عشرا ، والنتيجة من حيث نسبة سقوطها على الوجه أو على الظهر واحدة ٠ **فاذا اردنا التعبير عن احدى الظواهر بلغة الاحتمالات ، قلنا : « عندما يكون الحادث الذى نبحث عن احتمال وقوعه عبارة عن تعاقب حادثين ، فان الاحتمال المطلوب يكون مساويا لحاصل ضرب الحادث الأول فى احتمال وقوع الحادث الثانى وقت حدوث الحادث الاول »** ٠ فاذا انت قذفت زهرين مما يستعمل فى النرد – وكل منهما ذو ستة

أوجه ـ فان احتمال وقوف أحدهما على الوجه ٥ مثلا ، يكـون ١ : ٦ ، وكذلك احتمال وقوف الزهر الثانى ٠ ومن ثم فاحتمال وقوفهما معا على الوجه يعادل سدس مضروبا فى سـدس ، أى ١ : ٣٦ ٠ واذا رغبت الوصول الى نفس النتيجـــة فى خمس قذفات مثلا ، ضربت سدس فى نفسه ٥ مرات ، فتكون النتيجة ١ : ٧٧٧٦ ٠ فكأن الاحتمال فى القذفات الخمس ، أقل منه فى القذفة الواحدة ٠

ولقد محا العلم من قاموسه كلمة « المستحيـــل » ، فكل حادث ـ بالغا ما بلغ تعذر حدوثه ـ يمكن ان يقـع فى ظروف ليست فى حسبان أحد ، والمعول هنا على عامل « الزمن »

كيف نحسب احتمال ظهور الحياة على الأرض ؟!

◆ **والآن** وقد وقف القارىء على هذه الحقائق ، ننتقل الى صميم المسألة ٠٠ فاذا كان من المتعذر علينا أن نضع قواعـــد للحسابات التى تتيح لنا اثبات احتمال ظهور الحياة على الأرض فجأة ، فان من الممكن تبسيط المسألة الى حد كبير ، اذا حاولنا ان نحسب بالمصادفة وحدها ، احتمال ظهـور عناصر جوهرية معينة من عناصر الحياة ، أو جزئيات كبيرة معينة ، كالبروتينات ، يحتوى كل جزىء منها على أربعة عنـــاصر على الاقل ، هى : الكربون ، والايدروجين ، والأزوت ، والاكسيجين ، مضـــافا اليها الحديد ، أو النحاس ، أو الكبريت ، الخ ٠٠ مع افتراض الوزن الذرى لهذه الذرات معادلا لعشرة

ان احتمال تكون جزىء على هذا النحو ، من ذرات تجمـــع بينها محض المصادفة ، وبالمقادير والأوزان التى يقتضيهـــا تماسكها فى جزىء كالبروتين ، يجل عن التصور ، اذ يتطلب ـ علميا ـ قدرا من المادة فوق ادراكنا ٠٠ قدرا فى ضخامة كرة هائلة طول نصف قطرها ١٠ مضروبة فى نفسها ٨٢ مرة (أى ١٠ أس ٨٢ ، او بالأحرى ١ الى يمينه ٨٢ صفرا) من السنين

الضوئية • وهذا الحجم يفوق حجم الكون بأسره ! •• اما اذا نظرنا اليه على ضوء ما ذكرناه من عدم اعتراف العلم بالمستحيل، فأدخلنا عامل الزمن ، استطعنا ان نقرر هنا حدثا من قبيل نشأة جزىء بروتينى بالمصادفة ، وقع فعلا بعد مليارات ومليـارات من القرون • على أنه لا يمكن التسليم بأنه تكرر أكثر من مرتين أو ثلاث

فى نشأة الحياة قوة فوق نطاق العلم !

◆ **الى** هنا لم نتحدث الا عن تكون جزىء واحد ، فما بالك اذا أردنا التحدث عن نشأة الحياة التى تتطلب وجود مئات الملايين من الجزئيات ، ومن مجموعات الجزئيات المتماثلة • لاسـيما ونحن نعرف ـ مما سبق قوله ـ ان الاحتمال يقل ويتضـاءل بسرعة ، كلما أريد لحادث أن يقع اثر حادث آخر

ولو اننا أردنا التحدث عن نشأة خلية حية واحدة ، لغدت الأرقام التى أوردناها فيما سبق من التفاهة بحيث لا يؤبه لها •• وما اقتصرنا فى الحــديث على « البروتين » الا لتبسيط المشكلة وتقريبها الى الافهام

ونخلص من هذا الى واحد من أمرين : اما ان نثق ثقة مطلقة فى علمنا ، وفى الاستدلال الرياضى وغيره ، مما يتيح لنـا أن نتبين أكثر الظواهر المحيطة بنا •• **وفى هذه الحالة لابد لنا من الاعتراف بأن بعض المشكلات الأساسية يجل عن ادراكنـا ، ويقتضينا قبول فكرة المعجزة** •• واما ان نشك فى شـمول « العلم » وفى امكان تفسير كافة الظواهر الطبيعية بالمصـادفة وحدها •• **وفى هذه الحالة أيضا ، نضطر الى العـودة الى فكرة المعجزة ، أو الى تدخل قوة ليست فى نطاق العلم !**

وفى الحالين ، نرانا مسوقين حتما الى أن : الظواهر المتصلة بنشأة الحياة ونموها وتطورها المطرد ، لا تزال ـ فى وقتنـا الحاضر ـ بغير تفسير علمي •• اللهـم الا اذا حدث انقلاب كلي

يدك أسس العلم الحديث !

كيف ينتهى العالم فى نظر العلم ؟

◆ **ومن** كل ما تقدم ، يتضح لنا ان من الواجب ان نبقى على ثقتنا التامة فى علمنا ، على أن لا نؤمن بقدرته على كل شىء .. **وكذلك ينبغى ان لا يغيب عن أذهاننا أن أوجه نشاط مخنا ليست كلها معروفة لنا ، وان التفكير العقلى ليس سوى واحد منها .. وقد لا يكون أدقها أو أسرعها !**

وقد يتساءل القارىء عن السر فى تناول الموضوعات السابقة ، مع انها تبدو كما لو كانت خارجة عن نطاق هذا الكتاب .. ولكن الواقع انها كانت حقائق لابد من الالمام بها لتفهم الفصول التالية التى نتحدث فيها عن « حرية الاختيار » والمذهب الفلسفى الذى يسمونه حينا باسم « المذهب المادى » ، وحينا « المذهب الآلى » ، وحينا « المذهب العقلى » ، وحينا « الالحاد » !

وليس من شأننا ان نبحث مدى سلامة الرأى أو المذهب ، وانما الذى يهمنا هو أن نعرف ما اذا كان الواقع يدعمه أو لا يدعمه

ان العلم الحديث يقول ان المادة تتكون من عدد هائل من الذرات والجزئيات فى حركة سريعة غير منسقة ولا مترابطة ، وانما تحكمها المصادفة وحدها . ويسمى نشاطها هذا « الفوضى الشاملة » ! .. ومن هذه الفوضى استنبط العلم قوانينه التى تقوم على أساس أن أى جزىء ــ أو ذرة ــ لايمتاز على سواه ، وانها جميعها تعمل فى المتوسط على نمط واحد

ولقد ثبت علميا ان المادة الجامدة تعمل جاهدة على الدوام فى سبيل تعادل طاقتها . اى ان الكون ينزع نحو توازن تتلاشى عنده الحالات التى لا تزال مختلة التوازن ــ أو غير متعادلة الطاقة ــ فتقف فيه كل حركة ، ويسود الظلام التام ، والبرد

المطلق ٠٠ وسيكون هذا ـ نظريا ـ نهاية العالم !

ولكننا ـ معشر الآدميين ـ نشهد من النـــــاحية الأخرى تطورا آخر ، هو تطور الأشياء الحية ٠٠

والآن ٠٠ اقرأ هذه الحلقة مرة أخرى ، أو مرات ، حتى تستوعبها تماما ، قبل أن يوافيك « كتـــابى » بالحلقة الثانية فى العدد المقبل ٠٠ فان البحث أهم من ان تهمله لمجرد الاشفاق على عقلك من الجهد ٠٠ ان البحث يكشف لك عن قيمة وجودك فى الحياة كانسان ، وعن الغاية من وجودك ، وعن سر الحياة ذاتها !

كلمات ٠٠ فى السعادة

◆ ان السعادة لشبح عظيم ، يتحدث عنه الجميـع ، ولـكن لم يره أحـد !

◆ اذا كنا نحسد من يلوحون أكثر سعادة منا ٠٠ أفلا يحـق لأولئك الذين أوتوا نصيبا أقل من نصيبنا فى الحياة ، أن يحسدونا ، اذ نلوح لهم أكثر سعادة منهم ؟ !

◆ تحقق الانسانية انتصارها عن طريق الفكر ٠٠ ولكن ، هل هذا يكفى لنكون سعداء ؟ !

◆ تجلب المدنية للانسان الراحة والرفاهيـة ، وفى الوقت ذاته تغرز فيه الأنانية والجشع ، وبالتالى تبعـــد بالسعادة عن متناوله !

◆ فى مقدورنا أن نكون جميعا سعداء ، لو اكتشف للحســـد دواء !



« الأمومة »

من روائع الفنان « رومنى »



الليل .. من روائع الفنان « هنرى فانتان لاتور »


SEXUAL BEHAVIOR
BY
A.C. KINSEY
& OTHERS
التقرير الذى هز الولايات
المتحدة من أقصاها الى اقصاها
بما كشفه من أسرار الحياة الجنسية بين أهلها!
السلوك الجنسى!
للباحث الأمريكى الكبير "الفريد كينزى" وآخرين

« السلوك الجنسى » ٠٠ بين الرجل والمرأة !

◆ يقدم لك « كتابى » فيما يلى الحلقة الاخيرة من المجلد الاول لأعظم بحث فى تاريخ البشرية ، عن السلوك الجنسى لدى الانسان ٠٠ وهو البحث الذى قام به العالم الامريكى الدكتور « ألفريد كينزى » وفريق كبير من الاخصائيين فى عشرات العلوم التى تدور حول حياة الانسان ٠ وقدتناول المجلد الأول « السلوك الجنسى لدى الرجل » ٠ وتتضمن حلقة اليوم التحليل الدقيق والدراسات القيمة التى استخلصها كينزى وزملاؤه عن النتائج الاجتماعية الخطيرة التى تترتب على السلوك الجنسى للمتزوجين ولذوى الشذوذ

وسيبدأ « كتابى » فى الشهر المقبل ، ان شاء الله ، فى تلخيص المجلد الثانى لهذا البحث الفريد فى نوعه ، وهو يتناول « السلوك الجنسى لدى المرأة »

التوافق الجنسى ضرورى لنجاح الزواج !

◆ **الجماع** فى ظلال الحياة الزوجية من ألوان النشاط الجنسى التى تقرها الشرائع والقوانين بوجه عام ، ومن ثم فان هذا الجماع يعتبر مصدر معظم التفريج الجنسى لدى الذكور المتزوجين الذين يعيشون مع زوجاتهم ٠ كما ان التوافق الجنسى الناجح بين الزوج وزوجته معناه الاقبال على الجماع بكثرة كافية والحصول على ارضاء عاطفى فعال ! ولهذا فلا مناص – فى أية دراسة للسلوك الجنسى البشرى – من توجيه عناية خاصة لطبيعة العلاقات الزوجية ٠٠

ويعتبر علماء الاجتماع والبشريات أن الاسرة هى أساس المجتمع البشرى ، ويعتقد بعض المشتغلين بالدراسات الجنسية ، ان الجاذبية الجنسية بين الذكر والأنثى البشريين عامل اساسى

فى تكـــوين الاسرة البشرية ونموها ٠٠ **ومع ذلك ، فان البحث والدراسة القائمين على المشاهدة يؤكدان أن العـامل الجنسى ، وان ساهم مساهمة كبيرة ملموسة فى صون الكيان العـــائلى اليوم ، الا انه جزء من مجموعة من العوامل التي يتوقف عليهـا نجاح الزواج أو اخفاقه ! ٠٠ على اننا من ناحية أخرى نرى أن التوافق الجنسى اذا كان ضعيفا ، جعل صون الزواج مهمـــة عسيرة !**

واهتمام المجتمع بالعلاقة الجنسية الزوجية ، انما ينجم عن اهتمامه بالأسرة كوسيلة لتوفير المأوى للأطفال الذين يولدون عن الجماع بين الذكر والانثى ، وكوســـيلة لتوفير التفريج الجنسى المنتظم للبالغين ، وللقضاء على النشاط الجنسى الذى لا يقره هذا المجتمع ٠ ومع انه ليس من شأننا ان نعالج فى هذا الفصل أهمية العوامل الداعية الى نجاح الزواج أو فشله ، الا ان البيانات التى حصلنا عليها فى دراستنا تساعد على ذلك ٠ على ان أهم ما يعنينا فى هذا الفصل هو ان نبين مركز « الجماع الزوجى » بين ألوان النشاط الجنسى العـــديدة التى تشترك فى تكوين الحياة للذكر الآدمى

الذين يتزوجون ٠٠ ولا يؤدون الواجبات الزوجية !

◆ **والجماع** الزوجى نشاط يمارسه كل الذكور المتزوجين تقريبا ، فان الذين يتزوجون ثم يمتنعون عن الاتصال بزوجاتهم فئة جد قليلة ، تكاد تنحصر فى أولئك الذين لا يعيشون قط مع زوجاتهم بعد الزواج ، وفى أولئك المصابين بعجز أو قصور بدنى ٠ والى جانب هؤلاء فئة ضئيلة جدا من الممارسين للواطة أصلا ، والذين قد تكون زوجاتهم من الممارسات للاتصال الجنسى مع أفراد من جنسهن ! ٠٠ وهناك فئـــة أقل من هذه ، تضم المتدينين المتطرفين ، وغلاة المتصوفين والفلاسفة ٠ وتقل نسبة المعرضين عن الجماع الزوجي بين من تقل أعمارهم عن الأربعين

من المتزوجين ، وهى لا تتجاوز ٥ فى المائة بين المشرفين على الخمسين ، و ٦ فى المائة بين المشرفين على الستين · ولا يوجد فى بيانات هؤلاء ما يدل على نشاط جنسى آخر !

ومع ان الجماع الزوجى هو السبيل الرئيسى للتفريج الجنسى لدى الذكور المتزوجين ، الا انه لا يوفر اكثر من ٨٥ فى المائة من التفريج بين المتزوجين عامة فى الولايات المتحدة · أما النسبة الباقية من التفريج فتأتى عن طريق الاستمناء ، والاحتلام ، والمعابثة ، ومجامعة غير الزوجات من الاناث ، ومجامعة الذكور، ومجامعة الحيوان لا سيما فى المناطق الغربية من أمريكا ··

وتتباين النسبة الاجمالية للتفريج ، الذى يحظى به الذكر المتزوج من اتصاله بزوجته ، بتباين الوسط الاجتماعى : فهى ٨٠ فى المائة فى السنوات الاولى للزواج ، بين ابناء الطبقة الدنيا ، ولكنها تزداد بطول عمر الزواج ، حتى أن المتزوج منهم يحظى بحوالى ٩٠ فى المائة من التفريج الجنسى – فى سن الخمسين – من الاتصال بزوجته · والذين حظوا بالتعليم الجامعى ، ينالون ٨٥ فى المائة من التفريج الجنسى خلال السنوات الأولى للزواج ، من مباشرة زوجاتهم ، ولكن النسبة تقل بطول عمر الزواج ، فلا تزيد على ٦٢ فى المائة فى سن الخامسة والخمسين ·

وهذه نتيجة تدعو الى الدهشة · فقد كان الشائع ان الجماع الزوجى يوفر كل التفريج الجنسى للذكور المتزوجين فى كل الأوساط · وقد كان كثير من الدراسات العلمية والاجتماعية يقوم على أساس ان الجماع الزوجى مقياس لدراسة الحياة الجنسية للمتزوجين ! ·· كذلك كان من الشائع ان الذكور عامة ، يزدادون اقبالا على العلاقات الجنسية الخارجة عن نطاق الزوجية ، كلما تقدموا فى السن ·· ولكن ابحاثنا دلت على ان هذا لا يصدق الا بالنسبة لأبناء الطبقة العليا · **ومن المحتمل ان هذا يرجع الى رد فعل القيود التى كانت تحيط بحياتهم الجنسية**

فى سنى أعمارهم الأولى ، والى الرغبة فى الاغتراف من التجربة الجنسية قبل ان تحد الشيخوخة من مقدرتهم !

على ان السبب فى تناقص عدد مرات الجماع الزوجى ، لدى أبنـاء الطبقة العليـا ، يرجع أحيانا الى ازدياد عدم الرضى عن العلاقات الزوجية ، لاسيما وان الزوجات فى هذه الطبقة يخضعن لقيود عديدة . كذلك لا نجد فى بياناتنا اساسا لما يقال من ان تضاؤل الجماع الجنسى يرجع الى انشـــغال الذكور المتعلمين بالاعمال أو المهن التى يمارسونها .. ومما ينفى هذا ، ان ١٩ فى المائة من التفريج الجنسى للمسنين من هذه الطبقة ، لا يتأتى عن الزوجات ، ولا عن العشيقات ، وانما عن النشاط الفردى .. اى الاستمناء والاحتلام !

دور الرجل .. أهم من دور المرأة !

◆ **واذا** كان الجماع لا يوفر للأزواج الذكور كل التفريج ، فمن المهم أن نلاحظ أنه لايكاد يوفر نصـف التفريج لجميـع الذكور فى الولايات المتحـدة . فبالرجوع الى متوسـط مرات القذف لكل فئة من السن ، نجد ان المعدل يصل الى ٢٣١ مرة قذف فى الأسبوع لـكل مائة من الذكور بين سن البلوغ وسن الشيخوخة . فاذا حسبنا مرات القذف التى تتم أثناء الجماع الزوجى فى كل فئة ـ وقد قسم الذكور بين سنى ١٦ و ٦٠ الى ٩ فئات ـ نجد ان متوسطها ١٠٦ فى الاسبوع لكل ١٠٠ ذكر متزوج . أى ان ٤٥ر٩ فى المائة من التفريج الكلى للذكور عامة فى أمريكا يستمد من الجماع الزوجى .. فاذا أضفنا الى هذه النسبة نسبة الاحتلام الكلى لمجموع الذكور ـ وهى ٥ فى المائة ـ وجدنا ان الباقى من التفريج الجنسى الـكلى للذكور ـ وهو النصف ـ يستمد من مصادر لا يقرها المجتمع ، ويعاقب عليها القانون

ومن الملاحظات الهامة ان الذكور الاكثر ممارسة للجمـاع الزوجى من سواهم ، هم أولئك الذين يسـبقون سواهم فى

البلوغ .. فمتوسط عدد مرات الممارسة ، لدى الذين يتحقق بلوغهم فى سن العاشرة أو الحادية عشرة ، يتراوح بين ٥ و ٧ مرات أسبوعيا ، اذا تزوجوا فيما بين السادسة عشرة والعشرين .. فى حين ان المتوسط ٣ر٣ فى الاسبوع لدى الذكور الذين لم يتحقق بلوغهم قبل الخامسة عشرة .

ونخرج من هذا - على ما أشرنا اليه فى حلقة سابقة - بأن دور الزوجة فى تحديد عدد مرات الجماع ليس من الأهمية بالقدر الذى يخطر بالبال عادة ، وانما العامل الأول والرئيسى هو سن بلوغ الذكر ومدى طاقته الجنسية .

زوجات يكبحن جماح أزواجهن !

◆ **ومن** النتائج التى خرجنا بها من البيانات ، أنه لايكاد يكون ثمة فارق يذكر فى الاقبال على الجماع الزوجى لدى الجيل القديم والجيل الحاضر ، فى فئات العمر المختلفة . وعلى العكس مما هو شائع بين الناس ، نجد ان الاقبال على الجماع الزوجى بين الريفيين أقل - فى كل فئات العمر - عنه بين ذكور المدن . وذلك راجع الى قلة الفرص التى تتيح للذكر فى الريف ان يعقد علاقات اجتماعية جنسية ، كما ان التقاليد تجعله يتحرج فى المراودة الجنسية لزوجته بعد الزواج . **ويلاحظ كذلك أن الكبح أو المنع من ناحية الزوجة يخفض عدد مرات الجماع الزوجى باستمرار ، وفى جميع الأوساط ، ولدى الجماعات المتعلمة بوجه خاص .. وتزيد قيمة هذه الظاهرة اذا عرفنا أن عدداً كبيرا من الزوجات يعتبرن ان عدد مرات الجماع - فى معدله الحالى - كبير ، ويتمنين لو ان ازواجهن خففوا من رغبتهم فى الجماع . أما الراغبات فى زيادة عدد المرات فقلة ضئيلة !**

وهذه الفوارق من شأنها ان تخلق الصعاب فى طريق التوافق الزوجى ، وليس من عامل جنسى أقوى من هذا اثارة للمتاعب فى الأوساط الاجتماعية الراقية . والمسألة هنا لاتكاد تقتصر

على الأفراد ، بل الواجب أصلا ان ندرس ـ بقدر الامكان ـ الأصول المتباينة للاستجابات الجنسية لدى الذكور و لدى الاناث بين الحيوانات الراقية عامة ، وبين البشر خاصة ٠

الأوضاع البسيطة هى خير الأوضاع !

◆ **وتتنوع** الفوارق فى الاقبال على الجماع الزوجى بين الأفراد بتنوع الاساليب المستخدمة فى الجماع ، وفى المداعبة التى تسبقه ، وفى الأوضاع التى تتخذ خلاله : **فهناك من يؤثر العرى ، وهناك من يفضل استبقاء الثياب أثناء الجماع ٠٠ وهناك من يفضل الظلام ، ومن يؤثر الضوء ٠٠ وهناك فوارق ترجع الى اختيار المكان والظروف** ٠٠ ولقد تكرر فى القوانين الانجليزية ـ الأمريكية ، أنه كلما كانت العلاقة الجنسية أبسط مباشرة ، كان ذلك ادعى لاكتمال الجماع ٠٠ وكلما قل التنوع فى العملية ذاتها ، كانت العلاقة أقرب الى القانون الخلقى والأدبى !

وهذا مستمد من العرف الجنسى الى حد كبير ٠٠ كما ان هذا العرف هو الذى يجعل ابناء الطبقة الدنيا يتفادون اى تبديل أو تنويع فى العلاقات الجنسية لاسيما مع الزوجات ! ٠٠ **وعلى العكس من ذلك ، نجد أن المتعلمين ـ لا سيما من ابناء الأجيال الحديثة ـ يرون ان اى عمل جنسى يساعد على توثيق العلاقة العاطفية الجنسية بين الزوجين ، لا يعتبر عملا منكرا أو مستهجنا ، وان كان كذلك بين غير المتزوجين** ٠٠ بل اننا نجد بين ذوى المراكز الريفية العالية من يدافع عن هذا الرأى ، وان قيد دفاعه باشتراط ان لا تكون الاساليب ذاتها هى الغاية ، وانما تكون وسيلة لزيادة احتمالات وامكانيات تحقيق الغاية التى يربطها الدين بالزواج ٠٠ وهى النسل !

العلاقات الجنسية بين المتزوجين وغير زوجاتهم

◆ **ظلت** العلاقات الجنسية بين المتزوجين ـ ذكورا واناثا ـ

وغير أزواجهم ، موضع تقييد فى تاريخ معظم الحضـــارات البشرية ، تفوق قيـــودها تلك التى تفرض على علاقات غير المتزوجين • وكثيرا ما تتخذ هذه القيود شكل استنكار مجامعة الانثى المتزوجة لغير زوجها ، كما تتخذ ــ بدرجة اقل ــ تقييد حق الزوج فى ان يجامع غير زوجته • والى جانب العناصر الكثيرة التى تدخل فى منشـأ هذه القيود ، نرى أنها تنبعث ــ بوجه خاص ــ من حقوق الملكية التى للرجل على زوجته ، اكثر ممـا تنبعث من القواعد الخلقية !

ولا تزال مثل هذه التفرقة بين الجماع قبل الزواج والجماع بعده ، وبين حقـــوق الذكر وحقـــوق الانثى ، قائمة بين من يوصفون بأنهم « مجتمعات بدائية » فى مختلف أرجاء العالم • وقد تخللت تاريخ الحضارة الأوربية الغربية فوارق كهذه ، فى كل مراحلها ، فكانت من مصادر القانون الانجليزى ـ الأمريكى • ولم يتغير الرأى فى علاقة المتزوجين بغيرهم فى أمريكا الا خلال العقدين أو الثلاثة الأخيرة من القرن الحالى

على أنه لا تزال في أمريكا جماعات من السكان متأثرة بهذه الفروق •• فهى قد تقبل العلاقات الجنسية قبل الزواج ، ولكنها تعارض بشدة مثل هذه العلاقات بعده •• بل ان هذه المعارضة تشمل كل الجماعات والمستويات الاجتماعية فى الغالب • ومن ثم نرى ان هذه العلاقات تكون مدعاة لأحاديث السوء ــ على الاقل ــ وكثيرا ما تخضع للعقوبات القانونية • على أن هذا لا يغير من الواقع ، وهو ان المجتمع يعلم ان العلاقات الجنســية للمتزوجين ــ مع غير زوجاتهم أو أزواجهن ــ تحدث ، وتحدث بكثرة ، وانها فى الغالب تفلت من العقاب !

نصف الرجال المتزوجين •• يخونون زوجاتهم !

◆ **ومن** الطريف الهام ، ان الواقع يؤكد ان جزءا كبيرا ممن يعنفون فى ثورتهم ضد حوادث العلاقات الجنسية للمتزوجين مع

غير زوجاتهم ، قد تكون فى حياتهم تجارب من هذا النوع ! ..
فان حوالى ٧٢ فى المائة من الذكور ـ فى دراستنا هذه ـ اعترفوا بأنهم رغبوا ، فى بعض المناسبات ، فى اقامة علاقات مع غير زوجاتهم . وما تظاهر أمثال هؤلاء بالغيرة على القوانين والتقاليد الا دليلا على الصراع الذى يدور فى رؤوسهم بصدد القيمة الاجتماعية لهذه العلاقات .. **والواقع ان اهتمام الكثيرين باحصاءات الذكور ذوى العلاقات مع غير زوجاتهم ، يرجع الى أنهم فى الغالب ممن كانت لهم تجارب فى هذا المضمار ، او ممن يحاولون أن يهونوها على ضمائرهم اذا استطاعوا ان يقيموا مثل هذه العلاقات دون التورط فى مشكلات قضائية أو فضائح عامة ! ..** وكذلك دل بحثنا على أن كثيرين ممن كانت لهم ـ او لا تزال لهم ـ علاقات من هذا النوع ، يخشون اعلانها ، ومن ثم كان من العسير ان نحصل فى دراستنا هذه على بيانات دقيقة فى هذه الناحية .. واذا لاحظنا ان معظم العلاقات التى من هذا النوع نادرا ما تتعرض للعقوبات القانونية ، وجدنا أنفسنا ازاء ظاهرة غريبة ، لا يفسرها سوى الخوف من التبعيات الاجتماعية !

ومع تعذر الحصول على بيانات صحيحة تماما ، الا ان مالدينا يكفى لأن نرى ان من غير البعيد عن الصواب ان نقول ان حوالى نصف الذكور المتزوجين جامعوا نساء غير زوجاتهم ، فى بعض مراحل حياتهم الزوجية . وأبرز ما يلاحظ هنا ان أعلى نسبة فى الحالات لدى أبناء الأوساط الاجتماعية الدنيا ، انما تقع فى سنوات الشباب ، وان النسبة تقل بتقدم العمر . وأعلى معدل ـ لعدد مرات الممارسة ـ هو معدل اقبال الذكور الشبان ممن لم يتجاوزوا فى تعليمهم المرحلة الاعدادية .. على ان هذا المعدل يهبط ـ هو الآخر ـ بتقدم السن ..

وقد عالجنا فى حلقة سابقة أسباب التباين بين ابناء الأوساط الاجتماعية المختلفة ، ازاء هذا اللون من ألوان النشاط الجنسى

هل المرأة أكثر تمسكا بالأخلاق من الرجل ؟!

◆ **والذكر** الآدمى غالبا ـ ان لم يكن دائما ـ ما يضطرب اذا ما تورط فى علاقات جنسية خارج نطاق القانون ، سواء قبل الزواج أو خلاله • ويصدق هذا بوجه خاص على من هم أكثر من سواهم انغماسا فى اللواطة • **أما الأنثى الآدمية فهى أقل اهتماما من الذكر بتنوع الزملاء فى الجماع •• ومن الحقائق المدهشة ان هذا ينطبق ايضا على علاقاتها الجنسية مع بنات جنسها !•• وتعليل ذلك يرجع الى أن الأنثى تكون أكثر ميلا الى التشبث بالقوانين الخلقية من الرجل ، بطبيعتها** • ولكن هذا التعليل غير كاف ، بل ان الفوارق بين الذكر والانثى فى هذا المجال تقوم ولابد على فوارق من الاستجابة الجنسية لدى كل من الجنسين •• فان الانثى لا تستثار بكثير من المهيجات التى تثير الذكر •• كما أنها أقل تأثرا بالانفعالات النفسية أو الحسية !•• ومن العجيب ان اناث الحيوانات الثديية ، الأدنى من الانسان ، تشاركها هذه الظاهرة ! •!• وهناك أدلة كافية على أن الفوارق بين الذكور والاناث فى هذا المضمار ترجع الى فوارق فى الأجهزة العصبية التى يعتمد عليها السلوك الجنسى

الخيانة الزوجية فى الآداب العالمية

◆ **وتشغل** العلاقات بين المتزوجين وغير زوجاتهم قسطا كبيرا من اهتمام الأدب فى العالم ، بل لا يكاد يكون بين ألوان النشاط الجنسى ما يفوق هذه العلاقات ظهورا فى الأدب العالمى ! •• **وفى أغلب الأحيان ، تصور هذه العلاقات كما لو كانت اشهى العلاقات ، واشدها اثما ، واكثرها تعرضا لتآمر القوى الاجتماعية ، وللفشل الأليم المقرون بالفاجعة** • ويردد علماء الاجتماع ، والطب ، والتربية الجنسية ، والدين ـ فى عصرنا ـ ان هذه العلاقات تلحق الضرر دائما بالزيجات •

والسجلات العامة ـ كسجلات القضاء ـ حافلة بالمشـــــكلات الزوجية التى تترتب على نشاط الزوج مع غير زوجته او الزوجة مع غير زوجها

ويستطيع العلم أن يساهم بنصيب فى هذا الصدد ، اذا عنى ببحث اسباب هذه المشـــكلات ، وهل هى ترجع الى علاقات المتزوجين بغير أزواجهم أو زوجاتهم ، أم انهـا ترجع الى العرف والتقاليد ٠٠ وهل تساهم هذه العلاقات أحيانا فى سير الزواج ، وما أثرها على الأشخاص الذين يمارسونها ، وعلى شخصياتهم

ومن البيانات التى جمعناها فى دراستنا هذه ، نجد ان معظم الزوجات ـ فى الاوساط الاجتماعية الدنيا ـ يصرحن بأنهن لا يعارضن فى أن يكون لأزواجهن علاقات بغيرهن ، على شريطة أن لا يعلمن بجلية هذه العـــلاقات ! ٠٠ ومع ذلك فان علاقات الأزواج بغير الزوجات هى أكثر العوامل التى تسبب الخلافات الزوجية فى هـذه الأوساط ٠٠ فتحول اهتمام الزوج وعواطفه يؤدى الى الغيرة والحقد المرير ، وبالتالى الى مشاجرات واشتباكات ، وربما الى القتل ! ٠٠ ومع ذلك ، فان قسطا من هذه العلاقات ـ فى الأوساط الدنيا ـ يجـــرى دون ان يكون له مساس بالعواطف بين الزوجين ، أو باستقرار الزواج !

أما الطبقة الوسطى ، فهى أقل تقبـــلا لعلاقات الأزواج بغير زوجاتهم من الطبقة الدنيا ، وهى غالبا ما تؤدى الى الطلاق ٠ اما فى الطبقة العليا ، فهى أقل خلقا للمتاعب الزوجيـة منها فى الطبقتين الأخريين ، لأنها غالبا ما تكون مجهولة لأى انسـان عدا الاثنين اللذين يرتبطان بها ٠ فاذا كشفت ، فانها تسبب الشقاق والطلاق ٠ **ولكنها ـ من ناحية أخرى ـ تحدث أحيانا بعلم ، بل وبتشجيع من الطرف الآخر فى الزواج ٠٠ اى من الزوجة اذا كان الزوج هو الذى على علاقة بامرأة أخـرى ! ٠٠** ومثل هـذا التقبل الصريح غير معروف فى الأوساط الاجتماعية الأخرى

الخيانة الزوجية قد تساهم فى نجاح الزواج !!

◆ **وبصفة** عامة ، قد نجد ـ فى جميع الأوساط الاجتماعية ـ زوجات يقبلن علاقات أزواجهن مع غيرهن ٠٠ ولكن الأزواج أقل ميلا لتقبل علاقات زوجاتهم بغيرهم ، فى كل عصور التاريخ ٠ وهذه مسألة تحتاج الى دراسات علمية ونفسية ، والى تحليل هذا الفارق بدقة وعناية ٠ على أن المتاعب ـ بوجه عام ـ انما تنشأ عن معرفة أحد طرفى الزواج بعلاقة الطرف الآخر بسواه ٠ وهناك قصص عن علاقات تدوم طويلا ، دون ان تؤثر على الزواج ، حتى يكتشف الطرف الآخر خيانة قرينه ، فيبادر الى طلب الطلاق فى الحال ٠ **كذلك كثيرا ما تنشأ المتاعب نتيجة تفوق الروابط العاطفية بين الزوج والعشيقة ـ أو بين الزوجة والعشيق ـ على الروابط التى بين الزوجين ! ٠٠ وكثيرا ما تنجو العلاقات من المتاعب اذا اقتصرت على مغامرات اجتماعية دون اغراق فى العواطف** ٠٠ وقليلون من الازواج أولئك الذين يستطيعون أن يكونوا على علاقات عاطفية مع امرأتين فى آن واحد ، ولكن كثيرين منهم يستطيعون أن يكونوا على علاقات جنسية مع امرأتين أو أكثر !

وبين الحالات التى درسناها ، افراد تحسن توافقهم الزوجى نتيجة العلاقات التى من هذا النوع ٠ ويتأتى هذا ـ فى بعض الأحيان ـ عن تعلمهم أساليب جديدة ، أو تصرفات جديدة ، تخفف من عدم تجاوب زوجاتهم ! ٠٠ وفى حالات قليلة ، كف الزوجان عن علاقاتهما الجنسية معا ، ولكنهما ظلا يحتفظان بأسرة سعيدة وناجحة ـ اجتماعيا ـ فى الوقت الذى ظل كل منهما ينشد التفريج الجنسى عند غير زوجه ! ٠٠ وهناك حالات وجدنا فيها الأزواج يعانون العجز الجنسى التام عند مجامعة زوجاتهم ، فى حين انهم يمارسون الجماع مع غيرهن بنجاح !

البغاء لا يجد اقبالا كبيرا !

◆ **ننتقل** بعد ذلك الى العلاقات الجنسية مع البغايا . والبغى هنا هى المرأة التى تتيح العلاقات الجنسية لأى رجل ، فى مقابل أجر .. وأجر « نقدى » بالذات . وبغير اشتراط أن يكون الأجر « نقديا » قد ندخل تحت هذا الوصف كثيرات من بنات الأوساط الاجتماعية المختلفة ، اللائى يتقبلن من الأصدقاء هدايا فى مقابل تلك العلاقات ! .. كذلك يجب ان تتمثل هذه العلاقات فى « الجماع »

وهناك نوع من البغاء تكون الانثى فيه هى التى تدفع الأجر .. ولكنه ليس شائعا !

ومن الشائع ان البغاء يتيح القسط الأوفر من التفريج ـ خارج نطاق الزوجية ـ لمعظم الذكور . ومع أهمية هذا الرأى فى السلوك الجنسى فى بعض الدول ، الا ان الوقائع تؤكد ان عدد الذكور الذين يقصدون البغايا ـ فى الولايات المتحدة ـ أقل مما هو معتقد ، كما ان عدد مرات الاقبال أقل بكثير مما يخطر ببال أى أحد

وتدل دراستنا على أن حوالى ٦٩ فى المائة من مجموع الذكور البيض فى أمريكا ، لهم بعض التجارب مع البغايا . ولكن كثيرين منهم تقتصر تجربتهم على مرة أو اثنتين .. وهذا يعنى ان ٣١ فى المائة من مجموع الذكور لم يتصلوا اطلاقا بالبغايا . ومن ناحية أخرى ، هناك نسبة ضئيلة جدا لم تتصل جنسيا ـ مع الاناث ـ الا مع بغايا !

ويركز كثيرون من المهتمين بتقييد النشاط الجنسى لغير المتزوجين ، اهتماما على البغاء ، فى حين أنه لا يوفر اكثر من جزء على عشرة من موارد التفريج للذكور غير المتزوجين فى أمريكا .. والواقع ان قيمة جماع البغايا أهم من الناحية

الاجتماعية ، أو كظاهرة اجتماعية ، منها كوسيلة للتفريج الجنسى !

وبين الأعزاب ، تزداد نسبة الاتصال بالبغايا – الى مجموع التفريج الكلى – مع تقدم السن ، ازديادا محسوسا . فهى تصل الى ١٠ فى المائة عند الأعزاب الذين فى سن الثلاثين ، وهى ترتفع أكثر عند من يظلون أعزابا حتى سن متقدمة . أما بالنسبة للمتزوجين ، فان الجماع مع البغايا لايكاد يمدهم بواحد فى المائة من التفريج الجنسى . ومن ناحية أخرى ، نجد ان البغاء يوفر قسطا متزايدا من التفريج للذكور الذين كانوا متزوجين ثم ترملوا أو انفصلوا عن زوجاتهم أو طلقوهن !

علاقة البغاء بالمخدرات والسرقة والمقامرة

◆ **والأدب** العالمى حافل بمئات المجلدات التى حاول مؤلفوها علاج القيمة الاجتماعية للبغاء ، وهى عناية تدعو الى الدهشة لما عرفناه من ضآلة نصيب البغاء فى التفريج الجنسى للذكور فى أمريكا . **ولقد قامت دائما علاقة قوية بين البغاء وبين ألوان النشاط غير المشروعة : كالمقامرة ، والمخدرات ، والسرقة . فان نسبة عالية جدا من البغايا يسرقن عملاءهن كلما مكنتهن الفرص . كذلك غالبا ما يستدرجن زبائنهن الى الاحابيل التى تمكن الاشرار من سرقتهم ، بل ومن قتلهم . وقد كانت علاقة البغايا بالأمراض السرية حجة من أهم حجج المطالبين بالغاء البغاء**

والواقع ان البغاء هو اكثر النظم الاجتماعية تعرضا للاستنكار والسخط ، فى التاريخ كله . ومع ذلك فلا يزال البغاء قائما ،

ومن ثم فمن حق المرء ان يتساءل عن سر استمرار تردد الرجال على البغايا ؟ ٠٠ ان اول الأسباب هو عدم الحصول من ألوان النشاط الجنسى الأخرى على تفريج كاف ، ولأن البغاء يوفر تنوعا فى الأساليب الجنسية لا يستمد من الألوان الأخرى! ٠٠ كذلك من الرجال من يترددون على البغايا لأنهم يعتقدون انهن أقل نقلا للأمراض السرية من الفتيات اللاتى لا يحترفن البغاء رسميا ٠٠ وفى بعض الأحيان ، يوجد عامل نفسى اجتماعى ، نستطيع ان نلمسه فى اجتماع عدد من الذكور على السعى معا الى البغايا !

وعلى العموم ، ففى كل الأوساط الاجتماعية ، نجد ان الرجال يترددون على البغايا ، لأنهم يرون ان الظفر بالتفريج الجنسى تجاريا أسهل منه بأية وسيلة أخرى ! ٠٠ بل ان مئات من الرجال الذين درسنا حالاتهم ، صرحوا بأن مجامعة البغايا أرخص وأقل نفقة من مجامعة غيرهن ، لما تتطلبه صحبة الفتيات الأخريات ــ لا سيما اذا كن من الأوساط العليا ــ من نفقات باهظة !٠٠ وفضلا عن كل هذا ، فان الرجال يمضون الى البغايا ، لأن من السهل ان يدفعوا الأجر وينسوا بقية المسئوليات والتبعات التى تترتب على مجامعة غيرهن من الفتيات ، سواء من الناحية الاجتماعية ، أو الناحية القانونية

وتتوقف أهمية البغاء للذكور الذين يسعون اليه ، على الوسط والنشأة الاجتماعية ٠ ففى الأوساط الاجتماعية الدنيا ، نجد فريقا يشعرون بالاشمئزاز من مجامعة البغايا ، ولكن الفريق الاكبر لا يجد فى ذلك حرجا ٠ وفى حالات ليست بالقليلة ، يصر الذكور على أن مجامعة البغايا أفضل من مجامعة معظم

الفتيات الأخريات . فالذكر من الأوساط الدنيا لايهتم بتجاوب الانثى او عدم تجاوبها ، وانما يهمه واقع العملية بالذات .. الواقع المجرد من العاطفة ومن الالتزامات الاجتماعية !

أما أثر مجامعة البغايا على شخصية الذكر المقدم عليه ، فأمر يحتاج الى دراسة دقيقة من علماء النفس ومن الاطباء النفسيين

كل الشرائع .. تستنكر هذه العلاقة !

◆ **ننتقل** بعد ذلك الى اللواطة .. فان ٦ر٣ فى المائة من المجموع الكلى لمرات القذف ، تستمد منه . ومع ضآلة هذه النسبة ، فانها ذات قيمة فى التفريج الاجمالى لدى الذكر الآدمى . وانهذه القيمةلتفوق النسبة أومعدلالممارسة ، لأن قسما كبيرا من ذكور الولايات المتحدة يمارسون اللواطة بين سن البلوغ والزواج .. ولو لمرة واحدة فى بعض الحالات ! .. بل ان حوالى ٦٠ فى المائة من الصبية يمارسون اللواطة قبل البلوغ ، كما اوردنا فى حلقة سابقة . وتزداد القيمة الاجتماعية للواطة ، اذا عرفنا ان الشرائع الدينية كلها تعتبر هذا اللون من النشاط الجنسى شاذا ، أو غير خلقى . وكثيرا ما يقسو العرف والقانون الانجليزى - الأمريكى فى معاقبة من يضبط وهو يمارس اللواطة . **ومن ناحية أخرى ، نرى ان كثيرين من الاشخاص الذين يمارسون هذا اللون من النشاط الجنسى ، مصابون باضطراب نفسى ، كما ان عددا غير قليل منهم يكونون على نزاع مع النظام الاجتماعى**

على انه من العسير ان نحصل على بيانات دقيقة عن طبيعة ومدى اللواطة فى ثقافات أوربا الغربية وأمريكا ، وأصعب من

هذا الحصول على بيانات موضوعية بحتة .. **وبغير ذلك ، نجد أن من المتعذر الجزم بقيمة هذا اللون من النشـاط الجنسى ، سواء للفرد الذى يمارسه ، أو للمجتمع فى مجموعه . وما لم يعرف مدى انتشـار اللواطة ـ على حقيقتـه ـ سيكون من المستحيل عمليا ان نفهم البواعث والأصول الاجتمـاعية و « البيولوجية » لها .. ولن تكتمل الدراسة الا اذا تبينـا ما اذا كانت اللواطة قاصرة على الجنس البشرى وحده ، أو انها تشمل الحيوانات الثدييه الأخرى !**

ومن المعروف ان للعوامل النفسية والاجتمـاعية أثرا فى منشأ اللواطة . ولكن العلاقة التى تربط بين هذه العوامل ، ونسبة بعضها الى بعض ، تحتاجان الى دراسة قبل الادلاء برأى . وكيفما تكون العوامل ، ينبغى ان لا ننسى ان الظاهرة الرئيسية التى يجب بحثها ، هى مدى تفضيل فرد لفرد من جنسه أو لفرد من الجنس الآخر ، وقبول هذا الفرد للتفضيل . وهذه المسألة هى جزء من مسألة اوسع نطاقا ، وهى مسألة الاختيـار .. فاختيار الشريك فى علاقة جنسية لا يزداد قيمة الا لأن المجتمع يطلب الاقتصار على اختيار معين ، فى حين أنه لا يملى ارادته فى مسائل أخرى كاختيار الغذاء أو اللباس

وهناك من يطالبون بالقضاء على اللواطة ـ بحـكم القوانين الخلقيـة والأدبية ـ مهما تكن الحقـائق عن نسبة انتشارها أو معدل الاقبال عليها بين الناس . ولكن المسألة تحتاج الى اكثر من القمع .. انها تحتاج الى دراسة علمية دقيقة

وبهذه الحلقة ، نختتم الكتاب الأول من دراسة «كينزى» وزملائه للسلوك الجنسى لدى الانسان ـ وهو الكتاب الذى

تناول السلوك لدى الذكور ـ وسنقدم لك ابتداء من العدد القادم الكتاب الثانى : « السلوك الجنسى لدى الاناث » . وهو الكتاب الذى تفادى فيه « كينزى » ماوجه اليه من انتقاد ، نتيجة التزامه العرض العلمى الجاف ، والذى استكمل فيه أوجه النقص التى فاتته فى الكتاب الأول ، فعرض كثيرا من الأمثال والقضايا والحالات التى صادفها وزملاؤه أثناء عكوفهم على هذا البحث الذى لم يسبقه مثيل فى تاريخ البشرية .

من أضواء الفكر ..

- سر السعادة هو أن تعتقد بأنك سعيد !
- فى كل مرة تخدم فيها انسانا ، اغفرله مقدما نكرانه الجميل !
- لاتوجد ثروة أجل ولا أثمن من ثروة الفكر .. فهى بمثابة الارض الخصبة التى تغل أوفر المحصولات !
- اذا كنت تتألم فجاهد فى اخفاء ألمك .. فان الكثيرين سوف يسعدهم أن يروك هكذا .. صريع الألم !
- ليس من الحكمة أن نجمع فتى يعرف كل شىء ، بفتاة تجهل كل شىء !



زوجات الفنانين

قصة خلاف..
كما يرويها زوجات!

للكاتب الشهير "الفونس دوديه"

تلخيص : فرج جبران

من الجانى .. أهو الزوج أم الزوجة ؟!

◆ قدم لك « كتابى » فى أعداد سابقة متفرقة ، فصولا من الكتاب الذى وضعه الكاتب الشهير « ألفونس دوديه » ، وتناول فيه المشكلات التى تصادف الفنانين فى حياتهم الزوجية ، محللا اياها فى سهولة متمكنة ويسر معجز ، راويا الكثير من الامثلة على أسباب النزاع بين الزوج الفنان وزوجته .. تلك الأسباب التى كثيرا ماتكون تافهة فى أول الأمر ، ثم تأخذ فى التضخم والاستفحال ، حتى تستحيل الحياة بين الزوجين جحيما لا يريان مفرا منه الا بالطلاق أو الانفصال

وفى هذا الفصل الذى نقدمه لك اليوم ، يشرح كل من الزوجين أسباب الخلاف ، على ضوء نظرته الخاصة اليها . وقد ترك المؤلف — للقارىء — الحكم على مدى ما فى حجة كل من الزوجين من قوة وحق ، وأيهما الجانى .. وأيهما المجنى عليه !

رواية الزوجة

◆ **ماذا** حدث له ؟

ولماذا يحقد على ؟

اننى لا افهم شيئا من كل ما يحدث ! ومع ذلك فقد فعلت كل شىء لاسعاده !

رباه ! .. لا أريد ان أقول انه كان من الأفضل لى أن أتزوج من موظف أو مسجل للعقود على أن أتزوج من شاعر يعيش فى سماء الخيال كهذا الرجل ! .. ولكنه مع ذلك كان يعجبنى .. كما هو !

كنت أراه هائما الى حد ما ،

رواية الزوج

◆ **كنت** قد فكرت فى كل شىء ، واتخذت احتياطى لكل شىء : لم أفكر فى الزواج من باريسية ، وذلك لأننى أخاف من الباريسيات ! ولم أفكر فى الزواج من امرأة ثرية تلاحقنى بطائفة من الطلبات المرهقة ! كذلك كنت أخشى الطبقة البرجوازية وأفكارها ! .. كانت الزوجة التى وقع عليها اختيارى تمثل الطراز الذى كنت أحلم به ، وتنتمى الى طبقة اجتماعية بسيطة ، حتى اننى كنت أقول لنفسى :

رواية الزوجة

ولكنه كان لطيفا ، مهذبا ، وعلى شيء من الثراء ! ٠٠ وكنت أعتقد انه لن يتردد في البحث عن وظيفة مناسبة تساعدنا على ان نعيش فى هناءة ٠ وكان هو أيضا – وقتئذ – متفقا معى فى هذا الرأى ٠ وكان اذا أقبل لزيارتى عند عمتى – فى الريف – لا يجد كلمات كافية يعبر بها عن اعجابه بنظام منزلنا الصغير ، الذى كان يشبه الدير فى دقته ! ٠٠ وكان يسرف فى الضحك ، ثم يطلق على جميع الاسماء التى يختارها لأبطال قصائده

ولكن بعد ان تم زواجنا واستقر بنا المقام فى باريس ، بدأت اشعر بالفرق بين طبيعة كل منا ٠ لقد كنت احلم دائما بمنزل صغير ، مستقر النظام ، شديد النظافة والأناقة ٠٠ فما لبثت أن وجدت زوجى يملأ المنزل بقطع من الاثاث التى لا نفع لها والتى انقرض طرازها ،

رواية الزوج

– سوف تكون مدينة لى بكل شيء !

ولقد وجدت سرورا عظيما فى تكوين ذلك العقل البسيط وتوجيهه الى الاشياء الجميلة ، وفي اثارة اهتمام هذه الروح النقية نحو كل ما يهمنى وينعش آمالى ، وفى بث أفكارى الخاصة فى ذلك « التمثال » الجميل !

وكان لها مظهر التمثال حقا : بهاتين العينين اللتين يتجلى فيهما الهدوء والرزانة ، وبشكل وجهها من الناحية الجانبية – بذلك الأنف الاقنى المنتظم – وبهيئتها التى تتسم بجمود وقسوة لا يخفف منهما سوى جمال القسمات ذات اللون الوردى ، وظلال الشعر المرفوع الى أعلى

أضف الى هذا لهجة قروية كنت أجد فيها نشوة خاصة ، حتى اننى كنت أستمع الى حديثها – فى بادىء الأمر ! – وأنا مغمض العينين ، فأحس بذكريات الطفولة السعيدة

رواية الزوجة

وبأنواع السجاد الذى طمست معالم رسومه لشدة قدمه ٠

وكان هذا شـــأنه فى كل شىء ٠ ويمكن ان تتصـــور مقدار يأسى اذا عرفت انه وضع فوق « الصندرة » ســـاعة أهدتها الى عمتى ، وصـــورا زيتية بديعـــة ذات اطارات رائعة أهدتها الى صديقـــات المدرسة ٠٠ فقد كان يرى كل هذه الأشياء قبيحة مزرية !

أصدقاء زوجى صنف غريب من الناس !

◆ **وما** زلت أسائل نفسى عن السبب فى ذلك ٠ فلقد كان مكتبه مجمعا لقطـــع من الجلد والمشمع انطفأ لونها ، ولتماثيل صغيرة كنت أخجل من مجرد النظر اليهـــا ، وحوامل للشـــموع يعلوها الصدأ ، وأوانى للزهـــور ينفذ منها الماء ! ٠٠ بل انه وضع ، الى جانب المعـــزف الخاص بى ، معزفا آخر صغير الحجم قبيح الشكل ، فقـــد

رواية الزوج

تعاودنى ، وتتردد فى نفسى أصداء حياة هادئة ، فى ركن بعيد ، مجهـــول ، من أركان العالم ! **أما اليوم فلا أستطيع ان أحتمل مطلقا سماع هذه اللهجة ! ٠٠ على ان السبب فى ذلك هو اننى كنت وقتذاك مملوءا بالثقة : كنت أحب ، وكنت ســـعيدا ، ومستعدا للاستزادة من هذه السعادة! ٠٠**

وكنت مليئا بالحماس للعمل، فما ان تزوجت حتى بدأت أنظم قصيدة جديدة ٠ فاذا أقبل المساء ، أخذت أقرأ لها ما نظمته بالنهار ٠٠كنت أريد ان أمزجها تماما بحياتى !

وقالت لى فى المرات الاولى:

ــ هذا جميل !

فحفظت لها هذا التـــأييد الساذج ، البسيط ــ الذى يشبه استحسان الأطفال ! ــ على أمل ان يأتى يوم تستطيع أن تدرك فيه معنى هذا العمل الذى أعيش من أجله !

زوجتى لا تقدر عملى !

◆ **يا للتعسة ! ٠٠** لاشك

رواية الزوجة

بعض أوتاره ، ولا يكاد المرء يسمع له صوتا اذا عزف عليه!

وكنت أقول في نفسي : « ان الفنان ليس الا مجنونا جزئيا !٠٠ انه لا يحب الا الأشياء البالية ، ويحتقر كل شيء له فائدته ! »

ولما تعرفت الى اصدقائه ، ورأيت من يعاشرهم ، والذين يستقبلهم ، تفاقمت الحال !٠٠ **فقد رأيت رجالا تركوا شعر رؤوسهم ينمو على أهوائه ، وأطلقوا لحاهم ! ٠٠ ولم يكن أحدهم يبالى بمراعاة القواعد أو التقاليد ٠٠ فقد كان بعضهم يأتى ـ مثلا ـ لتناول الغذاء ٢٠ مرة متتابعة ، دون ان يقوم بزيارة واحدة عادية ، او يقوم بلفتة تدل على الادب أو الذوق ، كان يرسل بطاقة واحدة أو قطعة من الحلوى ، بمناسبة رأس السنة الجديدة !**

وكان بعضهم يصحبون زوجاتهم فى بعض الأحيان ، فكنت ترى نساء ذوات مظهر

رواية الزوج

اننى أرهقتها ! ٠٠ كنت بعد ان أقرأ لها شعرى أقوم بشرحه لها ، وأنا أبحث فى عينيها الجميلتين عن الضياء المرتقب، متوهما دائما اننى قد وجدته ! ٠٠ وكنت أضطرها اضطرارا الى ابداء رأيها ـ على أمل أن أعرف قيمة عملى عندها ـ فلا أسمع منها غير السخافات والترهات !

لقد كان أعظم ما أود تحقيقه هو أن أجعل من زوجتى الحقيقية زوجة لفنان ! ولكنها ـ ويا للأسف ـ لم تكن تفهم ذلك ٠ وكنت اقرأ لها قصائد كبار الشعراء ، وأسمعها أقوى وأرق أشعار الحب ، ولكن ذلك كله كان يتساقط أمامها كأوراق الخريف !

وما زلت أذكر كيف اننا كنا نقرأ فى احدى الليالى قصيدة «ليلة من أكتوبر» ، فقاطعتنى لتطلب منى شيئا أعظم قيمة فى نظرها من الشعر ، الذى هو محرك النفس ، والذى ينفذ الى الروح فيضيئها

رواية الزوجة

غير مألوف : فزينتهن فوضى لا تسير على قواعد ، وشعورهن مهوشة ، وذيول ملابسهن تزحف من ورائهن . ولم تكن الواحدة منهن تخجل من ابراز « مواهبها » فى وقاحة وجرأة ! .. كان بعضهن يغنى كما تفعل الممثلات ، وبعضهن يعزف على (البيانو) كما يفعل المهرجون ! .. وكن جميعا يرفعن أصواتهن ، اذا ما تحدثن ، كما يفعل الرجال !

زوجى لا يريدنى أن أكون « ست بيت » !

◆ **فهل** كل هذا محتمل؟!

هل للمرأة العاقلة ، بمجرد زواجها ، ان تفكر فى شىء غير العناية بمنزلها ؟!

هذا ما حاولت ان أفهمه لزوجى ، كما حاولت ان أنتزعه من الوسط الغريب الذى كان يتهدده بخطر عظيم ، فغضب على غضبا شديدا . وكان يلومنى دائما بقوله :

رواية الزوج

ويسمو بنوازعها !

وارتسمت على فمها الجميل ـ وأنا أقول هذا ـ ابتسامة ساخرة ، وكأن الذى يحدثها طفل أو شخص معتوه ! .. لقد استخدمت معها كل بلاغتى وفصاحتى دون جدوى ! لم ينفع معها شىء قط ! ..

وكنت أصطدم دائما بما كانت تسميه التفكير السليم .. ذلك العذر الابدى الذى تلجأ اليه القلوب الجافة والعقول الضيقة !

لكم تغيرت فتاتى .. بعد الزواج !

◆ **ولم** يكن الشعر وحده هو الذى يضايقها . فقد كنت ـ قبل الزواج ـ أظنها من هواة الموسيقى . وكان يبدو انها تفهم المقطوعات التى تعزفها والتى تعلمتها على يد أستاذها . ولكن .. ولكن هل يمكن ان تتصور شيئا يحزن اكثر من ان تهجر زوجتك الصغيرة كل ما كانت تميل

رواية الزوجة

ـ انك قد أبعدت عنى جميع اصدقائى !

نعم ، لقد نجحت فى ذلك، ولست آسفة عليه ! فقدكان هؤلاء القوم على وشك ان يصيبوه بالجنون ! ٠٠ اذ كان فى بعض الأحيان ـ بعد أن يفترقوا عنه ـ يقضى الليل وهو ثائر الأعصاب ، مضطرب ، يسير فى المنزل غاديا رائحا على غير هدى ، وهو يحدث نفسه بصوت مرتفع ! ٠٠ لكم تحملت من نزواته ومن مظاهر شذوذه

كان يدخل حجرتى فجأة فى الصباح وهو يصيح بى :

ـ هيا ! أين قبعتك ؟ لسوف نسافر فورا الى الريف !

وكان يفرض على فى هذه الحالة ان أترك كل شىء : الحياكة ، والمنزل ، وأمور التدبير ، الى ركوب السيارات والقطارات وانفاق الأموال ! فى حين انى كنت لا أفكر الا

رواية الزوج

اليه وهى فتاة ؟! ٠٠ نعم ، كان هذا هو ما حدث ٠ **فبعد ان تحقق الغرض ، وانتهى الدور ، خلع الممثل ثوبه !٠٠ فقد كانت كل تلك المظاهر ـ من مواهب صغيرة ، وابتسامات رقيقة ، واناقة عابرة ـ بقصد الزواج فقط !**

وكان كل أملى فى بادىء الأمر ان الميل الذى لم أتمكن من بثه فيها ـ وهو الذوق الفنى ـ سوف يتسلل الى نفسها على الرغم منها ، وهى تعيش فى باريس المدهشة ٠ ولكن ماذا تفعل بامرأة لاتعرف كيف تفتح كتابا ، أو تنظر الى صورة ؟!

ولقد أدركت انه يجب ان أرضى بالعيش الى جانب مدبرة للمنزل ، نشيطة ، مقتصدة٠ اواه ! بل مقتصدة جدا !٠٠ وكان من الممكن ان أرضى بمصيرى هذا ـ اذ كان مصير كثيرين من الفنانين ! ـ ولكن هذا الدور البسيط لم يكن ليكفيها ٠ **فقد نجحت تدريجا،**

رواية الزوجة

فى اقتصاد المال ، اذ ان ايرادا يبلغ ١٥ ألف فرنك لا يكفى لكى نحيا حياة هانئـــــة فى باريس ، مـــع تـــرك شيء للأولاد !

وكان فى بـــادىء الأمر يضحك لملاحظاتى ، ويحاول ان يجعلنى أضحك معـــه ٠ **ولكنه حين رأى انى مصممـة على الاحتفاظ برزانتى ، أخذ يحقد على بساطتى وعلى ميلى للحياة المنزلية !** ٠٠ فهل أنا مسئولة عن عدم حبى المسرح ، والحفلات الموسيقيـة ، وتلك السهرات الفنية التى كان يريد أن يقودنى اليها ، والتى كان يقابل فيها أصدقاءه القدامى ، وهم مجموعة من المعتوهين ، ومن البوهيميـــــين ، ومن المغفلين !

كنت أنافق زوجى ٠٠ فيصدنى !

◆ **على** انى اعتقـدت فى

رواية الزوج

وفى خبث وصمت ، فى ابعاد جميع اصدقائى عنى ٠ كنـا لا نشعر أمامها بالحرج ، فكنا نتحدث – كما كنا نفعل فى الماضى – عن مغامراتنا الجنونية ومتناقضاتنا ، ولكنها ماكانت تفهـــــم : لا الدعابة ، ولا السخرية ! ٠٠ وما كان ذلك كله الا ليزيد من اضطرابها ومن خلطها للأشياء ، فكانت تجلس فى ركن صغير من أركان الصالون ، وتصغى لما يقال دون ان تقول شيئا ، وهى تعد نفسها بأن تستبعد – واحدا اثر الآخـــر – كل من كان يضايقها بأحاديثه ودعاباته

تخلصت من اصدقائى ٠٠ وأحلت محلهم اصدقاءها !

◆ **وعلى** الرغم من الاستقبال الحسن الذى كانت تتلقى به اصدقائى ، فانهم جميعـــا

رواية الزوجة

وقت من الأوقات انه سيثوب الى رشده • فقد نجحت فى اخراجه من عالمه « المجرم » ، وفى احاطته بطائفة من العقلاء المتزنين ، كما نجحت فى أن أقيم له صلات ـ لها نفعها وقيمتها ـ مع الكثيرين • ومع **ذلك فقد أصيب « السيد » بالسأم ، وأخذ يشعر بهذا السأم من الصباح حتى المساء •• وقد حاولت أن أبدو**



رواية الزوج

كانوا يحسون بهذا التيار البارد الصغير ، الذى يشعرك بأن الباب قد فتح ، وان الوقت سيأزف بعد قليل كى تغادر المنزل !

وبعد ان انصرف عنى اصدقائى ، أحلت محلهم اصدقاءها هى ! ووجدت نفسى محاطا بقوم أغبياء ، غرباء على الفن ، يحتقرون الشعر لانه «لا يدر مالا !» • وكانوا يتعمدون ان يذكروا أمامى اسماء المؤلفين الجدد ،ومخرجى الكتب والروايات ، وهم يقولون : « ان فلانا يكسب الكثير من المال »

كسب المال ! هذا هو ما يهم تلك المخلوقات الشريرة!

وفى مثل هذا الوسط الحقير ، تجلت كل عادات زوجتى الريفية ، وكل نظراتها الضيقة ، وتحول كل ذلك الى

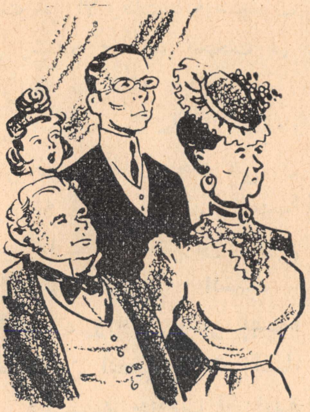
رواية الزوجة

لطيفة ، خلال سهراتنا الصغيرة بالمنزل ، فأعد له قدحا من الشاى أو كأسا من الشراب ، الا أنه لم يتخل عن غضبه وتجهمه ! .. وكنت أقول له : « اقرأ لى شيئا مما تؤلف » ، فيتلو على اجزاء من قصائده . وبالرغم من اننى كنت لا أفقه شيئا مما أسمع ، الا انى كنت أتكلف الاهتمام ، وكنت - من آن لآخر - أبدى ملاحظة كان يقابلها دائما بالصد والاعراض

وجدت لزوجي وظيفة ..
فلم يسامحنى قط !

◆ **وبعد** عام كامل من العمل المتواصل ، لم يستطع ان ينشر أكثر من كتاب واحد ضمنه أشعاره وقصائده . وفشلت الفكرة فشلا ذريعا ، اذ لم يلق الكتاب اى رواج! ..

رواية الزوج



بخل شديد !

١٥ ألف فرنك ! .. لقد كنت أتوهم ان من الممكن ان نعيش بهذا المبلغ ، دون ان نقلق على الغد . ولكن لا ! لقد كنت أسمعها دائما تشكو ، وتتحدث عن ضرورة الاقتصاد ، والاستثمار المنتج ! .. وكانت كلما زادتنى حديثا فى هذه التفصيلات ، أحسست ان الرغبة والميل الى العمل يفلتان منى !

رواية الزوجة

فقلت له : « هأنتذا قد رأيت النتيجة بنفسك ! »

قلت له ذلك حتى يثوب الى رشده ، فيوجه اهتمامه الى انتاج شيء له قيمة وفائدة . على أنه غضب لذلك غضبا هائلا ، وتولاه — منذ ذلك الوقت — حزن دائم وتعاسة شديدة . وتقدم بعض اصدقائي بالنصح لى :

— ان السبب فى ذلك يا عزيزتى هو السأم .. انه المزاج الذى يلازم الرجل الذى لا يجد عملا يشغل به !

وعندما سمعت ذلك ، بدأت أبحث وحدى ، وبين جميع من كانوا حولى ، كى أجد له وظيفة . لقد بحثت فى الارض وفى « السماء ! » ، وقمت بزيارات كثيرة لزوجات كبار الموظفين ، ومديرى الاقسام فى الوزارات المختلفة ! ..

رواية الزوج

احتقرت عملي ..
منذ البداية !

◆ **وكانت** تقترب أحيانا من مكتبى ، وتقلب الأوراق التى تضم أشعارى ، ثم تقول : « ما هذا ؟! » ، وهى تشير الى الساعات « الضائعة » فى نظم تلك السطور الصغيرة التى لا معنى لها بالنسبة اليها !

آه ! لو كنت استمعت اليها ، لكان اسم الشاعر الجميل الذى أحمله الآن — والذى بذلت الأعوام الطويلة حتى حصلت عليه — يتمرغ فى الوحل .. وحل الانتاج الرخيص !

وعندما أفكر فى اننى قد بذلت لهذه المرأة نفسها — فى بادىء الأمر — كل قلبى ، وسلمتها اياه .. وعندما أفكر فى ان هذا الاحتقار الذى تبديه لى ، لأننى لا أكسب مالا وفيرا ، انما يرجع الى اللحظات

رواية الزوجة

بل لقد لجأت الى مكتب أحد الــوزراء ! كل ذلك دون ان أخطره

فلقد كنت أريد ان احتفظ له بمفاجأة ٠ وقلت فى نفسى: « لعله يسعد هذه المرة » !

وأخيرا جاء اليــــوم الذى تلقيت فيه خبر تعيينـــــه ٠

وحملت اليه المظــــروف الفاخر الذى يضم أمر التعيين وأنا أكاد أطير من الفرحة ٠ وكان معنى هذا المظروف : المستقبل المضمون ، والحيــاة الميسورة ، والعمل الســهل ، والهدوء الذى يشــمل أركان البيت

ولكن ٠٠ هل تعرف ماذا كان رده على ؟ ٠٠ لقد قال لى انه لن يسامحنى قط على ما ارتكبت ! ٠٠ ثم مزق خطاب التعيين ألف قطعة ، وخرج من البيت بعد أن أغلق الأبواب

رواية الزوج

الأولى من زواجنا ٠٠ عندما أفكر فى هذا ، أشعر حقــا بالخجل من أجلهـــا ٠٠ ومن أجلى !

لن أتركها تتحكم فى قط !

◆ **اننى** لا أكسب مالا! ٠٠ هذا يفسر كل شىء : العتــاب الذى يتجلى فى نظراتهـــا ، واعجابها بالمؤلفات الرخيصة، وتبرمها بأصـــــدقائى حتى تخلصت منهم ، وتضييقهـا الخنـــــاق على مصروفاتنا ، وتأففهـــــا المســـتمر من أشـــعارى وقصـــائدى التى كانت تنـــــــال اعجــــاب الأدبــاء ! ٠٠ وأخيرا ، وصل بها الأمر الى ذلك المسعى الذى قامت به أخيرا ، كى تحصـــل لى على وظيفة فى احدى الوزارات

ولقد قاومت ! ولم تبق لى

رواية الزوجة

بشدة

آه ! هؤلاء الفنانون ! هذه الأدمغة المجنونة التى تفهم الحياة « بالمقلوب » !

لقد كنت أود ان أتحدث اليه ، وان أعيده الى صوابه . ولكن ، كيف السبيل الى هذا ؟ .. لقد قالوا لى - بحق - انه « مجنون ! » . فأى فائدة ترجى من الحديث اليه ؟! اننا لا نتكلم لغة واحدة ، ومن ثم فلن يفهمنى مطلقا

وها نحن اليوم .. نحن الاثنين .. ينظر كل منا للآخر .. واننى لأرى الكراهية فى عينيه ، ومع ذلك فاننى أشعر نحوه بالحب !

يا الهى ! ان هذا مؤلم جدا !

رواية الزوج

غير هذه : ارادة متحركة ، مستعدة لكافة الهجمات ، ولكافة أنواع التحدى !

.. فى وسعها ان تتحدث ساعات كاملة ، وان تسبب لى البرودة بابتسامتها الثلجية ، الا ان فكرى يهرب منها ، وسيهرب منها دائما !

وها نحن أولاء : زوجان حكم عليهما بأن يعيشا معا ، ومع ذلك تفصل بينهما مساحات شاسعة من التباين الذهنى والروحى !

ونحن الآن فى شدة الاعياء ، وفى شدة اليأس ، بحيث لا يريد أحدنا ان يتقدم خطوة نحو الآخر !

وسنبقى هكذا مدى الحياة! ان هذا لفظيع !



ثمرة ناضجة فوق الشجرة .. (ترى لمن سيكون قطافها ؟ !)



هيلين

من اشهر لوحات الفنان « روبنز »
(ومعروضات متحف (فيينا) الاهلى)



أسس لأولادك هذه المكتبة

إن "مطبوعات كتابي" التي تقدم لك ولأفراد أسرتك ترجمة عربية دقيقة كاملة لأمهات الكتب العالمية التي تؤلف تراث الإنسانية الخالد على مر العصور، تكفل لابنك - أو ابنتك - أن يشب فيجد في متناوله مكتبة عربية زاخرة بكتب الأدب المنتقاة، المترجمة عن أساطين المؤلفين في شتى بلاد العالم، والتي تضم عصارة تجاربهم ومشاعرهم وانفعالاتهم.. وهكذا سوف يتاح لابنك أن يقرأ "تولستوى" و"جيته" و"ديكنز" و"فولتير" و"دانتى" منذ نعومة أظفاره، بينما حرمت أنت في شبابك الباكر من هذه المتعة.. فعندما أتقنت اللغات الأجنبية كنت قد بلغت سن العمل والزواج والمسئوليات، فضاعت منك فرصة الفراغ الطويل المنشود.. إلى الأبد!



اقرأ تفصيلات عدد منتصف يناير في الداخل

مطبوعات كتابي

يصدرها: حلمي مراد

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية